رصيف هوسمان

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : رصيف هوسمان
اسم المؤلف: د.إلياس هنية
التدقيق اللغوي: ريها مصطفى
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
الترقيم الدولي: ٣٧٢-٠١-٢٥-٠٩-٢٠٢٣

مسار للنشر و التوزيع
شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

رصيف هوسمان

د.إلياس هنية

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى عائلتي وإلى كل من شجعني على الكتابة.

إلى أولئك الذين يعتذرون عن الإجابة بدلا من أن يكذبوا.

إلى الذي قال لنا فيما مضى "لا تتوقفوا يوما عن طلب العلم"

إلى دار مسار للنشر والتوزيع: مفاجأة حلوة حين بدأت أظن إنني بلغت نهاية المحاولات.

جرت العادة أن تطأطأ الرؤوس خجلا لجهلها. وعهدنا من يكتسب معرفة يتباهى بما نال من علم ويلوم غيره لفقدانه.

السّؤال هنا: هل اللّوم في محله؟

هل يلقى اللّوم على من لا يعلم...؟

أم على من لا يعطي العلم...؟

الأجدر أن يلام، ولم لا، أن يحاسب من لا يعمل بذلك العلم أو يطمسه ويتجاهله، بل وعندما يعود ذلك بالضرر والسّوء، لا يسعى إلى الإصلاح انطلاقا من مآل ما تسبّب به، أو اقتداء بمن نجح سلفا، إنّما ينكبّ على إعادة اختراع العجلة أو المضيّ فيما ابتدأ، غير مبال بنتيجة فعله...

سنة ١٦٦٦ اندلع حريق هو الأفظع من نوعه في تاريخ مدينة لندرة البريطانية، حيث أتت النيران على ما تعدّى ال٨٠ بالمائة من المعمورة مما اختزل حلول إطفائها في خيار وحيد، وهو هدم المباني أمامها. ولم يتوانى رجال الإطفاء والجيش الملكي عن فعل ذلك لمدة أربعة أيام متتالية حتى أخمدوا ذلك الحريق التاريخي. ثم أمر الملك شارل II بإعادة بناء المدينة وكانت النتيجة أن أصبحت عاصمة الضباب من أجمل مدن العالم والأكثر احتراما لقواعد السّلامة المرورية. وغدت شوارعها أبرح وأوسع، ومبانيها أمتن وأقوى، وصرفها الصّحي أسلم وأنقى. ووقع إخراج المنازل من وسط المدينة وتمكين أصحابها من مساكن أخرى، وشُيّدت منشآت عمومية كبرى وبنيت أرصفة واسعة وسهلة الولوج، وأخذت المدينة تقريبا شكلها النهائي منذ ذلك العهد بعد إزالة أكثر من ١٣٠٠٠ بيت... و٨٧ كنيسة... وكاتدرائية سان بول وغيرها...

بعد ما يقارب المائتي سنة (١٨٤٦ – ١٨٤٨) كان الإمبراطور الفرنسي آنذاك

لوي نابليون بونابرت (Louis–Napoléon Bonaparte) في المنفى في العاصمة البريطانية، وانبهر أيّما انبهار بمعمار المدينة العصري ونظافة شوارعها وجمالها. لذلك وعند عودته إلى فرنسا أسند سنة ١٨٥٣ مهمّة تجميل وصيانة باريس إلى البارون أوجان هوسمان (Eugène HAUSSMAN) الّذي كان يشغل منصب Le préfet ، أي ممثّل سلطة الدولة بمقاطعة باريس أو ما يناظرها عندنا الوالي، أو المحافظ كما هو الحال عند جيراننا أو الحاكم المحلي في أصقاع أخرى.

ولقد قام السّيد هوسمان بمهمّته على أكمل وجه. هدم ما يفوت ال٣٠٠٠٠ منزل وقام بتوسيع الشوارع وتحسين ولوج الهواء والعباد والعربات إليها. وعمل على إبراز وإظهار معالم المدينة، وبنى القناطر فوق نهر السان (la seine) والمسارح والمتاحف، وجعل ساحة النجمة Place Étoile مركزا ينطلق منه اثنا عشر شارعا، منهم شارع الشّان إيليزي Avenue des Champs–Élysées الّذي يُعدّ إلى اليوم ومنذ زمن بعيد أجمل شارع على وجه الأرض. وأمر بزرع ١٠٠٠٠٠ شجرة داخل المدينة، وأكثر من المناطق الخضراء داخل وخارج باريس كي يحلو فيها التّجوال وكي تكون رئة المعمورة وروّادها... والقائمة تطول رغم كلفة تلك الأشغال الباهظة.

ومنذ ذلك الوقت تعدّ باريس أجمل عواصم العالم بنمطها المعماري الهوسماني الموحّد والّذي لا يحيد عنه أحد. ولم ينس الرّجل ممثّل سلطة الدولة أن يؤمّن المسكن لكل من اقتلعت منهم ديارهم، وأن يرفع معاليم الإيجار في عاصمة الأنوار كي ترتفع موارد خزينة المحافظة وكي لا يتجرأ من دبّ وهبّ على اكتساح المدينة وجلب الفوضى إليها. ومن هنا انطلقت عمليات تجميلية أخرى في مدن فرنسية عديدة قرّر ولّاتها النّسج على منوال البارون هوسمان، وانتشرت العدوى إلى مدن أوروبية كبيرة وعريقة على غرار روما وفيانا وبروكسل ومدريد وبرشلونة

وستوكهولم ووصلت إلى مناطق بعيدة من العالم مثل القاهرة... وربّما تونس...

وهنا أعود إلى السّؤال الّذي طرحته في البداية. على من يُلقى اللّوم...؟

على من لا يعلم؟

أو على من احتكر العلم وأخفاه وتجاهله...؟

يقال دائما أن السّفر واكتشاف العالم والحضارات يفتح الباب أمام التحضّر ومواكبة ركب التمدّن والتطوّر، إلّا أن أناسا لا يبالون بذلك، يزورون أجمل المدن ويتحسّرون على تجاهل الزّمن لأوطانهم ومساقط رؤوسهم، التي عندما يعاودونها يبكون عواصم العالم الجميلة وانفرادها بالطليعة وسبقها الزّمن. بل وينساقون إلى مقارنات عقيمة وينسون أو يتجاهلون أو ربّما يتكبّرون عن فعل أي شيء قد يدفع بلدانهم إلى الالتحاق برأس الكوكبة.

في هاته المغامرة لن يكون أحد موضع اللّوم. الكل منزّه عن الخطأ، الكبير والصغير، الغني مثل الفقير، الرّجل والمرأة، طالب العلم كالمنقطع عنه، المثقف كما الجاهل... الوحيد من سيتحمل عبء اللّوم والمتسبب بكل ما تواتر من أحداث ومطبّات ومشاكل هو الرصيف.

ربّما أنشئ هذا الرصيف ليكون له قدرا هوسمانيا...؟ لكن...

ما الّذي كانت ستؤول إليه وقائع هذه الرواية لو أن الرصيف كان موجودا؟

الحقيقة أنه موجود لكنه كما لو أنه مختف أو مفقود أو محفوظ ليوم ما أو لحين حاجة.

يشبه حال الرّصيف أو وضعه إلى حدّ بعيد تصرّف بعض العائلات أو أغلبها من التي ترى الويلات والمصاعب حتى يتسنّى لها بأثمان باهضة، ولم لا بالاقتراض أو التّداين شراء صالون جديد، تكون قد اهترأت أرجلهم في الرّواح والمجيء بين هذا وذاك البائع ومن حين معرض دولي إلى شهر الاثاث والتخفيضات إلى أن

يقع الاختيار على النموذج والألوان المناسبة وعدد المقاعد والتصميم والقياسات المُرضية، واستشراف أو تخيّل ما قد يضفيه من رونق وجمال على قاعة الجلوس، واستشعار ردّة فعل كل من ستقع عينه عليه من حسد وبغض وكراهيات أو مدح ومباركة وتمنيات وكأنّه عيد قد هلّ بالفرحة على البيت وأصحابه من دون كل البيوت... ثم... وبعد كل هذا يغطّى ذلك الصالون بأقمشة أو أغطية ولم لا بزرابي أو جلود... كي تُحجب عنه الرؤية... كي يُحفظ... كي يسلم من التعسّف والإتلاف والأوساخ والاهتراء البطيء والملّ... يُحفظ ليوم ما... أو لوظيفة ما أو ربّما لأناس ما، أو حياة ما في زمن ما. يُوارى عن الأنظار والأجساد والاحتكاك واللّمس والاختلاط... كي يبقى ويدوم ويعمّر... حتى الخلود. ربّما كان من اشتراه على قناعة أنه لن يقوى على إبداله في أجل قريب لأسباب مالية بالأساس، أو ربّما لأنه يرى فيه الكمال والفن والإبداع الّذين لن يجد إليهم سبيلا مع غيره... قد يبدو من المنطقي ادّعاء أنه لن يقوم باستبداله لأنه نسي أنه موجود حتى اعتادت عيناه على رؤية الزرابي أو الجلود أو الأقمشة... حتى صار مكيّسا على مشهدها وباتت تلك الأشياء محورا يمنع المساس به. صار ذلك الإنسان مبرمجا لرؤية تلك الفوضى التي افتعلها بيديه وبمحض إرادته ومن لبنات خياله الذكي... تلك الزخرفة الاعتباطية الرديئة والمتجانسة مع نفسيّته الملوّثة والمرتبكة والهزازة، إلى أن باتت تخفي وتداري عيوب أو هلاك المقاعد وعدم قدرتها أن تفي بما جعلت من أجله. وإذا تجاسر أحد متعدّيا حدوده ليقترح عدم إنفاق آلاف الدنانير في ذلك الصالون، والاكتفاء ببعض الألواح والحشايا تُغطى بتلك الزرابي دون أن تتجاوز كلفتهم حفنة من النّقود لكانت نهاية الدنيا بما عليها... ولحَلف صاحبنا أغلظ الأيمان أن الحياة لم ولن تستقيم من دون ذلك المكسب الإنساني، رمز الأناقة والشياكة والترف، وعنوان الحضارة والتمدن والانعتاق وكسر القيود والانتفاضة

والقطع مع الصراع الطبقي والتمرّد على القواعد والنظام وما هو مألوف...

حال الرصيف من حال الصوفا. أُنفقت عليه مئات الملايين من أجل أن يرى النور. كرَّس المسؤولين واللّجان على امتداد خماسيات أو عشريات من المخططات، وعطّلت أشغاله الطريق لأشهر أو بالأحرى لسنوات، وجنّد العاملين والمشرفين والمراقبين والتقنيّين... وألهم المتحيّلين وأتعب المتآمرين، فأغنى السارقين وأفلس الغافلين... ويوم اكتمل وحظي بالتدشين والتصفيق والتصوير والتهليل... هبّ إليه كلّ من يهمّه أمره ويخاف ويخشى عليه من التّلف ووطء أقدام المشاة، المسرعين والمترهلين، المتنزّهين والكادحين، من منتعلي الأحذية الرياضية والنعال البلاستيكية أو الكعاب المسمارية، من المحمّلين بالأثقال مهما تنوّعت بين كيلوغرامات دهنية أو هموم أزلية... باختصار... يهبّون لحماية الرصيف ممن تسوّل له نفسه الأمّارة بالسّوء أن يتسبّب في احتقار الرّصيف والنّيل من فخامته واغتصاب شرفه بالمشي فوقه حتى الحفر والكسر والتدمير غير معتبر لما سَلف من تعب وجهود مضنية كانت له سببا في نشأته.

استعمال الرصيف عمل دنيء لذلك يهرع إليه حماته كي يدلّلوه ويقُوه شرّ المواطنين المتربّصين بسلامته والمتجاسرين على راحته. وترى هؤلاء الحماة يفعلون بالرصيف ما تعوّدوا فعله مع صالوناتهم في بيوتهم... يغطّونه ويوارونه ويحجبونه بكلّ غال وبكلّ رخيص ليحفظوه ويبعدوا عنه الأذى... ما حيوا... طول العمر أو أبد الدهر إلى أن يتوارثه أحفاد الأحفاد على تلك الصورة البهية كما لو كان قطعة حليّ أو لوحة زيتية لرسّام معروف.

يُقبلون عليه ويتفنّنون في طمسه بكراسي المقاهي وصناديقها، واللافتات الإشهارية، والعلب الكرتونية، والعجلات المطاطية، والثلاجات القديمة، والسّلع والخضر والغلال، ولم لا... الشياه والماعز والإبل والبقر، ومواد البناء،

وأكداس الرمال، وجبال الحصى، ولوحات الرخام، والملابس.. الجديدة منها أو القديمة، الخارجية منها أو الدّاخلية، وأقفاص الدجاج والأرانب والديك الرومي، والأبواب والشّبابيك، والسيّارات المعطوبة منها أو السليمة، وحفاظات الرّضع وغير الرّضع، والبنزين المهرّب علانية، والخبز والمرطبات، والمواد الحديدية والكهربائية، وأكشاك الهواتف الجوّالة، ومنشر فوط الحلاق، وعارضات السيراميك والمراحيض والحمّامات، وطاولات الأكلات الشعبية والبرجوازية بجانب ما فاض من حاويات القمامة وحتى المِهاد ورخام الألحاد والقادم أفضل...

المهمّ أن هاته السلع التي أتت تغطّي الرصيف تبعث ديناميكية اقتصادية إيجابية، ذات قيمة مضافة متنامية ولا متناهية. وإذا قمنا بعملية حسابية، قطعا معقّدة، لاكتشفنا أن قيمة تلك السّلع تتعدّى بكثير تكلفة الرصيف ذاته.

وهنا يكمن الفرق الوحيد بينه وبين الصالون. الرّصيف مغطّى بما هو أثمن منه...

الرصيف مدلّع...

الرصيف مبجّل...

الرصيف مدلّل...

لذا تبّا لكلّ المشاة الغزاة، وليكن لهم الأسفلت حتى يحاذوا ويزاحموا العربات والسيّارات، والشاحنات والحافلات، والدراجات وحتى القطارات... حتى تقسو قلوبهم... كي يطردوا الخوف من زعيق المنبّه وهدير المحرّك وغازات العادم... وكي يُدخلوا على الأجواء حركيّة لطيفة وظريفة تدفع بالسائقين إلى اكتساب مهارات جديدة.

إشارة:

عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة... عند قراءة هذه القصة يرجى منك الاطلاع على التقارير حين بلوغها... ولكم سديد النظر.

لم يكن قسم الطوارئ والحالات الاستعجالية يعجّ بالمرضى وأشباههم بعد... لا يزال الوقت مبكّرا للعمل بأعلى وتيرة. السّاعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحا عندما أقبلت مريم منحنية، تصيح من آلام شديدة تكاد تقبض أنفاسها وتمنع عن رئتيها الهواء. توقّفت عند شباك القبول تبكي وتتوسّل إلى الموظف أن يُعجِّل بتسجيلها وإدخالها إلى قاعة الفحص. لكن الرّجل كان لا يزال مشغولا بالقهوة والسيجارة وفطيرة الصّباح، يوضبهن بعناية ونظام وحرص فوق مكتب قذر تبعثرت فوقه أوراق وأتربة وأعقاب سجائر وفتات خبز وأقراص أدوية وأشياء أخرى يصعب الكشف عن هويّتها. بعد أن ترشّف بعض القهوة وبسمل وبسط يديه إلى السماء بالدّعاء والابتهال، تنهّد وتململ في كرسيّه ثم جال ببصره في أنحاء المكتب متقمّصا دور منافق بليد أخرق وكأنه يبحث عن المحرّك الّذي سيسيّر به أعماله... بعد ذلك أخرج سيجارة من علبتها وأشعلها ببرود وهدوء... وما إن لفظ دخانها من صدره موهما مريم أنه أخيرا سينتبه إليها، استدار إلى الفطيرة يأخذها بين أصابعه المكرزمة ليديرها ويتفحّصها وكأنّه يبحث فيها عن فتحة للولوج إلى قلبها قبل أن يقضم منها قطعة كادت تسدّ حلقه، وبدل أن يمضغها بتأنّ، ومن دون أن ينظر في وجه الفتاة توجّه مباشرة بالحديث إليها بفذلكته الصّباحية الثقيلة وقال:

– من فعل بك هذا...؟ هل كنت في نزال مع ملاكم...؟

لم تستظرف مريم تفكّه الموظّف المحنّك، وخشيت أن يماطلها ويعطّل إدخالها إلى الفحص، فاقتربت من فتحة البلور الّذي كان يفصلهما وأزاحت شعرها عن وجهها لتكشف الكدمات والتورمات التي أخفت جماله، بالإضافة إلى ما اختلط فوقه من دماء ودموع ومخاط أنفها وما سال من مكياجها وكحل عينيها، وقالت:

– لو كان الأمر كما قلت لمشى الحال... كان اكتفى بتسديد لكمات بقبضتيه فقط... لكن من قام بتعنيفي...

وسكتت الصبيّة من حدّة الوجع وغصّة كادت تجعلها تنفجر بكاء، لكنها آثرت ذلك على نفسها كي لا تتألم أكثر وأكثر. فقال الرّجل غير مكترث بما يصاحب كلماته من بصاق وفتات فطيرة ورذاذ قهوة:

– هذا يعني أنك ستتقدّمين بشكاية إلى السّلط الأمنية...؟ عليك أن تفعلي ذلك...هل تعرفين الشّخص الّذي اعتدى عليك...؟ هل هو زوجك...؟ إياك ثم إياك أن تدعي الأمر يمرّ مرور الكرام... إياك أن تصفحي عنه... إياك أن تقبلي الصّلح وتدخّلات الأقارب بينكما... صدّقيني يا ابنتي وثِقي بخبرتي الطويلة... سيعيد الكرة... وعندها ستكون النهاية أسوأ بكثير مما أنت عليه الآن.

ثم توقّف عن الكلام متفحّصا تقاسيم وجه البنيّة وكأنه يتعرّف عليها وقال وسبّابته تجول بين حنكيه وأسنانه لتخلّص ما علق بها من أكل اليوم وقوت البارحة:

– هلّا سمحت لي يا ابنتي...؟ ألست ابنة العم رجب...؟ هل والدك على علم بما حلّ بك...؟ يجب إخباره كي يقف إلى جانبك في محنتك.

– أجل أنا ابنة رجب... هل تعرفه...؟

– طبعا أعرفه... والدك بنّاء معروف... اشتغل في بيتي ذات مرّة... رجل صالح يستحقّ كل خير... عليك إبلاغه ليكون معك.

– هو على علم بكل شيء... وهو من أتى بي إلى هنا... لا أظنّه قد يتأخّر.

– عجبا... كيف يتركك وينصرف؟

– اتّجه إلى قسم الشّرطة... لقد هاتفني منذ لحظة... هو في طريقه إلينا صحبة الأعوان.

انتفض الرّجل من كرسيّه وقبض على رزمة أوراق وأسرع يفتح الباب بنفسه

ويأخذ بيد الصبيّة ليوصلها بلطف إلى قاعة الفحص أين وجد الممرّض فيصل في استقبالهما وقال:

– أخي فيصل... أرجو أن تعتني بمريم كما لو كانت أحد أفراد عائلتك... وأن توصي الطبيب بها خيرا... سأمرّ بعد حين لأطمئن على حالها... شكرا.

بدا على وجه فيصل بوادر النّشاط عندما أمسك بالأوراق، وساعد مريم على غير عادته في الصعود إلى طاولة الفحص، ثم ابتسم وقال لزميله:

– أنت تعرفني جيدا... لا داعي للقلق... من حسن حظّها أنها ستكون في عهدة الدّكتورة نعيمة... لن تتأخّر... إنها على قدوم.

انصرف عون الاستقبال وأغلق وراءه باب القاعة قاطعا بذلك عرضا فرجويّا يتسلّى به مرافقو المرضى القابعين في البهو والّذين أضناهم الانتظار منذ أوّل اللّيل لنتائج التّحاليل المخبرية والأشعّة السينية أو لتبدأ الأدوية الموصوفة مفعولها في أجساد أقاربهم الّذين لم يجدوا بعدُ أسرّة شاغرة في الأقسام الأخرى كي يتسنى لهم أخيرا مغادرة قسم الطوارئ.

جلس فيصل إلى مكتبه بهدوء وبرودة أعصابِ ممرض متمرّس وصاحب خبرة تجاوزت العشرين سنة بقسم لا يعرف غير التوتّر والتشنّج والحالات العصيبة، لكن مريم قطعت عليه ذلك الهدوء بصوتها الخافت والمتقطع:

– أظنّني... أشعر... أشعر بغثيان... أريد أن...

قفز الرّجل إليها يستنهضها أن تقف، وفتح باب القاعة وصاح بصوت حاد:

– لو سمحت... إيّاك أن تفعلي هذا هنا... رجاء ... اذهبي بسرعة إلى الحمام... رجاء.

تحاملت مريم على أوجاعها وأسرعت بالفعل إلى مكانٍ استقبلها بروائح يصعب وصفها أو حصرها ولكنها كانت كافية لتزيد من غثيانها وتيسّر تقيؤها.

وعاودت سريرها بغرفة الفحص منهكة أكثر من ذي قبل وراحت بجهد جهيد تسأل الممرّض عن موعد قدوم الطّبيبة وعن إمكانية استعجالها لأنها على وشك الانهيار فأخبرها أنها في طريقها إليهما، وقال لها بفخر:

– إنها الأفضل بالمستشفى... خبرة جيّدة وحسن أخلاق ودفء في المعاملة.

وبعد لحظات فُتح الباب بقوّة فدخل ثلاثة رجال، كان أكبرهم سنّا قد تجاوز السّتين وتجاوزت رائحة التبغ هالته النحيلة لتكتسح الغرفة، إنه العم رجب والد مريم بقصر قامته وشعره الأشعث وملابسه القديمة البالية، متبوعا بعوني أمن نطّ أوّلهما مسرعا في قلب الغرفة يجول بعينيه في زواياها ويتفحّص كما المفراس أدنى شبر بها، أما الثاني وقد بان من بدلته الزرقاء الداكنة وحذاءه الملمّع وربطة عنقه الصّغيرة أنه أكبر شأنا ورُتبة من زميله، إنه المحقّق سالم الّذي تقدّم متأنّيا وبخُطى رصينة ينظر إلى والد الفتاة ينكبّ عليها ويحضنها ويستلطف لها مصابها وهو يحاول إخفاء دموعه وإظهار شيء من الصلابة.

أمسك الضّابط بربطة عنقه يسوّيها بعناية و بشاربه الصغير يمسحه بلطف بأنامله، واقترب من مريم يلقي عليها التحيّة ويسألها تفاصيل ما حلّ بها وإن كانت تعرف المذنب. لكن دخول سيّدة هيفاء تبعثر شعرها الرمادي فوق وجهها الشاحب وتجاعيده وهالات عينيها الداكنة، قطع عليهما حديثهما. إنها الطّبيبة نعيمة التي أسرعت رغم التعب وقلّة النّوم في المجيء من غرفة الإقامة المخصصة لأطباء المباشرة اللّيلية حالما أشعرها الممرّض بوجود حالة تحتاج الفحص وأخذ التراتيب العلاجية على وجه السرعة. أبعدت شعرها عن وجهها وأخرجت نظّاراتها من جيب منديلها الأبيض ووضعتها بلطف وثبّتتها فوق أنفها، وبان عليها الاستنكار من تواجد كلّ هؤلاء الأشخاص معا في تلك الغرفة الصّغيرة، لكنها تغافلت عن ذلك لأنها تعرف عوني الأمن الّذين سبق لها أن تعاملت معهما في ما مضى في

حالات عديدة مماثلة لحال مريم. ألقت عليهم التحية فهبّ إليها رجب متوسّلا:

– رجاء يا دكتورة... رجاء أن تسرعي بفحص ابنتي وعلاجها... أعذريني يا حكيمة لكني لا أقوى على رؤية فلذة كبدي على هاته الحال... أرجوك وأتوسّل إليك أن تفعلي شيئا...

اقتربت الطّبيبة من مريضتها تنظر إلى جروحها باستنكار واشمئزاز لكنها ابتسمت وقالت بلطف:

– لا عليك يا عم... يظهر على ابنتك الصلابة والجلادة... هوّن عليك.

ثم طلبت من فيصل أن يحضر لها من الغرفة المجاورة بطارية تحتاجها لإتمام الفحص فذهب، وفي الانتظار سألت مريم:

– ما الّذي حدث...؟ من فعل بك هذا...؟ لعمري أن من قام بذلك ليس آدميا... ويستحقّ أن يلقى به في السجن أعواما تُنسيه سبب دخوله إليه.

فسارع رجب وقال:

– لقد تعرّضت ابنتي إلى التّعنيف باكرا هذا الصّباح وهي في طريقها إلى عملها... وها هم أعوان الأمن لأخذ أقوالها على جناح السرعة... علّهم يلقون القبض على المجرم الخسيس قبل أن يهرب أو تخوّل له نفسه إعادة صنيعه النّجس مع ضحيّة أخرى...

همّت نعيمة بالكلام فإذا بصوت مريم المرتجف يفاجئ الجميع حين أعلنت:

– لا أظنّه يفعل يا أبي... لا أظنّه سيفعل ذلك مع غيري... ذلك الحيوان كان مسلّطا على شخصي أنا بالذات... دون غيري.

نظر الشّرطيان إلى بعضهما وأدركا أن التّحقيق سيكون مركّزا بشكل موجّه بناء على ما قالته الفتاة، وأن أولوية الشّكوك ستحوم حول أشخاص من دائرة معارفها. ثم تقدّم سالم منها وبعد أن سوّى ربطة عنقه ومسح شاربه بأنامله سألها:

– هل تعرفينه...؟ هل لك أن تدلّينا إلى هويّته...؟ هل أخذ منك شيئا...؟ هل تحرّش بك...؟ هل كان معه أحد...؟ من دون الدّخول في التّفاصيل فإن الكثير من الأسئلة في انتظارك... ويجب أن تكون إجاباتك محدّدة وواضحة لتفادي أي لُبس... كي نقبض على الجاني... تكلّمي يا مريم... يجب أن ينال ذلك الخسيس جزاءه...

لكن الدّكتورة تدخّلت لتهدّئ من حماس الأمني وقالت:

– أظنّ أن الوقت لم يحن بعد لكل هاته الأسئلة... كما ترى سيدي... الفتاة مرهقة للغاية وفي أمسّ الحاجة إلى الراحة والعلاج...

سوّى سالم ربطة عنقه ثانية ومسح شاربه بأصابعه مرتين أو ثلاث وأضاف:

– دون الدّخول في التّفاصيل دكتورة... العجلة واجبة في مثل هذا الوقت كي نتدخّل... بسرعة ونجاعة...

استدارت الطّبيبة تنظر بأسف وعطف إلى وجه مريضتها المشوّه فرأتها تجاهد وتتحامل على آلامها كي تجيب وتقول:

– لا... لم يأخذ مني شيئا... لم يتحرّش بي... كان بمفرده... اسمه... اسمه...

ساد الصمت والانتباه لأن بوادر هبوط مريم في قعر غيبوبة عميقة أصبحت جليّة، ولكنها أغمضت عينيها المثقلتين وقالت:

– كريم... اسمه كريم... عبد الله...

لم تعتد الدّكتورة أن تفقد ولو البعض من رشدها وتركيزها أمام المرضى وأثناء أداءها لواجبها المهني بحكم قِدَم خبرتها وما ألفت رؤيته وسماعه في ذلك الإطار. لكن هذه المرّة اختلفت عن سابقاتها. كادت المرأة تخرّ أرضا عندما وقع ذلك الاسم على مسامعها. بل إنها لم تصدّق ما سمعت. كريم عبد الله... هذا ما قالته تلك الفتاة الغريبة المجروحة والمهانة... هذا ما صرّحت به مريم إلى المحقّق... رفضت

أن تجرفها الأوجاع عن وعيها كي تنطق ذلك الاسم علّ الشّرطي يجري إلى المدعوّ كريم عبد الله ويقبض عليه. هل أخطأت الاسم، أم أخطأت نطقه... أو ربّما أخطأت المكان والنّاس والإطار. لا بدّ وأنها تهذي حتى أدلت بما أدلت.

كريم عبد الله... هذا ما قالته مريم.

ربّما تريد أن توقع به، نكاية به لأمر ما... أو لتتستّر على شخص آخر تخشاه وتهابه... أو ربّما لتلفّق إليه تهمة كي تنتقم لشخص نال من ظلمه..؟ هل الأمر مجرّد تشابه أو تطابق للأسماء...؟ فعبد الله لقب شائع ومنتشر في كل ربوع البلاد، وأما الاسم كريم فحدّث بلا حرج. تستمتع الأمهات يوم ينوين الولادة تقليد أخريات سبقنهن في تسمية أولادهن بنفس الاسم وكأن الأسماء ستنقرض، وللدّكتورة نعيمة الموقع الحسن لتشهد ذلك يوميا، لذلك لم تنطق بكلمة وانكبّت تفحص مريضتها مليا وتتمعّن من جروحها بدقّة بالغة ثم قالت وكأنها تدلي بتقريرها إلى الشّرطي:

– مهما كان اسم المذنب، فإنّي ومن خلال فحص موجز وسريع... أستطيع أن أجزم أنّه شخص قصير القامة، كان بالكاد يوجّه لكماته إلى الآنسة... ثم... إنه عنّفها من الخلف... أي أنه كان يقف خلفها... قطعا... حتى لا يواجهها... حتى لا يواجه نظراتها... كي لا تتعرف إليه أو تحفظ ملامحه... المسكينة... أخذها غدرا...

اقترب الشّرطيان والعم رجب أكثر من مريم وعيونهم تتابع يد الطّبيبة تشير إلى أدقّ التّفاصيل من الجروح والخدوش و أضافت:

– هو في الأغلب... بل أنا على يقين أنه يساري... فكل الكدمات موجودة على الجزء الأيسر من جسدها...

فقال رجب بغصّة:

– مريم... ابنتي تدعى مريم.

أخذت نعيمة مذكّرة كانت عند قدمي الصبيّة واستدركت متلبّكة:

– أجل... طبعا... أنا آسفة... كما قلت... عينها اليسرى... وجنتها اليسرى ومنخرها الأيسر... ربّما أصيب في يده عند تسديده اللكمات... فاضطر لإكمال مهمته برجله... لذا... نجد آثار ضرب على ساقها اليسرى وكاحلها الأيسر... من المؤكد أن المذنب لم يستعمل أي أداة... بل اكتفى بتوجيه الضربات بيده وساقه اليسرى... أظنّ أن كل ما عليكم فعله هو العثور على شاب قصير... لا يتجاوز طوله طول مريم... ويحمل قطعا آثارا أو جروحا بيده اليسرى... ستجدون غالبا كسرا بأحد أصابعها...

ثم أخرجت قلما من جيبها وبدأت في تدوين ما توصّلت إليه من نتائج فابتسم المحقّق وقال:

– شكرا لك دكتورة على هذا التّقرير... لدينا الاسم ولَدينا أوصاف غاية في الأهمّية...

ثم توجّه بالسّؤال إلى مريم بعد أن سوّى بلطف ربطة عنقه ومسح شاربه بأنامله الرّقيقة:

– دون الدّخول في التّفاصيل... أين نجد هذا المدعوّ كريم عبد الله...؟ هل لديك أدنى فكرة توصلنا إليه...؟

فأجابت محاولة تجنب أيادي نعيمة المشغولة بالفحص والتدوين:

– ربّما كان في كلّيته... هو طالب بالجامعة الموجودة على الطّريق الحزامية... والده أستاذ جامعي... وهو يملك سيارة صغيرة بيضاء وجديدة...

اصفرّ وجه نعيمة وارتبكت حتى أوقعت ما كان بيديها مدركة أن محاولتها المراوغة بتقديم أوصاف محدّدة للمذنب لم تجد نفعا. الفتاة تعرفه حق المعرفة ولم

يعد في الأمر شكّ. إنها فعلا تتّهم ابنها... أجل... كريم عبد الله الطالب بكلّيّة الآداب، صاحب السيّارة الصّغيرة البيضاء والجديدة والتي أهداه إياها والده الأستاذ بنفس الكلّيّة، ليس سوى ابن الدّكتورة نعيمة.

كادت الحكيمة أن تصرخ من هول المفاجأة وغرابتها. كادت تهوى أرضا لكنها أدركت ألا مجال للوهن وفقدان السّيطرة... بل للحكمة والتّصرّف على وجه السرعة دون أن تجلب انتباه الشّرطة إليها. استنتجت أن ليس للحاضرين وأوّلهم مريم علم بصلتها بالمدعو كريم عبد الله. ومن حسن حظّها أن الممرّض لم يرجع بعد، فنادت عليه بصوت عال فأتى راكضا. انحنت تلتقط أغراضها وقالت تحثّه أن يسرع في طلب تحاليل وصور أشعة للمريضة وتحويلها إلى قاعة المراقبة حتى وقت لاحق لإيوائها مع إعطائها بعض المسكنات ومنع الزيارة عنها. ثم استأذنت من مرافقيها مدّعية أن عليها التوجه إلى مريض آخر هو في أمسّ الحاجة لتواجدها بجانبه. وخرجت تتمايل وتحاول الحفاظ على تركيزها وتوازنها والتغلب على وساوسها. وعند وصولها إلى حديقة المشفى، بعيدا عن الأنظار والمسامع، أخرجت هاتفها الجوّال من جيبها لتقوم بمكالمات قد تأتيها ببعض الإجابات عن تساؤلاتها.

في البداية اتصلت بابنها كريم... لكن ما من مجيب، فخمّنت أن يكون في مدرج الكلّيّة يحضر أول الدّروس الصّباحية. ثم هاتفت زوجها، الأستاذ عبد الله... وكانت خيبتها أكبر عندما وقعت على رسالة صوتية تخبرها أن هاتفه مغلق ويرجى الاتّصال به لاحقا. أين هو وماذا يفعل...؟ لماذا أغلق هاتفه...؟ هل هو في عمله وبصدد إلقاء محاضرة أمام الطّلبة...؟ هل هو على علم بما يحدث مع كريم...؟ كادت الفكرة أن تقضي على معنويّاتها وتسبب لها هبوطا... لكنها تحاملت على ضعفها كي تسرع إلى مساعدة ابنها لذلك قامت بإجراء مكالمة أخيرة.

– ألو... دكتور يسري...؟ عذرا إن كان الوقت غير مناسب للاتصال...

أجابها يسري في الهاتف:

– ألو...؟ دكتورة نعيمة...؟ خيرا إن شاء الله... تعرفين أنه بإمكانك الاتّصال بي وقت ما تشائين...

– أشكرك جزيل الشكر... في الحقيقة... جدّ شيء لم يكن في الحسبان سيضطرّني إلى مغادرة العمل...

– خيرا إن شاء الله...؟ ما الّذي حدث...؟ هل حصل مكروه...؟ هل تريدينني أن أنوبك...؟

– أجل لو سمحت... الأمر ليس خطيرا لكنّه معقّد... سأكون ممتنّة لك إن قبلت تعويضي في الدوام... أنا بانتظارك.

هدّأ د. يسري زميلته وطيّب خاطرها وأعلمها أنه ولحسن حظّها قريب من المستشفى وأنه سيكون عندها بعد دقائق كي يأخذ مكانها، فأقفلت الخطّ واستدارت لتعود إلى قاعة الفحص ولكنها فوجئت بالضّابط سالم يقف وراءها ويقترب منها قليلا. بان على وجهه ما أقلقها، وأنه أدرك أن الفتاة الملقاة بقاعة المراقبة قد أعطته هوية ابنها لذلك ومهما حاولت المغالطة فهي الآن ملزمة بمواجهة تلك الحقيقة. صدّ الرّجل الطريق أمامها، وأخرج علبة سجائر من جيبه ووضع إحداها بين شفتيه الرقيقتين وقام بإشعالها، وبعد أن أخذ منها نفسا عميقا وسوى ربطة عنقه ومسح شاربه بأنامله قال:

– لا أظنّ التدخين ممنوع في حديقة المستشفى...؟

لم تجرؤ الدّكتورة على الكلام واكتفت بابتسامة مقتضبة، فأضاف:

– أظنّ أيضا... ومن دون التّطرّق إلى التّفاصيل... أن الشّخص الّذي تتهمه تلك الفتاة البريئة يحمل اسم ابنك... كريم عبد الله...

يعرف الضّابط الطّبيبة معرفة جيّدة، وسبق له التعامل معها لسنوات عديدة في الكثير من قضايا التعنيف، وكان هذا كفيلا ليخلق علاقة مهنية عملية ومتينة بينهما لا تشوبها شائبة، ملؤها الاحترام والنزاهة والثّقة. أصبح الارتباك جليا على محيّا نعيمة فسألت ببراءة:

– وكيف عرفت أن ابني يدعى كريم عبد الله...؟ هل سبق أن رأيته...؟

ابتسم سالم وقام بتعديل ربطة عنقه مرة أخرى ومسح شاربه الصغير بأنامله وقال:

– لا... ولكني أذكر... دون الدّخول في التّفاصيل... أنك طلبت مني... منذ سنتين تقريبا... أن أتدخّل لدى مصلحة الجوازات كي يسرّعوا في استخراج جواز سفر لكريم... كان ذلك عند نجاحه في الباكالوريا... أظنّ أنك ووالده... الأستاذ عبد الله... قد أهديتماه بالمناسبة... رحلة إلى المغرب...

ارتعدت الحكيمة مدركة أنها لن تقوى على مجاراة ذلك المحقّق الذكي، وأنها ليست بنظيرة له ولخبرته في الاستنطاق واقتلاع الأجوبة، لكنها آثرت على نفسها ألّا تحاول تظليله ثانية فقالت:

– هذا ليس مهمّا... المذنب يحمل اسم ابني... وحضرتك تعرف بحكم مهنتك... وجود العديد من الحالات التي يحمل فيها أكثر من شخص نفس الاسم ونفس اللّقب... هذا الشّيء منتشر بكثرة في بلادنا...

من المستحيل أن يكون لابني علاقة من قريب أو من بعيد بموضوع تلك الفتاة...

– أعرف ذلك دكتورة... ولكنني أعرف أيضا... ومن دون الدّخول في التّفاصيل... أنه من المستحيل كما ذكرت... أن يوجد أكثر من شاب واحد يحمل اسم كريم عبد الله... والده أستاذ بكلّيّة الآداب، ويمتلك سيّارة صغيرة بيضاء

وجديدة كالتي أتيت بها إلى المستشفى منذ أسبوعين أو ثلاثة عندما تعطّلت سيّارتك الخاصّة...

ما الّذي يحدث دكتورة...؟ هل ابنك مورّط في جريمة ما...؟ هل رأيت حال تلك الصبيّة...؟

واجبي أن أنبهك ألّا تقدمي على أي تصرّف من شأنه أن يعرّض ابنك... كريم عبد الله... إلى عواقب وخيمة قد تجعلك تندمين عليها فيما بعد...

– أؤكّد لك حضرة الضّابط... من اعتدى على مريم له مواصفات بعيدة كلّ البعد عن ابني كريم... رجاء أن تثق بي كما كنت تفعل دائما... مستحيل أن يتورّط ابني في عمل دنيء مثل هذا...

– الأمر جدّي للغاية... ويجب أن آخذ بعين الاعتبار... وقبل كل شيء... ما قالته مريم... قبل أن أعتمد تقريرك الطبّي...

ثم أقبل عليهما الممرّض فيصل راكضا بوجه مصفرّ ليقطع حديثهما بصوت خافت وملحّ:

– دكتورة... دكتورة... رجاء أسرعي... الفتاة في حالة حرجة... أسرعي... إنها في غيبوبة تامة...

ركض الثالوث إلى قاعة المراقبة أين وجدوا د. يسري قد باشر إسعاف مريم التي كانت قد فقدت وعيها من شدّة الألم. رفع يسري رأسه الأشعث ونظر إلى الحاضرين بعينين كئيبتين وابتسم إلى زميلته ويداه مشغولتان بتثبيت مصل في وريد الفتاة وقال بلطف:

– مرحبا...

تستطيعين المغادرة دكتورة...

سأقوم بالواجب... اطمئني...

لم تستسغ نعيمة عفوية زميلها أمام المحقّق لأنه سيصبح على يقين أن ما يحدث له علاقة بابنها، وأنها دعت يسري كي ينوبها لتتمكن من الخروج. انتابها إحساس مرير بالمحاصرة بين وضع مريم الحرج من جهة، وإمكانية تورط ابنها من جهة أخرى. وتساءلت كيف ستنجح في التملص من الشّرطي الّذي لن يتهاون في القيام بعمله إما باستدعاء كريم إلى التّحقيق أو القبض عليه، أو في الأغلب بالبدء بتتّبعها وتقفّي أثرها كي لا تخطو خطوة نحو فلذة كبدها لتساعده على أخذ أسبقية قد تعطّل الأبحاث.

عدّل د. يسري المصل وأضاف إليه حقنا ودواء ومضى يجسّ النّبض تارة ويتنصّت بسماعاته قلب الفتاة طورا. وتدخّلت د. نعيمة تساعده في تثبيت جهاز مراقبة الضغط والتنفس، تحت أنظار رجب الّذي اصفر وجهه واخضرّ، عاجزا عن فعل أي شيء وإنما موكّلا أمره إلى خالقه والأطباء من بعده كي ينقذوا ابنته. كان الوقت يمر ببطء والجماعة تنتظر بوادر الانفراج بفارغ الصّبر... ومرّت دقيقتان كساعة استردّت من بعدها مريم وعيها والبعض من حضورها، لكنها لم تقوى على الحديث بل اكتفت بترك الدموع تنهمر حارّة على وجنتيها، إلى أن خلدت إلى النّوم تحت مفعول المسكّنات. عندها تنفّس الجميع فأشار يسري إلى زميلته بالذهاب إلى قضاء أمرها، فشكرته وخرجت تجري محاولة تفادي نظرات الضّابط وزميله.

أسرعت مهمومة تشق أروقة المستشفى نحو مربض السيّارات دون أن تنتبه إلى من كان في طريقها ومن بينهم الدّكتور لطفي. تبعها الرّجل خفية، حتى تجاوزها وصار أمامها حين وقفت تجول ببصرها في كل الاتّجاهات بحثا عن عربتها التي لم تجد لها أثرا، فبادرها:

– صباح الخير دكتورة، تبدين منشغلة... هل أنت على ما يرام؟ هل من خدمة أقدّمها إليك؟

فقالت وهي تحاول أن تجد مفاتيح السيّارة داخل حقيبتها الممتلئة:

– آه... لا... شكرا... لا أجد المفاتيح... ربّما نسيتها في المكتب... لا يمكنني العودة إلى هناك... لقد تأخّرت... يجب أن أذهب...

فقال مستغربا:

– لكنّك يوم أمس... لم تأت بسيارتك... في الواقع... أذكر أن ابنك هو من أوصلك بسيّارته... ثم غادر بها المستشفى... إن كنت على عجلة من أمرك... فبإمكاني أن أقلّك أينما تريدين...

– آه... فعلا هذا صحيح... شكرا دكتور... لا أريد إزعاجك... سأنتظر سيارة أجرة أمام المستشفى...

– أرجوك نعيمة.. نحن أكثر من زملاء... يمكنك الاعتماد علي... أنت لا تزعجينني... حقا...

وبعد إلحاح ركيك جعلها تتّبعه إلى سيّارته فركباها وانطلقا إلى الكلّيّة بينما المحقّق يلازمهما عن كثب. وبالرغم من أن المرأة كانت على عجلة إلا أن مرافقها تعمد التباطؤ بتعلّة وجود كسور على الأسفلت ودوريات شرطة منتصبة هنا وهناك، والازدحام الشديد بسبب المشاة، لا لشيء إلا ليمطط فترة رفقته لها وليتظاهر بلعب دور الرّجل الشّهم الّذي طالما أحب أن يتباهى به أمام هذه الزميلة الجديّة والمثابرة والتي صعب عليه نيل ثقتها منذ ابتدآ العمل معا منذ أكثر من عشرين سنة.

في الواقع كان لطفي يطمع أن تتواطأ معه نعيمة في التّلاعب بميزانية تموين القسم الّذي يشتغلان به، أو المتاجرة بالشهادات الطبية فيربح من ورائها راتبا قارا فوق راتبه أو لم لا في الظفر على حسابها بسفرات استثنائية بدعوى المشاركة في مؤتمرات علمية بالخارج. حاول كسب ثقتها بشتى الطرق لكن دون جدوى.

تظاهر بالغرام والعشق، فأظهرت الوفاء والإخلاص لزوجها وأسرتها... لعب دور المسكين المحتاج، فصدته بمبادئ الشرف والنزاهة... فرش أمامها بساط التعاطف والتفاني في العمل، فأسدلت أمامه ستار الجدية والتميز واللامبالاة ولكن ذلك لم يثنه عن المحاولة كلما سنحت الفرصة.

ضجر لطفي من صمت زميلته ولم يقتلع منها أكثر من جملة أو جملتين مما زاد فضوله لمعرفة ما نغص عليها مزاجها ودفعها لترك عملها باكرا. وحين توقّفت السيّارة أمام مبنى كلّيّة كريم، نزلت مسرعة ولم تفطن للحاقه بها إلا حين سمعته ينادي:

– نعيمة... نعيمة... ما الّذي يحدث؟ لماذا تسرعين هكذا؟ هل حدث مكروه لكريم؟

– آه دكتور؟ المعذرة... ما كان عليك أن تلحق بي... المسألة خاصّة ومحرجة بعض الشّيء...

– خيرا دكتورة... أتفهم ذلك.... لكنني أراك بحال تمنعني من تركك وحيدة لشأنك... تعرفين أنك تستطيعين التعويل علي متى شئت...

– أرجوك لطفي... أرجوك... وشكرا على اهتمامك... سأتدبّر أمر العودة إلى البيت مع ابني... كل شيء على ما يرام.

ثم ابتعدت متوغّلة داخل مبنى الكلّيّة الشاسع تاركة زميلها يعود أدراجه إلى سيّارته، ولما همّ بركوبها استوقفه صوت المحقّق سالم:

– دكتور لطفي... هل الدّكتورة نعيمة بالدّاخل؟ هل هي مع ابنها كريم؟

– أجل... لقد طلبت مني الانصراف ومضت تبحث عنه... أيها المحقّق... ما الأمر رجاء؟ لقد انتابني القلق حيالها وأصبحت في غاية التوتّر لما رأيت عليها من همّ وانشغال.

– في الواقع... لا أدري... لكن بالفعل... ودون الدّخول في التّفاصيل... عليك الانصراف... المسألة خاصّة وحسّاسة.

ثم دخل الشّرطي وانطلق بدوره يبحث عن نعيمة و كريم.

في غرفة نوم الأستاذة حليمة كان عبد الله لا يزال متسطّحا على السّرير يتمدد ويتمطط حين دخلت عليه عشيقته تنذره أن الوقت قد حان للخروج إلى العمل، إلا أنه ابتسم ومضى يغازلها ويترجاها أن ترجع إلى حضنه كي يكملا ما ابتدآ منذ البارحة، جالبا انتباهها أن مثل هذه الفرصة لن تتكرر قبل أسبوعين على الأقل، موعد مباشرة زوجته العمل ليلا. وذكّرها بالأيام الخوالي، حين كانا في مقتبل العمر وفي أول مشوارهما المهني... في تلك الفترة كانت زوجته تقوم بحصص استمرار ليلية بالمشفى مرّة واحدة على الأقل بالأسبوع، وإذا ما اضطرت إلى تعويض أحد زملائها لسبب ما فإن المجال كان سانحا ليقيم عند حليمة أياما وليالي تنسيهما أنهما غفلا عن الارتباط بحبل الزواج. وقفت المرأة أمام مرآة كبيرة توسّطت حائطا عريضا تمشط شعرها المبلّل ولا يكسو البعض من جسمها المنمّق سوى منشفة بَرَمتْها بحكمة بين ثدييها. كان المشط يغازل بدلال شعرها البني الّذي تسلّلت إليه عشرات الشعيرات البيضاء واللاتي بِتن منذ فترة، بمعيّة بعض التجاعيد حول عينيها البرّاقتين ينغصّن عليها حياتها ويذكّرنها أن الزّمن ما انفك يسرق منها نظارتها وجمالها وأحلى سنوات العمر. نظر دكتور الآداب إليها بنهم كأنما يراها لأول مرّة ثم ابتسم وأخذ يتأمّل أظافره ويملّي عينيه بجمال أنامله الناعمة وقال ساخرا:

– بعد الّذي عشناه وتقاسمناه... وجنون هذه اللّيلة وما سبقنها... أراك تضعين هذه المنشفة وكأنها ستعيد إليك عذريتك... أسقطيها أرضا وتعالي إلى السّرير... قلت لك أن الفرصة لن تتكرر قبل أسبوعين.

– أعرف ذلك... ولا داعي أن تذكرني إطار علاقتنا... سأكتفي بما أكنّه لك من مشاعر صادقة تجعلني أجري إليك كلما طلبت مني ذلك.

– مشاعري أنا أيضا صادقة... لم أنكر يوما مدى حبي لك وتعلقي بك... وأنت تعرفين ذلك منذ البداية...

– وهذا يؤلمني... أنت تحبّني... لكنّك تزوجت من غيري... لا فائدة في اجترار ذلك الآن... علينا الانصراف... الوقت يداهمنا.

– الزّوجة مغدورة... والحبيبة مقهورة...

– لو أنك تبادلني نفس الحبّ لاخترت أن أكون أنا الزّوجة والحبيبة والعشيقة... ؟ لماذا استكثرت ذلك...؟ لماذا...؟

– تعرفين أنني لا أقبل اللوم... بالفعل حان الوقت للانصراف.

ثم شغّل الرّجل هاتفه ونظر فيه ليجد عددا كبيرا من المكالمات والإرساليات كانت قد بعثتها إليه زوجته على بكرة الصّباح.

"أرجو أن تتّصل بي في أقرب وقت"

"لم أكفّ عن الاتّصال بك... رجاء مهاتفتي في أقرب فرصة"

"اتصل بي حال قراءتك هذه الإرسالية... الأمر في غاية الأهمّية ولا يحتمل التأخير"

فما كان منه إلا أن غمغم:

– المفروض أنك في الشغل يا حرمنا المصون...

زوجتي... لتعكّر مزاجي...

وبكل برودة دم وضع عبد الله[1] الهاتف على جنب وذهب إلى بيت الاستحمام يتشطّف ويغنّي تحت الدُشّ دون مبالاة.

١ انظر تقرير ص ٢٣٠

كان المدرج يعجّ بطلبة الصّف الثاني من قسم اللغة العربية، وكان الانتباه على أشدّه إلى ما كان يقوله المعيد مراد حول صقل موهبة الكتابة ووجوب ممارستها بجدّية حتى الاحترافية، والاقتداء بمن حفروا أسماءهم في تاريخ البلاغة والأدب والّذين لم تكن طريقهم إلى المجد الفكري مفروشة بالورود، و أن البلاغة من دون شحذ المهارات الإبداعية في صياغة النصوص وإنتاج المقالات ما هي إلا عبث وجب الابتعاد عنه بقدر الالتزام بالقواعد الكبرى وأساسها المثابرة والمراجعة و تقبل النقد حتى يتمكن الكاتب من أن يصبح متميزا، ذا أسلوب خاص ومُلْهِم للقراء والمتقبلين دون الذود عن رسالة إنسانية عميقة وهادفة.

كان الطلاب يصغون باهتمام إلى نصائحه ويحلمون من خلالها بمستقبل منير في عالم الكتابة والصحافة والأدب و لم لا الشهرة والتملق الفكري والسّلطة الأدبيّة. استردّ مراد أنفاسه ونظر في ساعة المدرج الدّائرية الكبيرة والشبيهة بساعات محطّات الأرتال في سنوات ما بعد الاستقلال أو قبل الاستعمار أو ما بينهما ورآها معطوبة، وانتبه أنها كذلك منذ أعوام، واستغرب من حال نفسه إذ يقع في فخها كل يوم مرّتين أو ثلاث على الأقل. ولم ينته من إخراج هاتفه الجوّال من جيبه كي يرى فيه السّاعة حتى باغته جرس الكلّيّة يرن بصوت متعثر خافت وأبحّ معلنا نهاية الحصة، فما كان منه إلا أن غمغم بأنه سيكمل بقية الدّرس في حصة مقبلة مع إمكانية إجراء امتحان فجائي.

انتفض الشّباب من مقاعدهم مسرعين إلى المراحيض ومنها إلى مشربة الكلّيّة للظفر ببعض القهوة والشاي قبل معاودة الدّرس. مشى كريم ابن الدّكتورة نعيمة محاطا بشلّة من الأصحاب والصّاحبات اعتاد رفقتهم أوقات المحاضرات

وخارجها. الشّاب وسيم، ذو جسم رياضي، مترفّه وأنيق المظهر واللباس، معروف عليه دماثة أخلاقه وهدوء طبعه وجدّيته، قلّ أو ندر أن يتواجد بمفرده، بل كان يجلب إليه الجميع يمازحونه ويلاطفونه ويتودّدون إليه خاصّة بعدما عُلم أنه ابن الدّكتور عبد الله، علم من أعلام الجامعة وأحد أصحاب القرار والرأي فيما يتعلّق بالامتحانات والتوجيه ورسائل الدّكتوراه والتخرّج وما إلى ذلك من الأمور التي قد تلعب فيصلا ومفترقا هاما في مسيرة كل من يغادر الكلّيّة متّجها إلى مضمار الحياة المهنية. ثم زادت شعبية الفتى حين رشّح نفسه إلى تمثيلية اتحاد الطّلبة وفاز بأغلبية مريحة على حساب منافسين جدّيّين نجح في قيادة حملته الانتخابية أمامهما بفضل مدى استحسانه واستلطافه من طرف الطّلبة خاصّة من بنات حواء.

تقدّمت المجموعة في رواق طويل وفسيح دخلت إليه أشعّة الشّمس الصّباحية من جميع جوانبه التي ندرت فيها الجدران الحائطية تاركة مكانها لنوافذ وأبواب بلورية عريضة أوصدت معظمها في وجوه الطّلبة، وكأن من قام بإغلاقها أراد أن يوجّه لهؤلاء اليافعين الطموحين رسالة مشفّرة مفادها أن الحياة لن تكون بالترحاب المرجو ولكن الأفضلية لمن يفتك مكانه وطريقه من غيره وقبل غيره، لذلك يتزاحم عشرات الأشخاص في آن واحد للمرور بصعوبة من ذلك المنفذ الوحيد الّذي ترك مفتوحا. ثم نزل ابن الدّكتورة وأصدقاءه الأدراج التي أوصلتهم إلى استراحة تناثر فيها مئات الطّلبة يحتسون قهوة مكررة أو شايا من دون شاي أو عصيرا ماسخا ويدخنون ويتهامسون ويصرخون ويضحكون ويقهقهون. وترى البعض يُعاتب والبعض يجامل... ومنهم من يتباهى ومنهم من يتنمر... وهؤلاء يتهكمون وأولئك يتوعدون... والضّوضاء تعلو وتتزايد والكل هانئ بالعوم بين أمواجها المتحرّرة من تواجد الأساتذة والدكاترة والمعيدين. وترى كل من يقترب من تلك الحلبة مبتهجا منبسطا والابتسامة مرسومة على محياه... ليس لأنه وجد

صاحبا ينتظره أو صديقة تترقبه... وإنما للإضافة التي سيقدمها إلى تلك الضوضاء من لبنات أفكاره ومنتوجها المتميز الّذي سيغزو به مواقع التواصل الاجتماعي، مثلهم في ذلك مثل فتيات تجمعّن في ركن هادئ بعض الشّيء يتجمّلن بأغلى أنواع المساحيق والماكياج ويأخذن صورا لوجوههن المتعدّدة والمتجدّدة وينزّلنها على النت لتحظى بإعجاب الآلاف وتعاليق المئات... بالمقابل اصطفّ ثلاثة شبّان يقومون بحركات بهلوانية يأخذونها في فيديوهات قصيرة لتذهب حينئذ إلى العالم الموازي عبر هواتفهم الذكية... وآخرون يعزفون موسيقى على قيثارات ويغنون أغاني من تلحينهم طمعا في جلب انتباه أحد المنتجين لمواهبهم علّه يقتلع أحدهم من مخالب التعليم إلى جنة الفن والبلاتوهات التلفزيونية... بينما تجمهر عدد كبير من الشبان والشّابات غارسين رؤوسهم في بحور ألعابهم الالكترونية.

وإذا سُمعت جلبة يصعب تحلّل معانيها وفهم مكوّناتها فإنها حتما من أوائل الطّلبة وأكثرهم اجتهادا، اجتمعوا يناقشون الدّرس وتفاصيله ويكرّرون القواعد ويحفظونها ويتبادلون نسخ فروض السنوات الماضية لتحفيز بعضهم البعض على العمل الدؤوب والاجتهاد والنّجاح، مستغلّين انشغال الآخرين بنشاطاتهم الاجتماعية والفنّية والترفيهية وتجليّاتهم الجمالية والنّرجسية قبل أن تدقّ ساعة الامتحان وتُشغّل ماكينة المحاباة والوسائط والرّشاوي لاقتلاع أحسن الأعداد وأعلى الرتب.

توقّف كريم وأصحابه في مكان غير بعيد عن باب المشربة والتي لا تتعدّى أن تكون مقهى شعبيا تنقصه الكراسي... لا لشيء، إلّا لمنع الطّلبة من الجلوس والبقاء فيه لوقت طويل يجعلهم يهجرون المدرج والمحاضرات. وكالعادة أخرج الشّباب نقودهم من جيوبهم، و كالعادة مدّوا بها إلى سامي كي يقوم" كالعادة" وبكل رحابة صدر باختراق الزحام حتى يصل إلى النادل ويجلب طلبيات جميع أفراد الشّلّة.

كان سامي الضحوك يقوم بذلك يوميا وبكل طواعية كي يتسنى له اقتناء ما يشاء لنفسه مما يتبقى من نقود أصحابه دون أن يدفع مليما من جيبه، وفي نفس الوقت لإرضاء سندة كي لا تدخل ذلك الزحام فيحتكّ بها آخرون فتُهان وتُذل. فتاة من عائلة محترمة، حسناء جميلة ومثيرة، لا تعرف حدودا في الإنفاق على ملبسها وعطوراتها وفسحاتها وتستمتع بركض الشبان وراءها، لكنها لا تعيرهم اهتماما لأن قلبها متعلّق بكريم الّذي لم يكن يبادلها نفس المشاعر.

وقفت سِندة ملتصقة بابن الأستاذ عبد الله و كأنها تستعدّ لحضنه واختطافه والهرب به بعيدا عن كل الأعين الأنثوية المتربّصة به. بل بدت وكأنها ستنقضّ عليه لتقبّله وتلتهم شفتيه أمام الملأ. إلا أن الفتى كان كما الطّاووس، فخورا بما هو فيه وفي ذات الآن كابحا جماح الصبيّة بترفع ولباقة طالما عبّر بهما عن عدم اهتمامه بمسائل الحبّ والعشق بصورة عامة. هنا يجب الإشارة إلى أن لكريم عادة لا علم لأحد بها، دفينة في ذاته العميقة، يأتيها دون أن ينتبه إليه أحد، ولم يسبق له أن باح بها لأحد. شيء يخالجه في قاع عقله الباطن، إذ كلما وجد نفسه في موقف غير اعتيادي، كأنما يوقف الزّمن من حوله ليخلد إلى هوايته المفضلة: ينقد ويستنكر ويذمّ ويسب ما يبدر من المحيطين به، ويتساءل عمّا ستؤول إليه الأمور إذا تصرّف حيال ذلك بطريقة تخرج عن المألوف ولكنها قد تعطيه راحة كبيرة وسكينة نفسية. فمثلا في تلك اللحظة التي التصقت فيها سندة به كالقطة، توقّفت عقارب السّاعة في رأسه وتساءل:

– ألا تستحي هاته العاهرة؟

ما الّذي يظنّه الآخرون بي عندما يروننني بصحبة هاته الفاجرة؟ سيظنّون أنني منحط مثلها...

سيظنّون أننا نتواعد... وهذا سيسدّ

الطريق أمام من هي أجدر منها باهتمامي...

سأصفعها أمام الملأ وسيزداد شأني عند الطّلبة وخاصّة الطالبات... وسوف يصل الخبر إلى أساتذتي فيحترمونني أكثر من قبل...

صحيح أنها جميلة... قوامها ممشوق... والأكثر من ذلك أن عطرها مثير للغاية... لكنني لن أكون لها...

سأختار الفتاة التي تستحقّ أن تكون حبيبتي... لن أدع إحداهن تفرض ذاتها على قلبي ومشاعري...

لا بد وأنها الآن تعوم في بحر الغرام والهيام ولا بد أن خيالها يصوّر لها أنني واقع في مصيدتها دون مقاومة... لكن هيهات... أرجو ألا يغمى عليها عندما تعرف أنها أبعد ما يكون عن قلبي...

لستِ في المستوى يا صديقتي...

لكن في العموم لا بدّ أن الكثيرين يحسدونني على ما أنا عليه...

ثم يعود الزّمن إلى ما كان عليه من دوران فينتبه إلى أن الفتاة قد انطلقت بحماس في مهمتها اليومية في التندّر والتهكّم بكل من يمرّ من أمامها. فتعلّق على تلك التي نسيت أن تفرش أسنانها بمعجون الأسنان حتى نفرها النّاس بسبب رائحة فمها الكريهة... وأخرى تركت فتحة سروالها مفتوحة موحية أنها باغية وعديمة الأخلاق... وثالثة لم تلق التّحية على من كانوا في طريقها عند دخولهم الجامعة... حينئذ أتى سامي محمّلا بالكؤوس والفطائر والمشروبات وانطلق بدوره بكل جرأة في معاضدة من سلبت قلبه في السّخرية من الخلق لافتا انتباه الشّلّة إلى فتاة مقلوبة السّحنة قد تكون مريضة أو في خصام مع حبيبها، وأخرى اصفر وجهها وعبس لأنها تشكو من آلام الحيض مؤكدا من خلال مراقبته الشهرية اللصيقة لها وبفضل خبرته في هذا المجال، قدرته على الجزم أن اليوم يصادف ومن دون أدنى

ريب أو تشكيك، ثالث أيام دورتها الشهرية... وطبعا كان عرضه يقابل بشتى أنواع التمجيد والسخرية والتشجيع على أن يتحفهم بتقديم فقرات تنمّريّة دسمة جديدة في قادم الساعات والأيام. وكان جمهور سامي وسندة متكوّن بالأخصّ من اسكندر المدمن على تدخين القنّب الهندي والّذي اعتاد أن يخبأه في خبايا تسريحة شعره الأفروأمريكية، حتى إذا ما وقع في كمين شرطة وسُلّط عليه التفتيش فلن يهتدي أحد لمكان تلك الممنوعات. أمّا ثالثتهما فهي عفاف، فتاة بسيطة استأنست مجاراة رفاقها ومساندتهم من دون قناعة تذكر، بل فقط لتظفر بالإدماج أكثر من الاندماج.

بالمقابل كانت ماجدة الوحيدة صاحبة حق إبداء الرأي والمعارضة لمثل تلك التّصرّفات. فتاة لطيفة المظهر، مجتهدة وصاحبة درجات عالية في الدّروس، يشهد لها الجميع بصلابة شخصيتها والتزامها وعدم التردد عن ردع رفاقها عن إتيان ما من شأنه المساس بالحياء والأخلاق أو مشاعر وكبرياء الآخرين.

إلا أن مهزأة المسخرة والتحقير والاستهانة بمظاهر الزّملاء توقّفت بقدوم المحقّق سالم وزميله من جهة، والدّكتورة نعيمة من جهة أخرى. اقترب الشّرطي من الشبان والشّابات ونظر في وجوههم وهيئتهم ولباسهم الواحد تلو الآخر والأخرى، وتوقّف عند ذلك الشّاب الوسيم الأنيق، الطويل القامة، ذو الشعر الأسود المصفف بالجل، والّذي أمسك كأس القهوة بيده اليمنى بينما يده اليسرى محشوة داخل الجيب الخلفي لبنطاله الباهت اللون والمتناسق مع قميص أزرق وحذاء جميل لا يعلوه أي غبار، فاستنتج أنه ابن الطّيبة حتى وإن لم يسبق لهما أن التقيا من قبل. تقدّم منه و بعد أن سوى ربطة عنقه ومسح شاربه بأصابعه سأله:

– أنت كريم عبد الله؟

فأجابه بهدوء:

– نعم سيدي الكريم... أنا كريم... هل من خدمة...

– هلّا تفضلت معي؟ علينا الحديث في مسألة خاصّة.

ارتبك الشّاب بعض الشّيء عندما لمح والدته من وراء سالم متلبّكة ولا تقوى على التدخّل وإنما تكتفي بالإيماء برأسها أن الأمر جدّي، فقال متملصا:

– لا أظنّ أن بيننا مسائل خاصّة... هلا أعلمتني قبل بما في الأمر...؟

– دون الدّخول في التّفاصيل... فتاة تعرّضت إلى التحرش والتعنيف هذا الصّباح... وقع إيواؤها بالمستشفى بسبب جروحها البليغة... وهي الآن تحت العناية المركّزة...

– وما شأني أنا بهذه الفتاة وبما تعرضت إليه...؟

– المتضررة... كما قلت... ومن دون الدّخول في التّفاصيل... تتّهمك أنت... حسب ما جاء على لسانها... كريم عبد الله... الطالب في الآداب... نجل الدّكتور عبدالله... أنك وراء ما حلّ بها... لذا رجاء اصطحابي لأخذ أقوالك في الغرض.

ارتاب ابن عبد الله واهتز وبانت الحيرة على وجهه الّذي أصبح شاحبا، وتوقّفت عنده عجلة الوقت وتراءى له العالم دون حراك وكأن النّاس قد اختفوا من حوله وبدأت التّساؤلات في الذهاب والمجيء داخل رأسه:

– فتاة متضررة... لا بد وأنها تستحق ما حلّ بها...

ما شأني وهاته الفتاة... هل تراها جميلة وتعرضت إلى الاغتصاب؟

ربّما كان المذنب امرة... عندها سيكون المحقّق في موقف رديء ومهين...

لأوّل مرّة في حياتي أرى محقّقا... كنت أظنّ المحقّقين أشدّ وأغلظ من هذا... وذو أجسام رياضية تمكنهم من اللحاق بالمذنبين إذا ما اضطروا إلى الرّكض وراءهم...

لا بد وأنه من أولئك الّذين أدمجوا في وظائفهم عبر المناظرات... أو بفضل

الوساطة والتدخّلات... لا أظنّ أنه قام بدراسات عليا...

اصطف أصدقاء الشّاب وراءه لمعاضدته والتدخّل كلّ على طريقته على الأقل حتى يمنعوه من الكلام فتصدر عنه أقوال من شأنها أن تضعف موقفه أمام رجل الأمن، وقال سامي:

– كريم شاب رصين ومن المستحيل أن يتورّط في أفعال نابئة بهذا الشّكل... عليكم البحث عن مذنب آخر بعيدا عن هنا...

وأضافت ماجدة:

– لا بد أن في الأمر لبس وأن المعلومات التي توصّلت إليها خاطئة أو مغلوطة... كان من الأجدر بك أيها المحقّق أن تدقّق وتتأكّد من صحّتها قبل مجيئك...

ثم أتت المعاضدة من سندة التي انفجرت في وجه الشّرطي بطريقتها الساخرة وتعاليها الاعتيادي وقالت:

– كيف تجرؤ أيا من كنت وأيا من تكون تلك الفتاة على اتهام كريم مثل تلك التهمة...؟ الأمر لا يتعدّى التلفيق والتجنّي... أ لا تعلم من يكون كريم...؟ أ لا تعلم من يكون والده...؟

– قطعا أعرف... أجاب سالم بهدوء ثم أضاف: لكنني لا أعلم من تكونين أنت...؟ وما علاقتك بالأمر...؟

– من أكون أنا...؟ من مصلحتك ألّا تهتدي إلى هذه المعلومة التي قد تتسبب لك في مشاكل مهنية واجتماعية أحسب أنك في غنى عنها. أما عن علاقتي بالأمر فلعلمك أنني خطيبة كريم ومن حقي وواجبي أن أحميه من فاقدي الكفاءة أمثالك.

وهنا صاح إسكندر وعفاف:

– نعم إنها خطيبته...

لم تستسغ ماجدة وقاحة سندة ومساندة الآخرين لها فتدخّلت:

– كفّي عن العجرفة... الجميع يعلم أنك لست خطيبته...

ومن جديد راح خيال كريم يطفو فوق أمواج عالية من الرؤى بسبب ما أقدمت عليه زميلاته:

– لم أر ماجدة بهذا الحماس من قبل... ماذا لو كانت تحبني هي الأخرى...؟

لكنها صعبة المراس وليست بجمال سندة...

ربّما أصبحت أجمل منها لو أنها وضعت كمّية المساحيق والمكياج التي تضعها سندة...؟ لم أرها يوما تنزّل صورا لها على النت... ستكون اللايكات قليلة جدا...

لكن سندة شرسة لن تقبل أن تقترب فتاة أخرى مني حتى ولو تعلّق الأمر بماجدة...

كيف تجرؤ على قول أنها خطيبتي على الملأ...؟

عمل شجاع ولكنّه أحمق...

لا تلوميني فيما بعد... أنت من ابتدأ الأمر...

ثم توجّه إلى الشّرطي وقال بصوت ثابت:

– إذن... هناك فتاة في حالة صحية كارثية... تقدّمت إلى قسم الشّرطة تشتكيني وتتهمني أنا... دون غيري... أنني وراء ما لحق بها من أضرار... وبناء عليه... أنت متواجد سيدي المحقّق بيننا هنا في حرم الجامعة... كي تأخذ أقوالي دون غيري... ومن الواضح أن الأمر لا تشوبه أي لخبطة أو أخطاء أو تلفيق أو ما يدعو إلى المراجعة وإعادة النّظر...

– للأسف هذا ما حصل وعليك أن تتّبعني درءاً للفضيحة والشّوشرة.

– أفهم من حديثك أن محضرا في الشّكاية قد فُتح ولا ينقصه سوى الإدلاء بشهادتي وأقوالي...؟

أحس سالم بالإحراج فسوى ربطة عنقه بدل المرّة مرّتين، ومسح شاربه بأصابعه بدل المرّة عشرة وقال:

– في الواقع... ليس بعد...

اكتفى كريم بابتسامة ماكرة وسكت كي ينفرد في مخيلته بنفسه يسولها:

– أيها المحقّق... خمنت منذ حين أنك منتوج مناظرة أو مسقط في وظيفتك بالوساطة... والآن تأكدت أنك فاشل وسيء.

ستكون سهل المراس وسأستمتع بمجاراتك...

وهنا هبّت الشّلّة في وجه سالم بلا كوابح، وبعنفوان الشّباب وحماسته انهالوا عليه بوابل من الأسئلة والملاحظات فقال سامي:

– أ لا يعتبر هذا تعدّيا على حقوقه وعلى الإجراءات في غياب محضر رسميّ؟

– أليس من العدل أن تبدأ بفتح تحقيق رسميّ قبل المجيء إلى هنا وإحراجه بهذا الشّكل أمام كل الطّلبة؟

– يا للفظاعة... أي استهتار هذا يا سيّد...؟

– أنتم لا تحسبون حساب الأذى النفسي الّذي ستلحقونه بهذا الشّاب المغمور والطموح... والأذى الاجتماعي وربّما السياسي...؟

– أنتم عديمو المسؤولية ... ألا تراعون مشاعره...؟

– أنتم أزلام النظام المخلوع

بينما كان منسوب الكبرياء عند كريم في ارتفاع، كان منسوب الفخر والانشراح عند الدّكتورة نعيمة في أعلى مستوياته أمام المؤازرة اللا مشروطة التي أبداها أصدقاؤه، حتى كانت المفاجأة الحقيقية بإمضاء سندة حين قالت:

– على كل حال... ليس من الممكن أن يكون كريم مورّط من قريب أو من بعيد مع تلك الفتاة... بكل بساطة... لأنه كان معي منذ البارحة ولم يبرحني لبرهة...

فما رأيك بهذا يا سيّد؟

صمت الجميع وانقطعوا لهنيهة عن أي كلام، ونظر الأصحاب بعضهم إلى بعض مندهشين مما قالت سندة قبل أن يطلقوا عنان ضحكة هستيرية لئيمة[٢] وضحك كريم وانتشى كأصحابه وقال في قرار نفسه:

– سندة... أنت حقا فاجرة...

أيها المحقّق... أنت من الماضي... أنت في زمن لا تعرفه وبين أناس لست بنظير لهم...

لكن سالم لم يحرك ساكنا ولم تتزعزع همّته أمام صبيانيات أولئك الشّباب، وحافظ على هدوئه وبرود أعصابه وسأل بمكر:

– وهل لي أن أعرف... أين كنتما معا...؟ منذ ليلة البارحة؟

وهنا سارع سامي بالإجابة ساخرا وضاحكا:

– وأين تريدهما أن يكونا؟ طبعا في سريرها...

ورغم لمحة الإحراج والضيق الّذين بديا على وجه سندة ونعيمة إلا أن الشّباب لم يترددوا في إطلاق ضحكتهم الساخرة بأكثر حدّة وأشدّ هستيريا قاطعها سالم بسؤاله:

– وهل لديكم دليل على ما تدعون...؟

فصاحت ماجدة مغتاظة علّها تقلّص فسحة الإحراج والتفاهة:

– كنّا معه... أقصد أننا جميعنا كنّا معهما... محيطين بالسّرير...

وقال سامي:

– كنا نمسك بالسّرير حتى لا يقع.

وتواصل الضحك وهنا تقدم إسكندر يتخايل ويتمايل وقد بان عليه أنه أبله

٢ انظر تقرير ص ٢٣٤

ومسطول تحت فعل القنّب وقال وقد التصق بكريم:

– تريد الدليل...؟ تريدون الدليل...؟

وبكل جرأة وغياب وعي وبأقصى سرعة أدخل إسكندر يده تحت بنطال كريم ليمسك بكل قوة تبان هذا الأخير ويجذب ما استطاع منه إلى الخارج وينظر في لونه ويقول حين دفعه ولطمه كريم بقوة:

– الدّليل أنه يلبس تبانا أخضر... يمكنك التأكد من هذا إن شئت...

دفع ابن عبد الله بإسكندر بقوة إلى الوراء وأردف بلطمة على وجه صاحبه الّذي ضحك عاليا لكن ضحكته الانتصارية كانت هذه المرّة وحيدة وسط ذهول أصحابه والدّكتورة وأعوان الأمن وما تيسّر من عشرات الطّلبة الّذين اصطفوا يشاهدون عرضا فريدا من نوعه هو الأول في تاريخ الجامعة. ما فعله إسكندر كان عملا جريئا ووقحا لم يستسغه أحد، لكنه كان في بحر بلاهته ولم يتوقّف عن ضحكه البليد، وهذا الشّيء استفزّ كريم الّذي وباختصار ومن دون أن يرجع بالنّظر إلى مخيّلته وأفكارها وما عساها تشير به عليه، كان قد نال منه الغضب بسرعة جعلته يصيح ويدفع صديقه المسطول ويضربه بشدّة حتى أسقطه أرضا ومضى يركله ويرفسه تحت حذاءه لولا تدخّل نعيمة بكل ما أوتيت من قوة لتوقفه عند ذلك الحد، وتهدّئ من باله كي لا يرتكب حماقة يستغلّها الضّابط ضده.

نط إسكندر واختبأ وراء ماجدة وصاح:

– أين ذهبت روحك الرياضية يا صاحبي... كدت تكسر عظمي...

ابتسم سالم ثم سوى ربطة عنقه ومسح شاربه بأصابعه وقال :

– بالفعل... أنت تفتقد إلى الروح الرياضية... وأراك سهل اللجوء إلى العنف والضرب.

وهنا صاحت نعيمة في وجه رجل الأمن:

– كف عن ذلك رجاء... ألا ترى إلى ما آلت إليه طريقتك في التعامل مع ابني... جعلته موضع سخرية وتندّر وإحراج هو في غنى عنهم لو أنك اتبعت الإجراءات بشكل رسميّ...

أرجوك... انصرف الآن أيها المحقّق... عليك أن تتّبع إجراءات قانونية، وعندما تتقدم الفتاة بشكاية ضد ابني ويفتح محضر بالغرض، لن أتوانى عن اصطحابه بنفسي إلى مكتبك... بمعية محامينا... كي يعاين ويباشر التّحقيق ويحول دون أي تجاوزات أو خروقات...

– كنت أحبّذ أن يعالج الأمر بطريقة ودّيّة.

فأجابت نعيمة مستنكرة:

– أين الودّ في ما يجري؟ أين الود وابني يتعرض إلى المضايقات... من دون أدلّة تدينه؟

– بل الودّ كل الودّ سيدتي الكريمة... لست أنا من أحرج ابنك... بل هؤلاء الشّباب المستهترون والّذين لا يقدّرون حجم القضيّة وحجم ما يحشرون أنوفهم فيه... إذا فتح محضر يا دكتورة... ومن دون الدّخول في التّفاصيل... فسيقع إصدار بطاقة إيقاف بحقّ ابنك من طرف وكيل النيابة وعندها لن تتمكني من اصطحابه طواعية إلى مكتبي كما ترتئين... إنما سيقع جلبه... دون الدّخول في التّفاصيل... بالقوة أينما كان وأينما سيكون... حتى وإن كان مختبئا بين وسادة وحاشية سرير والدة هاته الفتاة الرعناء والتي تدعي أنها خطيبته... ولن يتوانى الأعوان عن تنفيذ التعليمات والقيام بواجبهم على أكمل وجه و لن يبالوا... دون الدّخول في التّفاصيل... إن كان ذلك سيسبب لابنك الإحراج أو حتى المهانة إن هو دفعهم إلى ذلك... وسيقع التحفظ عليه طيلة فترة التّحقيق... ولست أدري إن كنت ستتمكّنين من توكيل محام يرضى مصاحبة موكّله كامل مراحل

التّحقيق والاستنطاق والمكافحة مع الفتاة المشتكية والعمل في غير أوقات الدّوام التي سيكون فيها كريم وحيدا، أعزل ومرميا في قاع زنزانة قذرة بين اللصوص والمنحرفين والمتحرّشين المكبوتين والّذين سيصعب على أي كان ترويضهم ولجم نهمهم... وأظنّك تفهمين ما أشير إليه دون الدّخول في التّفاصيل...

أقدّر انشغالك ومدى حرصك على إخراج فلذة كبدك من هاته الورطة... لكني فعليا... ومن دون الدّخول في التّفاصيل... لازلت أرجّح أن يصحبني كريم بهدوء لمعالجة الأمر ودّيا قبل أن تأخذ المسألة منحى قانونيا قد لا يرضي أحدا عندئذ.

طأطأت نعيمة رأسها لبرهة ثم رفعته لتهمّ بالحديث إلا أن سالم استبقها وقال بلطف:

– انتظرك وكريم في مكتبي... بعد الزوال...

سيكفيكما الوقت لاستشارة محام ووضع الاستاذ عبد الله في الصّورة... إلى اللقاء.

وانصرف الشّرطيان تحت أنظار عشرات الطّلبة والمعيدين وعميد الكلّيّة الّذي اختار أن يشاهد ما يجري عن كثب دون أن يتدخّل. إثر ذلك عاد أصحاب كريم إلى المدرج لحضور درس السّاعة العاشرة، ولحسن حظ سندة أنهم لم يتطرقوا لما أقدم عليه الشّرطي من تجاسر حين وصفها بالرّعناء، بل أحاطوا بإسكندر يلومونه ويوبّخونه على ما فعل ويؤنّبونه على تطاوله وعلى ما آل إليه من غباء واستهتار، وعدم قدرته على التمييز بين ما هو جدّ وما هو هزل من جراء المخدرات وإدمانه المفرط، ونبّهوه إلى أن العاقبة قد تكون وخيمة في قادم الأيام إن لم يحسن التّصرّف بحكمة ويرجع إلى صوابه ويبتعد عن تلك السّموم التي خربت ذهنه وجيبه وها هي توشك أن تجعله يخسر علاقته مع أقرب الأصدقاء.

كان كريم وبعد أن هدأ باله بعض الشّيء قد تجاوز بشق الأنفس عشرات الأعين والنّظرات من الطّلبة والأساتذة، واتجه ووالدته إلى مرأب السيّارات ليمتطيا سيّارته الصّغيرة والبيضاء والجديدة وأسرعا إلى البيت مسترجعين ما دار مع الشّرطي، وما أقدم عليه إسكندر وطبعا شجاعة باقي الرفاق وبسالتهم في معاضدته، وخاصّة جرأة سندة التي زاد شأنها في نفسه بعد الّذي ادعته أمام الملأ غير عابئة بالعواقب التي قد تطالها من اتهامات وتشويه وتجريح في أخلاقها وسمعتها، وقال الشّاب لأمه:

– حقا فاجأتني سندة بشجاعتها وفاجأني موقفها. إنها حقا فتاة متميزة وتستحق أن أعيد النّظر جذريا في علاقتي بها... لقد برهنت اليوم أنها فعلا تحبني ومغرمة بي حتى الجنون.

نظرت نعيمة في وجه ابنها فرأت فيه براءة ذلك المولود الجديد الّذي أتى إلى الدنيا منذ أكثر من عشرين سنة وجعلها أسعد نساء وأمهات العالم. ورأت من بعده ذلك الطفل الصغير الضحوك الّذي ملأ عليها حياتها بنكته وصولاته وجولاته فوق سجاد بيت الجلوس مع لعبه البلاستيكية وشخبطاته الورقية. ثم رأت ذلك المراهق العنيد والمعتد بنفسه وببهاء طلعته والّذي كان ولازال يقضي الساعات أمام مرآته يتجمّل ويمتدح جمال وجهه ونقاءه من حبّ الشّباب الّذي أفسد وجوه خلانه في ذلك الوقت، ثم ها هو قد أصبح ذو شعبية وجاذبية بين الفتيات اللاتي يتسابقن إلى نيل اهتمامه وصحبته. وها هي الآن ترى شابا وسيما، قويّ البنية ومفتول العضلات، ناجحا في دراسته ومتعاليا على العلاقات والغراميات التي يأتيها الشّباب في عمره من دون حساب وبكل جوارحهم، وهمّت بالسّؤال فإذا به يسبقها:

– لو لم تكن مغرمة بي لاسترابها أن أكون متورطا في عمل سيء و لتركتني إلى

ما أنا فيه دون أن تعيرني أي اهتمام...

فقالت نعيمة مستنكرة:

– كيف تحدثني عن سندة وتتجاهل ما يحدث حقا... هل تعي ما تقول...؟

– أجل يا أمي... مما تستغربين...؟ هل تشكين بي...؟ الظاهر أنك لا تعرفين ابنك جيدا... أتظنين أنني من عنّف تلك الفتاة...؟

– أعرف أنك لا تقدم على فعل شيء كهذا... لكنّك بالفعل مورّط... الفتاة تتهمك أنت بالذات ولقد كنت هناك عندما أخبرت الشّرطة أن من دبّر تلك الجريمة هو كريم عبد الله... ولقد أعطت بيانات لا يمكن أن تشكّك في مدى معرفتها الجيّدة بك... ذكرت والدك... ومهنته... ومكانها... و هذه السيّارة الصّغيرة البيضاء والجديدة... وكلّيتك... لم يكن ينقصها سوى عنوان إقامتك وتاريخ ميلادك... وأنت بكل برود دم تنكر أي صلة لك بها... بل وتحدثني عن تلك الفالتة... ومدى عشقها لك... أخبرني بني رجاء ما الّذي يحدث... وكيف آلت الأمور إلى ما هي عليه؟

– أقسم لك يا أمي يا حبيبتي أنني لا أعرفها... قلت لي أنها تدعى مريم... أليس كذلك؟

– أجل... اسمها مريم... والدها رجل فقير... يشتغل بناء بالأجرة ويبدو شخصا بسيطا وطيبا... حسب بياناتها التي تركتها في مكتب الاستعلامات بالمستشفى... فإنها عاملة بمصنع الكوابل الّذي يوجد في آخر الطريق الحزامية... منزلها في حي "الظّلام"... ذلك الحي الفقير العشوائي الّذي حاذيناه منذ لحظة والّذي تحاذيه كل يوم عند ذهابك ومجيئك من جامعتك، ربّما لم يسبق لك أن توقّفت به من قبل، لكنني كنت قد زرته في أكثر من مناسبة في إطار قوافل طبيّة تطوّعية لفائدة المعوزين الّذين لا يقدرون على تحمل مصاريف الكشف عن

أمراضهم والعلاج. فعلا... كانت تجربة إنسانية عميقة وثرية...

– وكيف تريدينني أن أكون على صلة بفتاة من تلك البيئة الشعبية المعدومة والمهمّشة والتي تحتاج أن يزورها الطبيب في قافلة... أنا... كريم... ابن الطّبيبة بعينها؟ أنا بالكاد أهتمّ بسندة وشبيهاتها فكيف تتخيّلين أن يكون لي علاقة بمريم تلك... ابنة البسيط الطيّب والبناء... هل تعين ما تقولين يا أمي...؟

لم تصدّق نعيمة ما سمعت من فم ابنها. تفاجأت لموقفه اللا إنساني وسكتت عن الكلام برهة ثم قالت متأسّفة:

– أجل أعي... وأعي أيضا أنني بالكاد أتعرف عليك.

– دعك من هذا يا أمي... أنا لا أحتقر النّاس ولكنني أعدّ نفسي لمستقبل متميز منذ الآن... ولذلك لا يمكنني... بل لا يجب أن أهتم أو أحتك بأناس بسطاء وعاديين. لن أصبح مثلك يا أماه... أرقّ وأعطف على هؤلاء الراضخين والمعدومين والمتخلّفين وأعالج أمراضهم كي يبقوا على قيد شبه حياة من الفقر والخصاصة وعدم الجدوى. بل تصل بهم الوقاحة إلى اتهام النزهاء مثلي بالتحرّش بهم وتعنيفهم. لو أن العكس هو ما حدث لكان أقرب إلى المعقول. أهدافي لا تسمح لي بأن أشوّه مساري بحادثة مثل هاته التي تتهمني بها تلك الفتاة... وأن أجعله يتقاطع مع فئة اجتماعية آن لها أن تنهض من سباتها العميق لتعرف أن قدرها بيد من يفكّر ويقرّر.

– من أخبرك أنهم عديمو الجدوى...؟ ومن أخبرك أنك قد تغيّر من شأنهم شيئا إن كنت لا تحسن الاحتكاك بهم وترفض أن تختلط بهم؟ من تظنّ نفسك؟

– لكل حديث أوان.

وتواصل النقاش بين الولد وأمه وزاد الأخذ والرد ليستعرض الشّاب جوانب من شخصيته لم تكن والدته على علم بها، مما دفع في دمها حزنا وسخطا لم تعرفهما

من قبل. اكتشفت شخصا غريبا متملّقا ومتعاليا، يعتقد رغم صغر سنه وتجربته أنه أفضل من غيره. شاب تضخّم عنده الأنا فأعمى قلبه حتى أنه لم يبادر وإن كان من باب الفضول بالسّؤال عن مريم، ومن تكون تلك الفتاة، وأن يستفسر عن حالها وعن حظوظها في الشفاء. إذ من البديهيات عند الحديث عن مصاب شخص أن نسأل عن ملابسات ما حلّ به وعن التّفاصيل من قبيل من ضربها...؟ هل أصابها في وجهها...؟ هل ترك لها جروحا وندوبا تفسد نظارتها...؟ هل تحرّش بها...؟ هل اغتصبها...؟ هل سرق منها شيئا...؟ هل قاومته ودافعت عن نفسها...؟ وإلى غير ذلك من الأسئلة كالمكان والسّاعة التي جرت بهما الواقعة وإمكانية وجود شهود من عدمهم... والتّحقيق... والشّرطة... والقاضي... والعقاب... والسجن... والعائلة والمجتمع... كل هذا لا يهمّه، فلا مكان لأمثال مريم في ذهن كريم.

منذ لحظات تدفقت إلى مخيلة نعيمة صور طفلها منذ ولادته إلى أن أصبح شابا يافعا فخرت به وبذكر سيرته أمام الأصحاب والأقارب والزّملاء والمرضى... ولكنها اكتشفته واكتشفت حقيقة معدنه بعد إحدى وعشرين سنة ومن دون أي مقدمات. رأته على وشك الضياع بسبب ما يجري منذ هذا الصّباح، حتى أصبح يراودها الشك و تسوّل لها نفسها الأمارة أن ذلك المغرور قد يكون حقا مورّطا في تلك الحادثة الموجعة.

ما قاله جعلها تسترجع ذكريات لم تكن تعلم أنها في هذه المرّة قد تأخذ معنى مغايرا. ذكريات كانت في ما مضى تطلّ لتبعث في أعماق صدرها دفئا ونخوة، وكانت تردّدها لتتباهى بذلك الطفل الّذي كان يرافقها عشرات المرات إلى مكان عملها، ويواكب فحصها للمرضى وتربيتها على أكتافهم وشدّها على أياديهم في محنهم لعلاج عللهم وتخفيف آلامهم. اليوم تفاجئها تلك الذكريات فتراها من

زاوية جديدة، وتلمح فيها كريم يكتفي بالنّظر إليها من دون أن ينطق بكلمة لاعتقادها وقتها أنه يشعر تجاه أولئك المحونين بالعطف والشفقة ولكن الكلمات تخونه و الحياء يغلبه والانطواء يعزله فلا يفصح عما يدور في خاطره. كانت تظن أن ذلك الطفل الخجول لم يكن قد أدرك بعدُ النضج ليعبّر عن مواساته النّاس وقت الشدائد. واليوم فقط تلاحظ ما لم تعره أي قيمة في الماضي. الآن فقط يمكنها أن ترى ذلك الطفل الصغير يجلس في كرسيّ دوار كبير وفضفاض ومرتفع ما يكفي كي لا تلامس أقدامه الأرض... كان يراقب من وراء ظهرها تلك الوجوه المتواترة أمامها للفحص... تلك الوجوه الشاحبة أو المصفرّة وربّما كانت مخضرة أو محمرة وحتى مزرقّة... مصدرة شكاوى وآهات وأنين ومناجاة وطلبات وتوسّلات... أو في الأغلب عطسا أو دما أو سعالا وتنخما وبلغما وروائح كريهة ومقزّزة. تسلّل صوت طفلها الصغير أركان القاعة الصاخبة ورأسها المشغولة بالتشخيص والفحص ووصف الدواء و بالتفكير في البيت وشراء أغراض في طريق العودة إليه وإعداد ما يلزم من مأكولات يحبّذها زوجها الّذي لا يرضى بأطباق سهلة وخفيفة وإنما يشترط المطبوخ والدّسم والمحمّر مع إجبارية التّحلية والتّنويع والتّغيير يوما بيوم... تسلّل عقلها الممتلئ بالشّكوك والتشكيك في سلوك زوجها المهاب والّذي تعوّد خيانتها وعدم الحرص على إخفاء ذلك... تسلّلت كلمات كريم تلك السنوات والمسافات وها هي اليوم تدقّ باب ذاكرتها بينما كانت تحاول أن تستقيم في كرسي سيّارته الصّغيرة البيضاء والجديدة وألا تستند إلى بلور النافذة البارد، كي تسمع صوته الضعيف الخافت يقول جملا مقطعة ومنفردة:

– الأناس هنا لا يشبهون الأناس الّذين أراهم في مكتب أبي.

أبي لا يلبس منديلا أبيض... إنه شيك... أبي أشيك منك...

أبي لا يقترب من النّاس... ولا يلمسهم...

أنامل أبي أجمل من أناملك... لماذا لا تضعين طلاء على أظافرك...؟
لماذا لا تلبسين خواتم وحليا في يديك؟
النّاس في عمل أبي لا يتكلمون... بل ينصتون إليه...
متى تنتهين ونعود إلى البيت؟
ماذا أوصاك أبي أن تطبخي اليوم؟

الآن فقط أصغت إليه وأدركت أنها لم تعر اهتماما إلى ما كان يشغل باله... إلى ما كان يعجبه... أو إلى ما كان يبغض. لم يهتم كريم يوما بما كانت تفعله الدّكتورة، إنما كان شغفه الوحيد هو أن يقتاد بوالده الطاووس وبأفكاره الأنانية. اليوم فقط أيقنت أن ذلك الصبيّ قد اكتمل نموّه وفكره ورشده وميله وصار يدرك من يكون هو ومن يكون الآخرون ومن يكون هو منهم.

كيف أصبح مغرورا ولماذا...؟

هل كانت تلكما الفسحتين اليتيمتين التين كان يقوم بهما رغم تنصّله، مرتين في السنة مع والده الرخم كافيتين كي ينهل من روح ذلك المغتر النرجسي أفكاره وطباعه وتكبّره؟

كيف تمكن عبد الله من براءة ابنه؟ وكيف استطاع أن يستنسخ نفسه فيه؟
كيف أفلت كريم من بين أصابع أمه الحنون حتى أصبح تحت وصاية والده؟

أجل... تلك هي الحقيقة. كريم يحب والده ويعشق شخصيته المتعالية. لم يعبّر عن ذلك يوما ولكن تصرفاته تقول أنه تطبع بطباعه وتبنى آراءه وطريقة تفكيره ومواقفه المعقدة من النّاس. كان أسلوبه في الكلام يعطي لسامعه انطباعا عميقا ويجعله مصغيا وكأنه أمام الأستاذ عبدالله مع اختلاف بسيط في الشّكل والخلقة بسبب فارق السن. فتراه يجلس كما يجلس والده... ويلبس كما يلبس والده... ويمشي ويأكل ويتباهى مثله. إن تكلم أفحم وجعل من يستمع إليه يوليه أمره،

فيأخذ بحجته وينساق وراء مشورته وينبهر ببلاغته وثقافته وسعة معرفته التي تعدّت صغر سنه، وإن سئل فيما يفوت إلمامه صار يطالع دون انقطاع، ويغوص دون هوادة في كتب أبيه، وإن استعصى عليه فهم، فإنه يكثر من البحث والمراجع حتى يبلغ هدفه من التمترس ومن نيل إعجاب والده. الغريب في الأمر أن كريم لم يعرف الخصاصة منذ مجيئه إلى الدنيا، ومع ذلك كان له موقف سلبي من فئة مجتمعية هي مما لا شك فيه الأكثر. أما الدّكتور عبد الله فقد أصبح على ما أصبح عليه نقمة على ما كان بالماضي من فقر وحرمان وضنك، فنسج لنفسه صورة جديدة نقية لا تشوبها شائبة، ملؤها العلم والجاه والترف، والرّيب أنه كان يتصرف كما لو أنه أتى إلى هذا العالم في أبهى صورة، ناكرا ومتناسيا أيام الطفولة وزخمها بالمغامرات مع الاحتياج وقلة ذات اليد[٣].

وصلت سيارة كريم أمام منزل كبير وجميل بزغت من وراء سوره شجرة توت عالية الأغصان بسطت على الرصيف ظلا واسعا تراصّت تحته سيارات الجيران كي يقيها أشعة الشمس الحارقة في الشتاء وكامل فصول السّنة، فما كان من الشّاب إلا أن أوقف سيّارته بعيدا عن الباب. همّت نعيمة بالنزول لكنها لاحظت أنه لم يوقف المحرك، إنما يستعد للمغادرة من بعدها فسألته:

– إلى أين أنت ذاهب؟ إياك والحماقات... لن تتركك الشّرطة وشأنك من دون مراقبة... دعنا ندخل إلى البيت وننتظر والدك كي يجد معنا حلا لهذه المصيبة...

فقال بكل ثقة في النفس:

– لا عليك يا أمي... لست أخشى شيئا... فلا لوم عليّ... ثم... إن أبي لا دخل له بما يجري... وبما يخصّني... لن أزعجه بهذه التّفاهات... سأراك لاحقا.

نزلت المرأة على مضض وبقيت تراقب السيّارة تبتعد عنها مغادرة المكان

٣ انظر تقرير ص ٢٣٥

بسرعة، فانقبض قلبها عندما لاحظت أن سيارة المحقّق سالم تتقفى أثر كريم. أخرجت هاتفها الجوّال من حقيبة يدها واتصلت بزوجها، لكن ما من مجيب، فكتبت له إرسالية تقول له فيها "عليك أن تترك ما بين يديك وتأتي حالا إلى البيت... ابنك في ورطة كبيرة لا تتحمّل الانتظار".

***

في زقاق صغير هجره الخلق رَكن كريم عربته الصّغيرة البيضاء والجديدة، وبعد أن نزل منها أقفل الباب بلطف ووضع مفتاحها في ذلك الجيب الصغير من سرواله والّذي عادة يتسع بالكاد لقطعتي نقود من فئة المائة مليم، ثم طبطب على جيوبه وأخرج حافظة أوراقه من جيب سرواله الخلفي ووضعها في الجيب الأمامي الأيمن... وتأكد أن هاتفه المحمول موجود بالجيب الأيسر، إثر ذلك سوى قميصه وأدخله بعناية داخل بنطاله، ومشى عشرات الأمتار حتى خرج من ذلك الزّقاق إلى شارع "بغداد" الكبير والشهير، شارع طويل عريض، كثرت فيه الدكاكين والمحلات، وانتشر فيه عدد لا يحصى من المشاة والباعة المتجولين الّذين انتصبوا على الأرصفة والمعبّد يبيعون ما يبيعه التجار القارّون بنفس الأثمان ومن دون كلفة الإيجار والكهرباء والماء والجباية. لأول وهلة يخطر ببال الزائر أنهم فقراء تمرّدوا على حالهم وعلى التراتيب البلدية كي يمارسوا أنشطتهم التجارية، ربّما لفترة، حتى يستعينوا بذلك على شقاء الدنيا وكلفتها المرتفعة، وحتى يتسنى لهم عيش كريم به فسحة أمل وكرامة واندماج اجتماعي بين زواج وإنجاب ودراسة وغيرهم. في الواقع هناك من بين هؤلاء التجار من ينطبق عليه تلك المواصفات ولأنه آثر على نفسه أن يرمي بها في منتجع الانحراف والسّرقة، جعل لنفسه نصبة من الجوارب المستعملة أو من مرطباتmille feuilles التي ارتفعت كميات السكر بها مقابل انخفاض أثمانها، أو لم لا براد شاي جوال مربوط بسلك فولاذي إلى

كانون محمول يبيع منه لعمال الحضائر وعاملات التنظيف وآخرين من بني بيئته. إلا أن الكثيرين من حماة الرصيف يعتبرون أعوانا أو مندوبي شركات ضخمة تعود بالنّظر إلى فلاحين أو تجار كبار من أصحاب رؤوس أموال غير مصرّحة، انتشروا على القوارع وفي رؤوس الأنهج يبيعون سلعا يجنون من وراءها مئات الملايين بينما مظاهرهم توحي إلى المارة بأنهم شحاذون تحت أدنى مستويات الفقر.

توغل ولد نعيمة بين النّاس حتى وصل إلى محلّ لبيع وتشفير وتصليح لاقطي الهوائيات. كان دكانا صغيرا إنما كدست فيه عشرات أطباق استقبال البث عبر الأقمار الصناعية، وعشرات العلب للاقطي الهوائيات وعشرات التلفزيونات والمراوح والسخانات الكهربائية و الغازية وغيرها من الآلات التي تسمح بالتقاط قنوات تلفزيونية مشفرة. وقف أمام منصة المحل بجانب رجل بدين كان يدخن سيجارة نتنة أعمت عينيه بدخانها، وماسكا بيده اليسرى آلة تحكم عن بعد بينما كانت يده اليمنى تجرش خصيتيه حينا فإذا ما سلّكت ما علق بينهما ذهبت في حين آخر إلى الوراء لتفرك بين أردافه ما طاب من حكة، وكان يتكلم مع البائع بصوت عال حول فك شفرة قنوات رياضية معروفة باحتكارها لفائدة الميسورين مقابلات لعبة كرة القدم الشعبية.

ومن الجهة الأخرى من المنصة كان يجلس صلاح صاحب المكان والّذي كان يقوم في نفس الوقت وبمهارة فائقة بعدّة أشياء دون لخبطة أو تعثر. فها هو يلاعب حاسوبا كبيرا كي ينزّل تطبيقات مقرصنة من جهة ويلعب من جهة أخرى لعبة رهانات أجنبية بالعملة الصعبة على مواقع أوروبية، وكان يثبّت هاتفه الجوّال بين كتفه وأذنه مماًمئا إلى مخاطبه بأصوات غير مفهومة بشأن صفقة شرائح الكترونية مريبة، وفي الآن ذاته يجيب الرّجل البدين عن تساؤلاته ويعده بإيجاد حلّ لمشكلته قبل أن ينطلق اللقاء الكروي المنتظر في المساء. كما جلس بجانب صلاح شابان

نحيلان برزت لهما بطنان صغيران من فرط شرب الجعة، وكانا يلبسان ملابس داكنة وعلى رقابهم وشام جميلة وقد غرس كل واحد منهما رأسه وعينيه ووجدانه في هاتفه الجوّال.

حينئذ غادر رجل الحكّة والطّيب المكان على مضض تاركا وراءه سحابة داكنة وخانقة من دخان سيجارته فانتبه صاحب المحل إلى دخول كريم لكنه تظاهر أنه لا يعيره اهتماما واستمر فيما هو فيه مما أشعل فتيلة الغضب في قلب زبونه الّذي كاد يترك المكان لعدم تحمّله قلّة الاكتراث التي قوبل بها، بل بقي يبحلق في صلاح وفي كل تفاصيل وجهه وجسمه خاصّة يده اليسرى وخنصرها الملفوف بضميدة بيضاء ناصعة، وكالمعتاد مضى ابن الدّكتورة يتساءل:

– إلام ستؤول الأمور لو أنني أصفعه على الملأ...؟

لا يتجاوز المتر و ٦٠ سنتيمترا ويخال نفسه عملاقا ماردا...

ما الّذي يمنعني من أن أنهال عليه لكما ورفسا فألقّن هذا المنحرف درسا...؟

أستطيع إن شئت وإن اضطررت إلى ذلك أن أبرحه ضربا وأكسر ما برز من عظامه...

أستطيع أن أكسر عظام أصحابه إن عاضدوه وتهجموا علي...

لكنه عديم الرجولة وقد يشتكيني إلى الشّرطة وعندها سأكون أنا... كريم عبد الله في السجن... وسينعم هو بحريته على حسابي...

أو ربّما بعث وراء أصحاب منحرفين من حيّه وعندها سأكون في مأزق حقيقي لن أخرج منه بأقل من عين متورمة وأسنان مكسورة وجروح ستفسد شكلي ما حييت...

علي ألّا أنسى أنني في حيّه وموازين القوى في صفّه...

يا لك من أخرق... وابن فاجرة...

ثم قال:

– هل أنت من كان وراء تعنيف الفتاة...؟

فأجابه صلاح بنبرة ساخرة:

– ربّما... لست أدري... أو لا أذكر... أنا أعنّف كل يوم فتاة... عمّن تتكلم...؟

– أنت تعرف من أقصد... أنصحك ألّا تلهو معي... مريم... فتاة المعمل... ما الّذي فعلته أيها الغبي...؟ أنت حقا أحمق...

– احفظ أدبك وإلّا أدّبناك رفاقي وأنا...

– قلت لك أن تلقنها درسا... ليس هكذا أيها المعتوه... أنت حقا معتوه... أنا الآن مطلوب إلى التّحقيق... بسبب فعلتك... الفتاة في المستشفى في حالة حرجة والشّرطة في أعقابي...

أريدك فقط أن تعلم أني لست مستعدا لتحمّل تبعات غباءك وجهلك... سأقول للشرطة أنك أنت من قام بضربها.

– قلت لك أن تحفظ أدبك...

– وماذا إن لم أحفظه...؟

– سأغضّ النّظر عن ذلك مرة أخرى... لأنك ضيفي... ربّما علي أن أقدم لك بعض القهوة أو أن أدعوك إلى الغداء عندي في البيت...؟ ستفرح والدتي جدا بقدومك... وستدللك بأطيب الأكلات... أيها المدلّل... أيها الغبي... يا متعلّم... يا ابن الذوات...

– لا أسمح لك...

– بل ستسمح لي شئت ذلك أم أبيت... لأنك حقا غبي... تظنّ نفسك ذكيا لأنك غني ومترفّه ومن عائلة راقية... لكنّك عكس ذلك بالضبط... مدلّل... تافه... وعديم الإنسانية...

لا تحتمل أن تصدّ... تكره من النّاس البسطاء ومن هم من وسط شعبي... وكلّفت من يقوم بالأعمال القذرة بدلا عنك... حتى ترضي غرورك... وها أنت ذا... غير قادر على تحمل مسؤولياتك...

– بائع الهواتف المسروقة والبضاعة المهربة... أصبح فقيها ويظنّ نفسه أهلا ليبدي رأيه في ما يفعله المتعلمون والمثقفون... الشّاب الأرعن الّذي لا يعرف غير العنف أصبح خبيرا في البسيكولوجيا ليقيمني ويعرف خبايا نفسيتي الهجينة...

– لست أعنف منك أيها المريض...

– كيف تجرؤ على نعتي بالمريض...؟

– بل أنت كذلك... و لعمري لم أر أغبى منك... وضعت نفسك في مأزق لأنك ركضت وراء إرضاء غريزتك المريضة وها أنت هنا تظن نفسك في موضع قوة حتى تستنقص من شأني وتهدّدني... تركت كلّيتك وبيتك وجئت ترمي علينا بلاءك... أنت هنا لأن هناك من اشتكَاك لدى الشّرطة دونا عن غيرك... الآن عليك المغادرة قبل أن أطلب لك الشّرطة بنفسي... إذهب يا ابن أبيك إلى والدك... قد يعينك على ما أنت فيه.

بقي كريم في مكانه لا يتحرّك ولا يتكلّم وإنما يفتّش داخل رأسه عن فكرة تعينه على هذا الّذي اختاره شريكا فانقلب عليه خصما، ثم انتبه إلى أحد الشّابين يقترب منه ويقول:

– ألم تسمع ما قاله لك...؟ انصرف قبل أن نلحق بك الأذى... هيا اذهب من هنا... أنت في المكان الخطأ... ويجب أن تكون في السجن... لكن لا عليك... لي الكثير من الأصحاب هناك... سأوصيهم بك رفقا...

لم يعاند ابن عبد الله طويلا، ورأى هذه المرّة من الحكمة عدم الاستماع إلى أفكاره وخواطره وإنما الاكتفاء بالمغادرة. توقّف أمام الباب لحظة والمرارة تملأ حلقه ودمه،

ليس لأنه أهين من طرف شباب دون مستواه وإنما لأنه لم يهتد لجعل صلاح يقول شيئا يؤاخذ عليه، إذ منذ ما يناهز العشرين دقيقة وقبل أن يدخل المحل كان قد شغّل خدمة التسجيل في هاتفه الجوّال حتى يوثّق كلام صاحبه ويستخدمه ضدّه إن لزم الأمر.

أسرع إلى سيّارته دون أن يهتم بالنّاس المحتشدة والتجار وبضاعتهم، وأكداس القمامة وقططها المريضة، والشّباب المتربص عند المقاهي يتباهون بما يلبسون مما يسرقون و يتحرشون بكلابهم المخيفة بالمارة من كل الأجناس والأعمار. ورغم اختلاف العباد الفاضح بين كادحين، وكادحين متمردين، ومتمردين، ومتمردين كادحين إلا أنه ما من أحد منهم اهتم لوجوده. مرّ ومشى وربّما هرول أمامهم دون أن يلاحظه أحد. لم يجلب اهتمام أحد. كان نكرة في عالمهم المشغول بالجري وراء لقمة العيش مهما كان طعمها. وحزّ هذا النكران في نفسه كثيرا حتى صار يجري بسرعة هربا من ذلك الفراغ الّذي احتواه رغم أنفته وتضخّم الأنا عنده. كان يظنّ أن العالم والإنسانية ينتظران أن يهلّ عليهما بطلعته البهية التي عاشا في شوق إليها منذ أزل. المشكلة الحقيقية عند كريم أنه عندما يتوقّف دماغه عن التحاليل والنقد لمن يعترض طريقه في شكله وأفعاله وأقواله، يرى نفسه ضئيلا وهذا لا يروق له، بل ويفقده توازنه مما يعطيه إحساسا بالصّغر وعدم التحكمّ بزمام الأمور. فتلك الأفكار تجعله يحتقر البشر ويتعالى عليهم بنيّة التحكم فيهم وتصغيرهم وتصنيفهم كي ينصّب نفسه شامخا بذاته فوق ذواتهم.

وصل إلى سيّارته الصّغيرة البيضاء والجديدة وارتمى بداخلها يشغلها وينطلق هاربا من الخواء الّذي كان فيه، وفي طريقه لم يلاحظ أن درّاجة نارية كانت تتّبعه منذ خرج من ذلك الزقاق الصغير، إنه صلاح الّذي ترك دكّانه بسرعة كي يتقفى أثره ويعرف وجهته وعنوانه. وبعد دقائق وصل الاثنان أمام بيت الأستاذ عبدالله،

فأدخل الشّاب السيّارة إلى المنزل بينما بقي صلاح مرابضا في أوّل الشّارع كي لا يلمحه أحد ومتظاهرا بتعديل مقود الدراجة وعيناه تدققان النّظر في أدنى تفاصيل البيت. ثم همّ بالمغادرة فإذا بسيّارة سوداء كبيرة وفخمة تقف أمام نفس المنزل دون الدّخول إليه، وينزل منها رجل وبنتين وطفل. كان الرّجل متأنيا في حركته، رصينا في مشيته، يلبس بدلة إنجليزية ذات الثلاث قطع، زرقاء داكنة، وقميصا أبيض شدت أكمامه بأزرار مذهبة لماعة، وربطة عنق حمراء حريرية مع حذاء ريشليو أسود، وما زاد من شياكة الأستاذ ذي الإحدى وستين سنة كانت نظّاراته الشّمسية الرفيعة الماركة، وخاتمه المزركش بنقوش جميلة ورنك نادي قدماء أساتذة الجامعة كما هو العرف في أعرق الجامعات الأمريكية والغربية. والأهم من ذلك قبعته السوداء... جزء لا يتجزأ من هوية ومظهر الأستاذ، يلبسها صيفا وشتاء ولا يقلعها عن رأسه إلا نادرا، كان يردد كلما سئل عنها أنها من طراز بورسالينو الأصلية وأنه اعتاد مع بداية كل سنة جلب واحدة جديدة من بلدها الأم إيطاليا.

كان مصحوبا بابنتيه، الكبرى وتدعى ملاك، طالبة في كلّيّة العلوم، والصّغرى شيراز وهي لا تزال تلميذة بالإعدادية، أما ثالثهم فهو صبيّ لطيف في العاشرة من عمره ويُدعى خليل[٤].

كان صلاح يراقب ركب الأستاذ يتبختر في مشيته ويدخل البيت في صمت وهدوء فانفرجت أساريره وتمتم خافتا:

– فريسة... اثنتان... ثلاثة...

وغالب درّاجته الثّقيلة بجسمه النّحيف ثم ركبها وعاد أدراجه.

٤ انظر تقرير ص ٢٣٨

كانت السّاعة في قاعة فحص المرضى بالعيادات الخارجية تشير إلى الواحدة بعد الزوال وكان د. يسري والممرّض فيصل يجلسان وراء مكتب تكدّست فوقه مئات الأوراق منها ما أعدّ للوصفات الدوائية، وأخرى لطلب التحاليل والأشعة، ومنها ما هو خاص برسائل تواصل بين الأقسام والأطباء، والأهم من ذلك عشرات من المذكرات الطبية التي توزعت على مجموعتين، الأولى وقد تعدّت الثلاثين، وهي للمرضى الّذين مرّوا بالفحص وانتهى أمرهم وعادوا إلى بيوتهم سالمين... أما الثانية فلم يكن بها أكثر من سبع مذكرات، وهي للذين لم يحن دورهم بعد. كان فيصل يهزز رجله توترا وضجرا و يحسب الدقائق والثواني المتبقية حتى تطير الرّزمة الثانية وتحط فوق الأولى. صحيح أنه يحبّ الدّكتور يسري ويكنّ له احتراما خالصا لنزاهته وجدّيته في العمل لكنه كان لا يتحمّل منه التراخي في إنهاء مهامه على وجه السرعة كما اعتاد آخرون... ففي تلك الآونة لم يكن تركيزه موجها إلى شيء آخر سوى أن يغادر المكان إلى مشربة المستشفى أين زملاؤه الممرّضون من الأقسام الأخرى، وأين القهوة والشاي وكل جديد من الأخبار والأسرار والنّميمة.

بالمقابل كان الحكيم يحاور مريضا في السّبعين من عمره اشتدت به آلام النقرس في جلّ مفاصله ولا يجد معه حلا لإقناعه بضرورة تتّبع حمية خاصّة أبى الرّجل تقبّلها، منددا بما سمّاه تواطؤ الطبيب مع سياسة الدولة التجويعية والمنتهجة لحرمان الشعب البائس من أبسط متع الحياة وأولها الأكل... ومذكرا إياه أن قلة ذات اليد

أنسته منذ زمن بعيد شتى الأطايب وعلى رأسها لحم الضأن الّذي أطلق عليه اسم سيّد اللحوم، ولم يجد ملاذا ليُشبع شهواته إلا في اللّجوء إلى رعاعها وهي المنبار، زاعما أن تناوله مرة في الأسبوع لن يمثل خطورة على صحّته الجسمانية، بينما تركه قد يتسبب له في انهيار نفساني، ومضى يردّد:

– الأمل في المنبار يا دكتور... الأمل في المنبار...

عندها دخل د. لطفي بمنديله الشديد البياض مقارنة بمنديل يسري وفي يده بعض الملفات الطبية ومتظاهرا بأنه كان يباشر عمله منذ الصّباح الباكر وأجاب المريض من دون مقدمات:

– وفي الكوارع أيضا... ثم قال لزميله: لقد عدت للتو من قسم القلب... لم أفلح في إقناع رئيس القسم بإيواء مريض يشكو من آلام حادة في الصدر منذ الفجر.

– وماذا فعلت إذن من أجل المريض...؟

– أنت لا تسمعني... أقول لك أن رئيس القسم رفض إيواءه...

أما المريض... فلايزال في غرفة المراقبة...

وبما أن ما حصل منذ سويعات مع الدّكتورة نعيمة ما انفك يشغل باله، سارع بتغيير الموضوع وقال:

– أرى أنه من عدم اللّياقة أن تتركك نعيمة عالقا مع المرضى ومشاكلهم دون سابق إنذار...

– لا عليك... ربّما كان لها ما اضطرها إلى فعل ذلك...

– هذا صحيح... لست متأكّدا... ولكني أرى كريم ابنها في مأزق... لذلك هرعت إليه منذ قليل... ألست على علم بما يجري...؟

– لا... لا علم لي بشيء... لماذا تظن ذلك...؟ هل رأيتها...؟ هل طرحت

عليها السّؤال...؟

تململ لطفي وشعر ببعض الإحراج فاتجه نحو الباب وأخرج هاتفه من جيبه، ثم التفت إلى د. يسري وقال مستنكرا:

– في الواقع لم تقل شيئا... لكني لست مطمئنا... ربّما علينا أن نطلبها ونسأل عن أخبارها... ألا تكترث لمشاكل زملائك...؟ أنت حقا غريب الأطوار...

نظر يسري إلى المريض وأشار إليه أن يأخذ وصفة الدّواء التي أعدّها الممرّض وقال له:

– إياك والمنبار... إياك والكوارع... ثم توجّه إلى زميله وسأله: ألن تعينني...؟ بقي القليل...

– ألا ترى أنني سأخاطب نعيمة وأسأل عن أخبارها...؟

أراك تلبس نفس الثياب منذ ثلاثة أيام ولم تحلق ذقنك منذ أسبوع...

أ لم أقل لك أنك غريب...؟

وخرج لطفي تاركا يسري على ما كان عليه.

اجتمعت عائلة الأستاذ عبدالله حول طاولة الغداء وكان الصمت المكوّن الرئيسي لتلك الوجبة التي اختفى عنها المحمّر والدّسم والتحلية. لم يهتمّ الرّجل بذلك بل كان مكتفيا بالسلطة التي أعدتها نعيمة على مضض، وبما نال من متعة في اللّيلة المنقضية مع خليلته حليمة والتي لم تقصّر في تدليله كما لو كانت جارية تدلّل سلطان رأسها ووليّ نعمتها. بالمقابل كانت زوجة السّلطان وابنه متوتّران وبالكاد تلامس أردافهما مقعديهما لعدم رغبتهما في الأكل وإنما في مغادرة الطّاولة والبدء في الحديث بموضوع الفتاة الّذي شغلهما منذ الصّباح. وفي الآن ذاته كانت ملاك تتظاهر بأنها تأكل، لكنها في الواقع كانت تلاعب سلطتها بفرشاتها، فتقلبها تارة وتشقلبها أخرى، ومرة تبعد قطع الطماطم عن الخسّ ثم تعود لخلطها أو تصفيفها في خطوط أو دوائر أو مثلثات... لم ينتبه إليها أحد وإلام كانت تصنع بالأكل. لم ينتبه أحد إلى ما كان يشغلها وما يدور في ذهنها في علاقة بذلك الشّاب الّذي تحبّه ولا تريد أن تخسره أو تُحرم حبّه ولوعة ما تكنّه له من مشاعر، لو أنه لم يطلب منها وبإلحاح أن تمكّنه من نفسها[٥]. واستمرّت تقلّب السلطة فتتراءى نفسها بين أحضان فتى أحلامها في وضعيات حميمية سبق أن رأتها من قبل على مواقع إباحية على النت فيرتعش جسدها وتسري فيه حرارة لذيذة ويحمرّ وجهها حياء. ثم تشقلب السلطة فترى نفسها في فستان زفاف أبيض بجانب رجل لا يشبه صديقها في شيء، إنما كانت هيئته أقرب إلى والدها، فتفزع وتتلبّك.

بجانب ملاك كانت شيراز تأكل وشفتاها تتحرّكان كمن يتكلم مع شخص خفيّ أو مخفيّ تحت الطّاولة ولا تريد أن تجلب انتباه أحد إليه[٦].

٥ انظر تقرير ص ٢٣٩

٦ انظر تقرير ص ٢٤٠

حتى أنها كانت بين الفينة والأخرى تلتفت حولها لتتأكّد أن سرّ ذلك الشّخص لم يكشف بعد.

في الأثناء كان خليل وحده من انغمس في الأكل، بل إنه التهم بمفرده صحن مكرونة تركته له والدته من عشاء اللّيلة الفارطة لأنه لا يحب السلطة ولم تتعوّد إجباره على أكل شيء لا يرغب فيه. كان صحنه ممتلئا ولأنه لم يحظ بالمراقبة المعتادة من الدّكتورة فإنه أتى عليه بأكمله، مع قطعتي خبز وبرشة جبن كبيرة وبعض المايونيز التي وضعت فوق الطّاولة بالأساس لمصاحبة السَلَطة. وحين لاحظ وتأكّد أن ما من أحد يهتم بالأكل مثله، أنهى فطوره بتفاحة... وبرتقالة... وموزة... أو ربّما كانتا اثنتين نزلن هنيئا مريئا في بطنه الّذي بدأ يتدلى منذ فترة ويضيّق عليه ملابسه ويحرمه من المرتبة الأولى التي طالما أحرزها بين أترابه كلّما تسابقوا في رياضة العدو[٧].

مسح عبدالله فمه ويديه بلطف ثم طلب من زوجته أن تأتيه بكأس شاي، وغادر الطّاولة متجها إلى الصالون أين سيشاهد كما اعتاد في ذلك الوقت من النهار آخر الأخبار على القنوات العربية والأجنبية. بانت الحيرة على وجه نعيمة ورأت ابنها يشير إليها أن تفاتح والده في موضوع الفتاة التي وجّهت إليه اتّهاما بالتعنيف، فقالت لأبنائها الآخرين أن يذهبوا كلّ إلى غرفته لأنها تحتاج إلى الهدوء كي تطرح مع أبيهم مسألة مصيرية تخص أكبرهم.

سألتها ملاك عن الموضوع فرفضت أن تفصح عن أية تفاصيل، بل راوغت مشيرة إلى أن الأمر له علاقة بنشاطات كريم الطلابية والتي أخذت جلّ وقته منذ انتخابه في تمثيلية اتحاد الطّلبة وألهته عن دروسه مما جعل أعداده تتقهقر في آخر الامتحانات. وبعد أن تأكّدت أن أطفالها أصبحوا في غرفهم، أمسكت كريم من

٧ انظر تقرير ص ٢٤١

يده ودفعت به إلى والده وقالت محتقنة:

– أين كنت هذا الصّباح...؟ اتصلت بك عشرات المرات وبعثت إليك عشرات الإرساليات... ألم يخطر ببالك للحظة أنني قد أكون في حاجة ماسّة وملحّة إليك...؟ أو ربّما كان أحد أطفالك في ورطة وينتظر وقوفك إلى جانبه...؟

استنكر الرّجل طريقة زوجته في الكلام وقال ممتعضا وبهدوء ركيك:

– كنت في الكلّيّة... أين تتوقّعين أن أكون...؟ هلّا قلت لي مباشرة... ماذا يجري...؟

لم تستلطف نعيمة كذب زوجها المفضوح فقالت:

– أنا كنت في الكلّيّة... ولم أجدك هناك... سألت عنك زملاءك والموظفين ولم يرك اليوم أحد هناك...

– هل الأمر متعلق بجدول أوقاتي وتنقّلاتي... أم هو بشأن أحد الأطفال...؟

وهنا تدخّل كريم متضجرا وقال:

– جاء اليوم شرطيان إلى الكلّيّة وطلبا مني أن أتبعهما لاستنطاقي بشأن فتاة وقع إيواؤها هذا الفجر بالمستشفى... يبدو أنها في حالة حرجة... تدّعي أنني... أنا... من كان وراء تعنيفها والإضرار بها...

سكت الجميع لحظة تأمل فيها عبدالله زوجته باشمئزاز واستنكار وغير قادر على استيعاب ما سمع وقال لها:

– قصة رديئة ومقززة... ابني لم ولن تكون له صلة من قريب أو من بعيد بفتيات من هذا القبيل... لا بد وأنك تعرفين ذلك جيدا بقدر ما تعرفين من يكون ابنك... كان من الأجدر بك أن تبلغي الشّرطي أنه أخطأ العنوان وأن عليه أن يبحث ويحقّق بعيدا...

فأضاف الابن متحمّسا:

– هذا بالضبط ما قلته للمحقّق هذا الصّباح...

نظرت نعيمة إلى كريم باستنكار ثم إلى زوجها وكأنها تريد أن تقول له أن الفرصة لم تتسنى لها سوى منذ ساعة كي تعرف من يكون ابنها حقا، لكنها قالت:

– لم أنتظر منك المشورة حتى أقول لهم ذلك... إنما انتظرتك كي تتصل بمحام يرشدنا إلى ما يجب فعله في مثل هذه الحالات...

– من يكون الشّرطي المكلف بالتّحقيق...؟

– وما شأنك بالمحقّق...؟ أنا أسألك أن تجد محاميا كفؤا يقف إلى جانب ابنك...

– هذا شأني أنا... سأتصل بالمحامي... لكن قبل ذلك سأتصل بمن سيكون له حديث مع الشّرطي كي... كي... يسهل عليه مأموريته...

اقترب كريم من أبيه والتصق به وقال والمكر في عينيه:

– أجل يا أبي... هذا ما يجب فعله... حتى لا يحيد المحقّق عن واجبه... فيرتكب أخطاء قد يحاسب عليها فيما بعد...

أخرج عبدالله هاتفه من جيبه ومضى يبحث عن الرقم الّذي يريد الاتّصال به، ثم رفع رأسه وحدّق في وجه نعيمة وقال مهادنا:

– لم يكن لنا نصيب في وجبة جيّدة... فما رأيك أن تذهبي إلى المطبخ حبيبتي... وتعدّي لنا شايا آخر بيديك الرقيقتين...

استغربت نعيمة من هدوءه اللزج والمقزز، لكنها فهمت أنه يريدها أن تتركه لحاله كي يقوم بمكالمته دون أن تعرف من الشّخص الّذي سيتصل به وما الّذي سيدور بينهما من حوار. وقبل أن تنطق بكلمة أضاف عبد الله بأسلوبه الرخم:

– شكرا عزيزتي... تعرفين أنني أحبّك...؟

انصرفت الزّوجة وحين تأكد الزّوج أنها ابتعدت تماما قام بمكالمته. لم يرن

هاتف مخاطبه أكثر من مرة حتى أجابه، وكان كريم يسمع عن بعد صوت رجل يقول مهللا:

– أستاذ عبد الله... أستاذنا المفدّى... يومك جميل سيدي... سعيد جدا بمكالمتك...

– بل أنا الأسعد... سيّدي وتاج رأسي... حفظك الله وجعل أوقاتك عزا ورضا... كيف حالك سيدي...؟

– بخير والحمد لله... أنت دائما على البال... منذ يومين فقط كنت أتحدث في سيرتك مع ابني أسامة وأذكّره فضلك عليه في اجتياز ما اعترضه من عقبات في السنة الماضية حتى أنهاها مكللة بالنجاح... وهو اليوم أكثر طلابك انضباطا ومثابرة...

– لا عليك سيدي... مطبات صغيرة قد تعترض أي طالب... المهم أن تكون لنا رحابة الصدر الكافية كي نقف أمامها ونعالجها بحكمة وتروّ... أنا أعتبر أسامة أخا لابني كريم... لذلك ما كان النوم ليكحّل عيني إن تعرّض لمأزق ينغص عليه دراسته ومستقبله وأبقى مكتوف الأيدي...

– سأضلّ ممتنّا لك ولما فعلت من أجله ما حييت... ليس من السهل أن ترى ابنك الوحيد على شفى هاوية بسب لحظة طيش واستهتار...

– أرجح أنها لا تتعدّى لحظة ضعف...

– سرقة ورقة الامتحان من مكتبك[٨]...؟ لا أدعو هذا ضعفا...

– لا عليك سيدي العزيز... لُملم الأمر ومشى الحال... المهم أنني اتصلت بك لأمر بسيط وألتمس من سيادتك المشورة... لن أجد أفضل منك موقعا وخبرة كي يرشدني إلى التّصرّف الصحيح.

٨ انظر تقرير ص ٢٤٢

تأمل كريم والده بانبهار و إعجاب، ولاحظ كيف أنه طلب من والدته الانصراف كي يقوم بمكالمته في غيابها ولكنه لم يطلب ذلك منه لأنه أراده بجانبه كي يراه في عطائه وفنّه ويتعلّم عنه التملق والمدح والتودّد إلى ذلك الرّجل إذ يرفع من قدره ويعلي من شأنه فتتيسر أمامه السبل لنيل مبتغاه منه. وها هو يطلب منه أن يتدخّل لدى المحقّق كي لا يكون متشددا مع ابنه، وإن لزم الأمر أن يجد حلا جذريا مع مريم، تلك الفتاة النكرة التي أرادت أن تلفّق تهمة كيدية لذلك الشّاب المتميز، ابن الحسب والنسب والّذي يصبو إلى مستقبل منير وبراق.

اجتمع سامي وبقية الشّلّة في مطعم استأنس وأصحابه الذهاب إليه لقربه من الكلّيّة ولجمال ديكوراته المتطورة والتي تناسقت ألوانها مع صور علقت على جدرانه بها نجوم من عالم السينما والرياضة. هناك كان جل الطّلبة ينعمون بألذ الأكلات وأدسمها، راشقين أعينهم في تلك الصور وحالمين بحياة تشبه حياة أولئك النجوم وسط البذخ والشهرة والجمال وخاصّة آلاف المعجبين والمعجبات من شتى أنحاء العالم. كانت تتراءى لهم الأمور هينة ومعدومة العوائق، فهم يدركون أن أغلب النجوم كانوا في وقت ما طلبة وحالمين مثلهم، ومن بينهم من حاز شهادة التخرج في مجال بعيد كل البعد عن ميدان التمثيل أو الغناء، وهذا ما كان يحفز الشّباب أكثر فأكثر. فما الّذي سيحول دونهم والنّجاح ودون الأضواء بعد القفز من الجامعة إلى هوليود.

أرنولد النمساوي الأصل، صاحب شهادة إدارة الأعمال وأرقام قياسية في بطولة كمال الأجسام وبعد عشرات السنين في تجسيد أدوار المنقذ والقاتل والروبوت، وبعد عشرات الآلاف من طلقات الرّصاص، وبعد التّهشيم والتّكسير والتّفجير والتّنكيل والدّفاع عن الأقوياء يصبح حاكم ولاية كاليفورنيا.

والإنجليزي روان أتكينسون الّذي لعب دور "مستير بين"، أشهر أبله أضحك النّاس، هو في الأصل مهندس في الالكتروكهرباء. وغيرهم كثير مثل الزعيم عادل إمام صاحب بكالوريوس فلاحة، وجورج ويا لاعب كرة القدم الّذي أصبح فيما بعد رئيس دولة ليبيريا. كان الطّلبة يرون المستقبل المثاليّ شبيها بمسيرة أولئك النجوم، لكنّهم كانوا بالمقابل إذا ما دعاهم أحد إلى الانضمام إلى فرقة مسرح الكلّيّة ترفّعوا وتكبّروا ورفضوا القيام بأدوار قد تستفزّ عند أندادهم الضّحك والسّخرية أو الشّماتة. وإذا طُلب منهم تكوين فريق رياضي نفروا وشردوا حتى الجفول بتعلّة

أن وجوههم ستحمرّ وأجسادهم ستتعرّق وتنتن وسحنتهم ستفسد أمام الجماهير من روّاد مواقع التّواصل الاجتماعي مما سيقلّص الأصابع الزرقاء إزاءها وسينقص الإعجاب والاستحسان والاستعظام حيالهم.

المهم أن الشبّان والشّابات من طالبي العلم اختاروا الانتظار في ذلك المطعم علّ بابه يفتح يوما ويلجه قناص نجومية عالمي يختار أحدهم أو إحداهن ليكون سفير الوهن والأحلام. ثم إن المكان كان يجلب زبائنه بانتظام لأنه متميز بوضع موسيقى صاخبة تحتل المحل والأذهان وتدفع بالبعض أحيانا إلى الرقص إن أبطأ النادل في إحضار الطلبيات من تلك المأكولات الشديدة الدسم والعالية الحريرات والتي أدمن الطّلبة استهلاكها وتصويرها وإنزال صورها على حساباتهم بمواقع التواصل الاجتماعي. كانت للموسيقى غاية أخرى لا يعرفها إلا صاحب المحل، والّذي حين سئل عنها قال بأن ذلك يسمح للزبون بتجاذب الحديث مع مرافقيه في جل المواضيع، عامة كانت أو خاصّة، وبكل حرّية دون أن يتنصّت عليه أحد أو يفتضح سره. هذا صحيح، وفعلا لا يمكن لأحد أن يسمع حديث من كان حول طاولة مجاورة، والنتيجة أن هذه الوضعية أتاحت الفرصة لبعض المتربصين بالشّباب من بائعي المخدرات من جهة والمتحرشين من جهة أخرى أن يجدوا مناخا ملائما لتجارتهم وأهوائهم دون حرج أو رقيب.

بينما غرست سندة عينيها في هاتفها الجوّال متفادية الحديث فيما جرى في الصّباح، بدت الحيرة على وجه عفاف وسامي الّذين لم يتمكّنا من إنهاء ما في أطباقهما من طعام، وبدا الغضب على وجه ماجدة التي انشغل قلبها بكريم وبما ادعت سندة أمام الطلاب وأساتذة الجامعة والشّرطة وكذلك الدّكتورة نعيمة، ومدى تملقها وانقضاضها على الفرص بانتهازية متجردة من كل مشاعر وأحاسيس بالمسؤولية وقراءة للعواقب. بالمقابل كان إسكندر قد انحاز قليلا عن المجموعة والتصق بفتاة

شابة تعدّت الثلاثين من عمرها وقد بان الترف على مظهرها ولباسها المزخرف بألوان فاقعة ومذهبة وحلي غليظ ومكياج رذيل، وكانت ملامح وجهها دليل على لعب مشرط جراح أو أكثر به بين نفخ وشد وشفط وربط وكبس وتغيير سحنة وحفر حفرة وفك عبوس وفسخ كلوح. كانت تتردد على المكان لتبيع بضاعتها المحضورة من قنب هندي وبراشم عدّة لم تجد عناء في اقتنائها بمساعدة أطباء محترمين ألفوا تحرير وصفات تلك الأدوية المخدرة مقابل مبالغ مالية هامة كانت تدفعها تلك الشّابة لثقتها بسهولة إعادة بيع وترويج سلعها والربح من ورائها أرباحا قياسية. كان إسكندر أحد أهم عملائها لإدمانه المفرط على القنّب الّذي زاد من تعاطيه في الآونة الأخيرة. فحاله ميسورة وجيبه لا يخلو من رزم الأوراق النقدية. الأم تعطي والأب يزايد عليها. إذا طلب من والده عشرين دينارا أعطاه الضعف وإن قال لأمه أنه تحصل من عند أبيه على خمسين فلن تبخل عليه بأقلّ من سبعين آخرين[٩].

استرعى أمر إسكندر انتباه عفاف ولاحظت هذه المرّة وليس على غرار سابقاتها، أنه قد أعطى تلك الفتاة مبلغا ماليا أكبر من المعتاد وبالمقابل دسّت له مزوّدته الرسميّة في جيب معطفه لفافة كبيرة على غير العادة حرصت ألا يرى محتواها أحد. لم تستوعب عفاف الأمر ككل مرة، لأن ما كان يستوقفها بالأساس كلما وقعت عينها على تلك الغريبة هو سرعة تغير ملامحها من أسبوع إلى آخر، وكانت تتساءل في كل مرة عن كلفة عمليات الجراحة التجميلية. عفاف شابة بسيطة المظهر ولكنها ذات حسن وجمال لم تكن قد وفّقت في إبرازهما كما تفعل سندة وشبيهاتها. قلة ذات اليد حالت دون ذلك، وليس لها أن تبتاع ملابس ومساحيق وأدوات تجميل باهضة كما تفعل صديقاتها، إنما تكتفي ببعض المواد القليلة الثمن والتي

٩ انظر تقرير ص ٢٤٣

سهل اقتناؤها لأنها اكتسحت الأسواق والمحلات التجارية. المشكلة بالنسبة إليها أن في أيامنا هذه استأنست أعين العامة النّظر إلى وجوه ملطخة تظن صاحباتهن أنهن سفيرات الجمال ومحتكراته والمنفردات دون غيرهن بتعريف وضبط مقومات الحسن والبهاء، حتى أن الناظر إذا ما وقعت عيناه على وجه صبوح نظر نظيف من كل إضافة اصطناعية، تلبّك وتزعزعت همته وارتبكت قدراته على الحكم وبات غير قادر على إبداء رأي حرّ مجرّد، ولم يتمكّن من الجزم عن رشد إن كان ما رآه جمالا أو لا، وإن كان ما أرجعه إلى ذكرى حسناوات زمن مضى كُتبت فيهن ولهن الأشعار ونُظّمت في جمالهن الألحان والأغاني، ليس سوى هواجس وتصوّرات لأفكار هلامية غير واقعيّة وجب سترها والتكتّم عليها وعدم الإفصاح عنها لألّا ينعت بالمتخلف أو المخبول.

لذلك انتهى التخمين بعفاف إلى فقدان ثقتها بنفسها وبما منّت به الطبيعة عليها، وباتت تفكّر بجدّية في اللجوء إلى مشرط جراح. أي نعم أن تلك العمليات مكلفة للغاية بين عيادة الطبيب على الأقل مرة أو مرتين قبل الجراحة، وبين التحاليل والأشعة من جهة، وبين العملية وما يتلوها من عيادات مراقبة... وعفاف فتاة متوسطة الحال وعائلتها ليست ميسورة كفاية كي تخصّص أو تدّخر لها مبلغا كبيرا تصرفه في ما سيرونه "نزوة تغيير شكلها"، ومن المؤكد أن شهوات مثل هذه لا يمكن أن تكون موضوعا يطرح مع الوالدين لضيق تفكيرهما وعدم قدرتهما على استيعاب أولا أن ابنتهما... نتاج تلاقح خصوصياتهما الوراثية والبيولوجية ليست جميلة... والواقع أنها فعلا جميلة... وثانيا مدى أهمية تلك الجراحة لتهدئة نفسية عفاف وراحة بالها ومستقبلها الاجتماعي والعاطفي. ومن المؤكد أيضا أنها ستقابل بالرفض، وأكثر من ذلك بمحاولات الإقناع بالرجوع عن مثل ذلك التفكير المبتدع ووجوب إمعان النّظر والتأمل في عواقب ما تنوي فعله، وإعمال

العقل للوصول إلى الهداية والسراط المستقيم بالابتعاد عما ألهاها عن دراستها وعن دينها السوي وقيمه، وسيسلطون عليها من يردعها ويوجهها إلى الحل الأنسب بهجر صحبة السوء والانحراف، وإن استدعى الأمر عرضها على طبيبة روحانية تذهب عنها الأرواح الخبيثة وتحرق الجن الّذي سكن جسدها بالتكليف من أنواع السّحر، أو إبقاءها في البيت وانقطاعها عن الدراسة... ولن يتردد والداها في إتيان ذلك الحل إلى أن يأتيها من سيقدّر جمالها وذاتها ويأخذها على حصان أبيض ويتسلم المشعل في معاناة أمراضها في بيت العدل. لذلك وبسبب كل ما سبق رأت الشّابة أن أفضل حل لتوفير المال الكافي للقيام بعملية جراحية تجميلية، أن تجد عملا يدرّ عليها أرباحا كبيرة وسريعة دون أن تلهيها عن دراستها. واهتدت إلى أن المجال الّذي تتّبعه تلك الملتصقة بإسكندر لا بد أن يكون أمثل مجال. فهي تراها لا تقوم بجهد أو تعب يذكران... وكل ما تفعله هو جلب بضاعة، على الأرجح في علاقة بالهواتف الجوّالة أو البرمجيات المحضورة، أو ربّما بالدّروس... المهم أنها تبدو خفيفة الوزن وسهلة التوزيع، على زبائن أغلبهم من الطّلبة الميسورين الّذين لن يبخلوا في دفع مبالغ محترمة كما فعل زميلها للتو، وفوق كل ذلك فإنها تجارة ستسمح لها بأن تكون قريبة من عالم الكلّيّة والدراسة ولن تفتكّها من أصدقائها وواجباتها حتى التخرّج، وهكذا تكون قد ضمنت مستقبلها على المستوى العلمي، بل والأهم من ذلك أنها ستصبح أكثر جمالا وجاذبية وإغراء وربّما منافسة لسندة ومثيلاتها.

أبعد سامي كأس الشاي عن فمه وقد انتابه القلق بشأن كريم وما ينتظره في التّحقيق مع الشّرطي وقال لأصحابه:

– أنتم تدركون أن ما فعلناه منذ حين أصبح أمرا منتهيا لا رجوع عنه... وبناء على ما أقدمت عليه سندة... وما جاريناها فيه... علينا مواصلة معاضدة رفيقنا

كريم حتى النهاية وألا نخذله...

وتدخّلت ماجدة بعد أن حدّقت بغيض في زميلتها، غير مقتنعة بما يقوله سامي وقالت:

– ما قالته سندة... لا يلزم سواها...

فقاطعتها سندة تلومها غاضبة:

– ولكنّك تصرفت بما يدل عكس ذلك... ألست أنت من قال أنك كنت تمسكين السّرير حتى لا يقع...؟ ما الّذي يحدث الآن...؟ على كل حال... إن كنتم تنوون ترك كريم وحيدا في مشاكله... فأنا سأضل بجانبه مهما كلفني الأمر...

لم ترحّب ماجدة بكلام غريمتها وأحسّت أن تلك المدلّلة تستأثر الشّاب لنفسها أكثر منها، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على قوة الحبّ الّذي تكنّه له ومدى استعدادها لفعل أي شيء في سبيله، والمعروف أن الحبّ إذا استولى على قلب أحد، لا يفوّت صاحبه الفرصة كي يعبّر عنه مهما كلّفه الأمر إلى أن يرتكب من الهفوات ما يتنزه عنه الجهلاء. أما هي فكانت عكس ذلك تماما... إذ كانت تحسب ألف حساب قبل القيام بأي شيء حتى لا تقع فيما يحقّرها في عين أحد وأوّلهم كريم، فقالت مستدركة بصوت عال انتبه إليه من كان حولهما:

– تعرفين أنني لا أقصد ذلك... أمّا أنت ففعلت... وأردت أن تضعي كريم أمام أمر هو أبعد ما يكون عن خاطره... كما أنك انتهزت فرصة حضور والدته... وكأنك تبتغين الإيقاع بالجميع في شباكك...

أدرك سامي أن الأمور ستنحرف عن نصابها وأن المشكلة الرئيسية ستتحول إلى حلبة الغيرة والبغض وكيد الفتيات، ورأى النّاس من حولهم ينشغلون عن شؤونهم بما يدور بين الصديقتين ويتهامسون فيما بينهم ، فقال:

– عوض إيجاد حل لما نحن فيه... أصبحتما تتشاجران حتى علت أصواتكما

وجعلتها النّاس من حولنا يتندّرون بها أنتما عليه... علينا أن نتفق على ما سنقوله للشرطة في حال استدعينا للإدلاء بشهادتنا...

وهنا تدخّلت عفاف بعد أن أفاقت من سرحانها:

– وإلام سيجدي ذلك...؟ نحن لا نعرف ما الّذي سيصرّح به كريم نفسه عند الضّابط... كان علينا أن نتفق معه هو أوّلا...

فقالت ماجدة:

– هذا صحيح... علينا أن ننتظره ونعرف منه ما يجب قوله وفعله...

فصاحت سندة بحزم:

– افعلوا أنتم ما شئتم... أما أنا فسأبقى على رأيي الأول... ولسنا بحاجة... لا أنا... ولا كريم... إلى مساعدة أي كان...

في ذلك الحين ابتعد إسكندر عن مزودته المشبوهة ودنا من سندة وقال مستاء:

– أنا أردت أن أساعد كريم... لكنّك رأيت كيف كان تصرفه معي... كنت أظنّه صديقي...

فأجابته مطيّبة خاطره:

– آه إسكندر... كيف تشك في عكس ذلك...؟ نحن أصدقاء وسنظل هكذا دائما... كان موقفه صعبا... وعليك أن تكون متفهما...

– ولكنّك تعرفينني... أنا ملك المفهومية... أما هو...

فقال سامي:

– هو ابن أستاذنا وعلينا أن نثبت لهما أننا راشدون وأن بإمكاننا التعويل علينا... كريم ابن ناس...

فقال إسكندر مستنكرا:

– هو ابن ناس... هو ابن أستاذ عبد الله... هو ابن طبيبة... وأنا...؟ من

أكون...؟ ابن من...؟

انتبهت عفاف إلى النبرة الحزينة في صوت صديقها كما لو كان يتيما يرثي أبواه، فاقتربت منه وأمسكته من يده وربّتت عليه وأخذته بعيدا عن الشّلّة حتى أصبحا خارج المطعم وقالت له:

– دعك من كل هذا... أنت أيضا ابن ناس... ومن عائلة مرموقة... عليك أن تنسى ما حدث...

– كيف أنسى وقد دمّر وجهي وضلوعي بالكامل... العائلة المرموقة التي تتحدّثين عنها ستستجوبني اللّيلة... وستستنطقني عما حلّ بي... أتظنين أنني مقطوع وبدون أهل...؟ أنا لي والدان يعملان ويتعبان من أجلي... من أجل ألا ينقصني شيء ومن أجل راحتي... يسافران... ويجوبان العالم... ويبيعان... ويشتريان... كي يؤمنا لي كل ما يلزمني... كي يؤمنا مستقبلي... كي أكون محترما مثلكم جميعا... بضاعة من الصين... بضاعة من الهند... بضاعة من جنوب إفريقيا من مصر والجزائر... وحتى من إيران... كي ينتهي بي الأمر في المهانة...

كان كلامه مؤثرا ونابعا من إحساس عميق بنقص حاول أن يواريه وراء مديحه لمن كانا يؤثثان ذلك النقص الفادح في حياته، لكن الملل بدأ يغزو عفاف فقالت وهي تجاريه دون نهره عن الحديث عن أبويه:

– وما نوع التجارة التي يمتهنها والداك...؟ أي نوع من السلع يجلبان...؟

فقال بفخر:

– ما يلزمنا... وما ينقصنا في بلادنا... أقمشة... ملابس... أحذية... مساحيق... جوز الهند... موز... كل ما من شأنه أن يغزو الأسواق والمحلات التجارية والأرصفة... لكن... لماذا تسألين عن ذلك...؟

– أريد أن أخوض عالم التجارة... فهل لك أن تتوسط لي عند والديك علهما

يساعداني...؟

– آه عزيزتي... هذا غير ممكن... فهما يشتغلان في التوريد... ولا يزودان إلا تجار الجملة... بكميات كبيرة ومبالغ باهضة جدا... لن تناسبك المرّة...

استاءت عفاف لكن طموحها دفعها للسؤال مرة أخرى:

– وماذا عن صديقتك...؟ تلك التي كنت معها منذ حين...؟ تبدو علاقتك بها متينة...؟ كما يبدو أنها هي أيضا في عالم التجارة...؟ هلا قدّمتني إليها وأقنعتها بأن تزودني ببعض ما لديها...؟ لا أظنّها تمانع...

تفاجأ إسكندر وانتابه الضحك لما رأى من سذاجة على وجه عفاف، فقال:

– إياك وتلك العاهرة... انسي الأمر... إياك والاقتراب من تلك العاهرة...

– لماذا تقول إنها عاهرة...؟ أتظنها ماكرة في معاملاتها...؟ لا عليك صديقي... تعرف أن لي شعبية كبيرة... لذلك لن أجد صعوبة في ترويج ما لديها... وستتمكن هي وأنا من تحقيق أرباح قياسية.

– قلت انسي الأمر ولا تفكري في ذلك مرة ثانية... لن تنفعك تلك العاهرة في شيء... بل بالعكس... قد تدمّر حياتك...

وانصرف وقد تملكه غضب لم يسبق لأحد أن رآه عليه. كان غضبا متعدد الأسباب. أوّلها أنه لم يغتنم الفرصة كاملة كي يتباهى أكثر بمحاسن والديه أمام صديقته، فهو في جل الأوقات صامت لا يهش ولا ينش... فلا يهتم أحد لمشاكله... وثانيهما أنه كان ينافق نفسه قبل أن ينافق الفتاة، فلم يقل ما قاله إلا لأنه كان يحلم أن يكون له والدين بتلك الأوصاف التي ادعاها مغالطة. أما السبب الثالث فبشأن عفاف وإصرارها أن تخوض تجربة مع مزوّدته بالمخدرات، وقد حزّ في قلبه عدم قدرته مصارحة صديقته بشأن ما تجلبه له تلك الغريبة من محضور لا يرى منه منفذا إلى الحرّية التي ينعم بها الآخرون. لكن السبب الأكبر لغضبه كان

مخالفا تماما لسابقيه، إذ أن الوقت الّذي قضاه بالمطعم في الحديث مع ذاك وتلك، والتركيز الّذي بذله من أجل أن يلمّع صورة أبويه انتهيا بأن أخّراه عن موعد سيجارته المفخخة حتى احتل صداع حادّ رأسه وكاد يفجّرها. وجرى الشّاب غير منصت لنداء زميلته، إلى أن كان في الشارع، وذهب خلف المطعم أين اعتاد أن يتقابل مع أحد العاملين به فوجده بانتظاره ليدخله من الباب الخلفي إلى مرحاض العملة أين فعل ما لا يستطيع منع نفسه عنه، بينما كان العامل يبخ معطرا أمام المرحاض كي يذهب رائحة السطلة مقابل بعض الدنانير التي سيقتني بدوره بها ما يلزمه من الحشيش.

***

في مدخل قسم الشّرطة كان عون الأمن يتكئ على فردة الباب الحديدي الضخم يراقب الوافدين ويستفسر سبب مجيئهم قبل أن يسمح لهم بالدّخول. كان شابا في مقتبل العمر، أي أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وفي بداية مشواره المهني، أي أنه لم يدمج صلب سلك الشّرطة سوى منذ سنة ونيف، تاريخ ابتعاده عن مجموعة من شباب حيّه الشعبي الّذين اختاروا ترك البلاد والأمهات جريا وراء الهجرة غير الشرعية... كان طويل القامة، جميل الهيئة في زيه الرسميّ الداكن وبتسريحة شعر حديثة ومثبتة بالجل... وقد علق على كتفه مدفعا رشاشا ثقيلا وكان بصدد مخاطبة سيدة عبر الهاتف، تعرف عليها منذ فترة حين كان يشتغل بدورية مرور[١٠]. تململ وتكسل وراح يجلس على طاولة وضعت لتسدّ مدخل القسم وأدار ظهره إلى الشارع أين وقف منذ وقت كريم بين والديه لا يجرؤون على مقاطعته خشية أن تكون مكالمته في علاقة بشأن قومي رفيع. ثم التفت ليتأكّد ألا أحدا من أعرافه قادم إليه فرأى ثالوث الأستاذ يقفون دون حراك أو كلام فقال بحزم:

١٠ انظر تقرير ص ٢٤٤

– رجاء عدم الوقوف هناك... انصرفوا إن لم يكن لديكم شأن بالدّاخل...

فقال كريم بحماس:

– سندخل... لكننا ننتظر أحدا...

فأجاب العون:

– إذن فلتنتظروه بعيدا عن هنا... لا يسمح لأحد أن يقف أمام القسم بهذا الشّكل... هيا... ابتعدوا...

لكنه تفاجأ بصوت حادّ يأتي من الدّاخل باتجاه عائلة الطّبيبة ويقول:

– أستاذ عبدالله...؟ مرحبا... تفضلوا بالدّخول...

أنزل العون رأسه باتجاه هاتفه ليطفئه ثم استقام يدفع بالطّاولة ويفتح الطريق أمام الزوار وحمد الله في تلك الآونة أنه لم يتطاول عليهم ولم يكن معهم أكثر فضاضة، فتقدم دكتور الآداب يمشي الهويدا وصافح الأمني وقال له:

– أنا من طرف...

فقاطعه:

– أجل... أجل... أنا على علم بالأمر... لا تقلق أستاذ... سيكون كل شيء على ما يرام.

وتقدم الرّجلان في أروقة القسم متبوعان بكريم ووالدته الّذين اختلفت تعابير وجهيهما اختلافا واضحا وجليّا بين الشّاب المنبهر بالتبجيل والاحترام، والطّبيبة المتوترة حيال الموضوع برمّته بدءا بمريم وحالتها الصحية ووصولا إلى ما ستضفي إليه مقابلتهم مع المحقّق سالم بعد أن عمد زوجها إلى توصية من سيدفع بالمسائل إلى منحى بان من المؤكد أنه سيهضم حق الفتاة، مقابل ما تخشى اكتشافه من عوالم خفية في كينونة وشخصية ابنها والتي لن تكون فخورة بمعرفتها. كما زاد انقباضها بسبب المكان، ومع أنها كانت تصعد السلالم إلا أنه

كان يخيّل إليها أنها تنزل إلى دهليز... فالجدران قديمة الطلاء، والشّبابيك مغلقة ومتربسة بحديد قضبانه سميكة ومغطاة بطبقة من غبار مسودّ، والمصابيح صفراء باهتة بدت وكأنها اختطفت النور من فضاء البناء، أما الأرضية فمتّسخة وجليزها مهترئ وكأن دبابات قد علّمتها، بينما الأبواب الخشبية والتي اختفت مقابضها لتترك مكانها لترابيس صلبة كانت توحي بأنها كانت ربّما زرقاء اللون أو صفراء أو ربّما لا هذا ولا ذاك. لحسن الحظ أن الرّحلة لم تطل حتى وصل الجميع إلى الطابق الثاني فتوقّفوا أمام مكتب ضيّق تعالت منه أصوات قوية. توارت نعيمة وراء كريم الّذي وقف بدوره وراء والده الّذي استأذنه مرافقه بالانتظار حتى يُسمح له بإدخالهم. طرق الشّرطي الباب ودخل فإذا بسالم مع ثلّة من الأمنيين بانت الشّدة على وجوههم وكانوا يقفون أمامه ويدخّنون بكل جوارحهم، ولكنهم سكتوا حين فُتح الباب. أشار الضّابط إلى العون بإدخال الزوّار، ووقف بجانب زملائه وانصرف مع اثنين منهما تاركين المكان للأستاذ وعائلته و لرابعهم، رجل ضخم، أسمر البشرة، عريض الأكتاف وعلى درجة عالية من الشياكة ببدلته الزرقاء الداكنة وقميصه الأبيض وربطة عنق حريرية حمراء.

خرج الرجال دون حديث. لكن نعيمة استغربت أن ينصرف سالم من ضمنهم، فسألته والحيرة على وجهها:

– سيّد سالم...؟ ماذا حدث...؟

لم يتوقّف المحقّق ومن دون أن يسوّي ربطة عنقه ومن دون أن يمسح شاربه بأصابعه قال:

– مرحبا دكتورة... كل شيء على ما يرام... أنتم في عهدة زميلي... سيكون كل شيء على أحسن وجه...

ثم أسرع للّحاق بزميليه مبتعدا عمّا سيدور في مكتبه وفي غيابه.

في غرفة المستشفى كانت مريم ممدّدة على سريرها وقد التفّ حولها ما يناهز عشرة أنفار من بينهم والدتها رشيدة ووالدها رجب ملتصقا إلى رجل أتى به من بين أصحابه بالمقهى، وأخوها تحت وصاية خالتها، وجارتان من الحي وزميلتان لها من معمل الكابل الّذي تشتغل به، بحضور موظف الاستقبال بقسم الطوارئ والممرّضة عواطف.

كانت المسكينة نائمة تحت تأثير الأدوية والمحاليل التي أخذتها منذ مجيئها المستشفى حتى تسكن آلامها فلا تعي ما يجري وما يدور حولها من حوار لم تكن زميلتاها قد حظيتا بمجال للمشاركة فيه. فها هي الجارة الأولى تقول لرشيدة والدة المريضة:

– ماذا لو سقيتها بعض عصير الزنجبيل. إنه منشّط جيّد... زوجي يستعمله بانتظام..

تكتفي النسوة بتحريك رؤوسهن تأييدا لصاحبتهن دون الدّخول في نقاش علمي لن يستعصي عليهن خوضه بما لديهن من مخزون متوارث عبر الأجيال وآخر ملتقط عبر الإشهارات التلفزيونية لخلطات التحفيز والتقوية الجنسية التي عهدن رؤيتها تتخلل مسلسلاتهن المحبذة بوتيرة مهرسلة، حتى أن من يشاهد تلك القنوات يخيل له أن مسؤوليها قد دسّوا في بيوت الخلق جواسيس تخبّر عن مدى أهمية وفداحة وانتشار العجز الجنسي ومشاكله العائلية والاجتماعية المتفاقمة إلى أبعد الحدود، والتي وجب على إثرها دفع الرجال وأولهم الشّباب الّذي لم يدخل عالم الجنس بعد، وعلى وجه السرعة والاستعجال، إلى اقتناء تلك المواد كي تزيد في قدراتهم الجنسية وقوتهم في الانتصاب وطول قضيبهم كي تحصل المنفعة العامة وتتحسن أحوالهم المادية والمالية والاقتصادية والوجدانية وينتشر السلام في العالم

ويتقلص تلوث المحيطات والانحباس الحراري وتعمّ ثقافة العمل والتسامح بين أبناء آدم علّهم يفلحون.

ثم أضافت الخالة بدورها:

– لا بدّ لها من لبخة قشر رمان فوق جروحها... تخلطينها ببعض البصل والكركم... ولا تنسي الثوم... وعليك أيضا بأوراق التوت... إنها مجربة ونتيجتها مضمونة مائة بالمائة... سيسرّع ذلك في التئام جروحها بإذن الله... ولن يترك لها آثارا على وجهها... وإلا... فلا حل لها سوى جراحة التجميل... المسكينة... سيكلّفها ذلك كل مدخراتها...

وكان للجارة الثانية نصيب في المشاركة في تطبيب مريم فقالت لرشيدة:

– عليك أن تسقيها شايا بمنقوع المريمية وهلام الصبار... صحيح أن شكله مقزز، لكنه نافع بإذن الله... فهو نبات مقدّس ومذكور في الشريعة... أقول ذلك لأن بقاءها في المستشفى سيتسبّب لها في إمساك سيجعل برازها جافا كبعر الغنم وسينجرّ عنه بواسير سيصعب علاجها فيما بعد.

لم تكن معرفة السيدات بتلك الوصفات محض الصدفة أو المباهاة، إنما نتيجة ما عاشته كل واحدة منهن مرة أو مرتين على الأقل مع آبائهن وأمهاتهن وآباء أزواجهن وعماتهم وأزواج خالاتهن وغيرهم حين أصيبوا بأمراض ألزمتهم الفراش ونالت منهم حد الموت أحيانا.

وبينما كانت الإناث ملتفّات ومتجنّدات كأعضاء طاقم طبي يحاولن جدلا علاج الحالة ومضاعفاتها، كان الذكور منكبّين في تحليل ما هو أهم وأعسر وأضنى تحت أنظار الممرضة عواطف التي لم تنقطع عن مراقبة هؤلاء المتشنجين الّذين ما انفكوا يحاولون التدخين داخل غرفة المرضى. وضع الرّجل الّذي أتى به رجب من قعر المقهى يده على كتف هذا الأخير ثم أدخل يده الأخرى إلى جيبه وأخرج

علبة سجائر وأخرج منها ثلاثة مدّ بواحدة منهما إلى موظف الاستقبال وأخرى إلى صديقه الّذي مضى يمسح بها على شفتيه ويتشمم رائحتها، ورمى بالثالثة في مبسمه المزرق متأهبا لإشعالها وتدخينها وقال:

– إياك والتهاون مع من كان سببا في ذلك... لو أنني مكانك لبحثت عن المذنب بنفسي وجلبته مكبّلا إلى مقهى الحي ليلقّنه الرجال درسا يكتب فيما بعد في كتب التاريخ.

هز رجب رأسه مستحسنا الفكرة ولكنه كان مشغول البال بما سيكلفه إيواء مريم بالمستشفى وعلاجها وأدويتها، وكذلك واجب حسن ضيافة كل من سيهبّ إلى زيارتها في البيت ليطمئن على حالها من بين زميلاتها في الشغل وجاراتها وعماتها وخالاتها وأعمام وأخوال وأبنائهم وصاحبات ومعارف شتى، رغم علمه بأنهم سيجلبون معهم كل ما وسعت أيديهم من أموال ومرطبات وغلال وخاصّة كراتين الحليب والماء وعلب الياغرت والبسكويت. ومضى يقوم بعمليات حسابية استباقية من قبيل : لو أن كل زائر يجلب معه على الأقل ١٢ علبة ياغرت، ولو أنه يستقبل في كل يوم بين ٤ و٥ زوار فإن كمية الياغرت في غضون أسبوع ستكون كبيرة للغاية ولن تتسع لها ثلاجته الصّغيرة المعطوبة، فبابها لم يعد يغلق تماما حتى أصبحت لا تجيد حبس البرودة بداخلها مما تسبب في تلف بعض الأغذية وحدوث مس كهربائي بمقبضها يصعق كل من يلمسه، وغدت محاولات إصلاحها يائسة بائسة ومفلسة بما أنها أتت على مداخيل الرّجل الضئيلة... فما كان منه إلا أن ثبّت بها ترباسا خارجيا، صحيح أفسد منظرها، إلا أنه يفي بالغرض الّذي جعل من أجله إلى أن يحنّ الرحمان بما يسمح له باستبدال تلك الثلاجة برمّتها بواحدة جديدة. لكنه ابتسم للحظة استرجع فيها ذكرى يوم جلب تلك الثلاجة إلى بيته هدية بمناسبة ولادة مريم، حينها كان يشتغل بإيطاليا وكانت حالته المادية تحت

الستر. المهم أن كثرة الياغرت في ذهنه لخبطت تفكيره ولكنه اهتدى إلى أنه قد يضطر إلى وضع ما يفوت سعة البراد خارجه، لكن باله لن يهنأ لخشيته أن تهلك إن لم يسرع مع أفراد أسرته إلى تناولها قبل أن يفوت تاريخ صلاحيتها وقبل أن يضطر لاقتسامها مع آخرين.

وفي لحظة غفل فيها الجميع عما هم فيه، وضع صديق رجب سيجارته بين شفتيه فإذا بعواطف تقفز إليه وتقول دون مقدمات أو تمهيد:

– التدخين ممنوع داخل المستشفى... انصرف من هنا في الحال وإلا ناديت رجال الأمن...

لكن الرّجل وعوض أن ينصاع إلى الأوامر والتراتيب المتعارف عليها والمتعامل بها، هاج وماج وثار وتمكن منه الغضب فصرخ في وجه الممرّضة بحدة وكأنه ينوي خنقها وإزهاق روحها كما لو كانت هي المسؤولة عما حلّ بجميع مرضى المستشفى عن بكرة أبيهم وأولاهم مريم التي خيّل لكل الحاضرين أنه هو والدها الحقيقي والبيولوجي أمام رجب الصامت والشّارد في جمع وطرح الياغرت والموز وأكياس البرتقال وعلب المرطبات والبسكويت... وقال بأعلى صوته وكأنه يخاطب عشرات الممرّضين والمسؤولين والإداريين:

– كيف تجرؤون وقلوبنا تبكي دما على دمنا ولحمنا...؟ كيف تجرؤون ونار الفتنة مشتعلة في أكبادنا...؟ هل ماتت قلوبكم... هل تحوّل الدّم الّذي يجري داخل عروقكم إلى مشروبات غازية...؟ هل وضعتكم الدولة في وظائفكم هذه لتبقوا مكتوفي الأيدي... لا تهشّون ولا تنشّون... بينما تهان ابنتنا ويستباح عرضها...؟ تتبجّحون ببدلكم البيضاء... ووجوهكم المورّدة... وأياديكم الرّطبة... وحواجبكم المنقّاة... والعمل في الظل بعيدا عن أشعة الشمس وأهوال الفيضانات... و بجراياتكم... ونقاباتكم التي لا تنفك تدافع عن مصالحكم...

بالاجتماعات والمظاهرات وإضرابات الجوع... والهيئات الإدارية... هل تستطيعون أن تشرحوا لي ما معنى هيئة إدارية...؟ ونحن إذن...؟ من الّذي سيحمينا من الهمج والمنحرفين...؟ من الّذي سيثأر لنا...؟ من الّذي سيحقّق أهدافنا...؟ الّذي صار مع فلذة كبدي تنفطر له قلوب من صوان... وأنتم تحدّثوننا عن السجائر... إن هول ما صار ليدفع بأعقل العقلاء أن يشعل بدل السيجارة ألفا أو... لم لا... النار في جسده وكل من حوله... علّ ثورة أخرى تعصف بمن أفسد هذا البلد وجعله أضحوكة بين الأمم...

ومازال الرّجل في هيجانه وتوعده وتهديداته حتى التف به جمع من الزوار تلطخت أيديهم وأفواههم وشواربهم بشتى الأكلات التي كانوا بالأساس قد جلبوها لأقاربهم المرضى ومنعها عنهم الأطباء فشاء الحظ ألا تضيع هباء. وواصل رجل المقهى عربدته وتطاوله على الممرّضين والعاملين بالقسم الّذين لم يعيروه اهتماما، بل كانت أعينهم توحي أنهم ينظرون ببرود ولامبالاة إلى طفل مزعج وجب لوالديه أن يتدخّلا لتهدئته. وفي غضون دقيقة أقبل شاب طويل القامة عريض الأكتاف مفتول العضلات بلباس أزرق داكن، شعر رأسه محلوق وعلى رقبته وشم جميل وفي أذنيه سماعات موصولة إلى هاتف جوال شدّ مع هراوة سوداء إلى حزامه، وقد تدلّت على صدره العريض سلسلة شدّت بآخرها شارة ذهبية أو فضية أو ربّما كلاهما في آن واحد، تشبه في شكلها شعار بلدنا المفدى وما اعتدنا رؤيته مشبكا ببزز رجال الشّرطة، حتى أن من يلمحها يدرك ويتأكّد ويسلّم بأن هؤلاء ليسوا سوى أعوان شرطة لا غبار عليهم ولا تشكيك في هويّتهم، ممن يحميهم قانون زجر الاعتداء عليهم أو الرد على الاعتداء منهم... قانون يسمح بمعاقبة من يقوم بتعنيفهم أو ردّ العنف منهم، ولم لا من يجرؤ على مخاطبتهم أو ردّ

السبّ إليهم... إنه رجل الأمن[11]... الأصح: رجل الحراسة...

اقترب متعهد الأمن من الرّجل المعربد فإذا به يصمت وكأن سكينا اخترق رقبته وقطع حباله الصوتية فجأة. أمسك الشّاب بصاحب رجب من كتفه وحمله عن الأرض وجرى به وكأنه يحمل كيس قمامة به ثقب خشي أن تنزل منها قطرات عفن على أرضية المشفى، وبعد بضع خطوات عريضة كان بالخارج أين كان زميلان له بنفس مواصفاته الجسمانية والنفسية في انتظاره وعلى وجهيهما ابتسامة ركيكة لاستلام ذلك المشوّش والاحتفاء به.

تململت مريم في سريرها حين تعالت الأصوات من حولها تحفزها على الامتناع عن السكينة ومعاودة الأنين والتوجع بعد راحة قصيرة غاصت خلالها في نوم ثقيل وخانق بكوابيس ذكرتها ما أقدم عليه ذلك الأزعر معها قبل سويعات دون حياء أو رحمة، بل إنه كان في منتهى الوقاحة وهو يسدد لها اللكمات ويهمس لها في الآن نفسه: كريم عبدالله يبلغك السلام... لم يكن ذهولها في تلك اللحظة أمام ما تعرضت له حرمة جسدها المنتهك وأنوثتها الضعيفة وكرامتها المستباحة تحت ضربات معنّفها ليضاهي سخطها أمام عدم قدرتها أن تتجلى أن ما يحدث لها ليس إلا إرضاء لغرور ونزوة مدلّل لا يفقه معنى حرمة الجسد ودلال الأنوثة والكرامة الإنسانية.

كانت بين اللكمة والأخرى تحاول التقاط نفس علّ عقلها المغتصب يهديها إلى أشلاء فكرة من شأنها أن تسمح لها بإيجاد أطراف منطق تستفتي به لذلك الأخرق وتحلّل له ما كان يفعله بها على يدي ذلك المجرم. ربّما كان من أولئك الّذين ندر وجودهم عبر تاريخ بني آدم من اليتامى الّذين عانوا الأمرين فكان لهم من الكره والحقد لبني جنسهم ما يجعلهم يكيدون لهم ما يشفي غرائزهم المريضة... أو ربّما

١١ انظر تقرير ص ٢٤٦

كان وحيد أبويه... لم يعتد أن يكون له في الدنيا شريك ينافس أو يعارض... أو ربّما كان جاهلا... أو مطرودا من عمله أو أسرته أو كلّيته أو ملهى ليليا أو بلدا أجنبيا أو حيا شعبيا... أو ربّما من وطنه... ولكنها تعرف هؤلاء في محيطها ولم تعهد منهم يوما مثل هكذا تصرفا... لم يلحق بها أحدهم يوما مثل هكذا أذى... لم يغتصب أحدهم يوما ما شحت به الدنيا عليها... لم يحتقرها أحد أكثر مما يحتقر في ذاته. فتحت مريم عينها علها تتعرف على من أقلق راحتها ولكنها لم تفلح. إلا أن أخاها الصغير نطّ إليها يحركها ويخضها كي تستفيق وهو يصرخ وينادي:

– أفاقت مريم... أختي أفاقت... أمي... أبي...

كاد الفتى يجلب انتباه مرافقيه لوهلة لكن اهتمامهم بما حلّ بصاحبهم من طرف أعوان الحراسة كان قد حبس أنفاسهم وكبّلها وجعلهم يجمون دون حراك وكأنهم يريدون رؤية المزيد من الضرب والتأديب والإهانة. ثم ها هو رجب يدير رأسه عن رفيقه ويذهب إلى فراش ابنته يمسك بيدها وقد اغرورقت عيناه دموعا ساخنة ويقول بصوت مرتعش وكأنه هو من أذنب بحقها:

– سامحيني يا بنيّتي... أرجوك أن تسامحيني...

كان يطلب منها الصفح والسموحة لعجزه أن يكون بطلها الّذي طالما صوّرته له نفسه. البطل الّذي حلف بدل المرّة ألفا أن يزعزع الجبال ويقهر الرجال إذا ما لمس أحد شعرة من رأسها. البطل الّذي وعد أغلظ الأيمان ألا يغفر لمن يمس من كرامة أميرته الصّغيرة. فمريم ليست أقل من أميرة كيان وحياة رجب. تلك التي جعلت منه أبا يعمل طول النهار ويكد ويشقى ليجني ما بوسعه لإسعادها وإدخال البسمة على محياها الجميل. تلك التي وعد ألا يخذلها يوما وأن يجعل منها أكثر النّاس سعادة ونجاحا، أن يلبسها أجمل الثياب وأغلاها، أن يدججها بالحلي والمجوهرات، أن يدخلها أفضل المدارس وأرقاها، أن يجوب بها العالم متباهيا

بحسنها ولطفها وجمال بسمتها، أن يتسلق أعلى القمم ويصرخ في آذان العالم بأسره أن الحياة وهبته من يرى فيها أسمى علامات بهاء الإنسانية قاطبة، وأنه لن يقبل أن ينازعه كائن في علوّ ما يكنّه من لهفة على قرّة عينه وحبّ لها، وأنه الوحيد من دون كل الخلق الّذي ظفر بها... مريم دون سواها... وأنه يسبح في بحر أحلى غرور لأنه حظي دون سواه بأن يكون والدها. وعد أن يقف إلى جانبها كلّفه ذلك ما قد يكلّفه كي تنهي دراستها وتحصد الشهادات والعمل الّذي يليق بها... ليس أقل من رئيسة أو ملكة أو لم لا، إمبراطورة العالم وبشره وكل كائناته.

طلب رجب العفو بشدّة من ابنته، لأنه اعتاد بمرور الوقت أن يخفّض من سقف التزامه تجاهها بتلك الوعود[١٢]، والاكتفاء بما كانت تكتفي هي ببلوغه دون لومها أو تحفيزها كي تصبو إلى ما هو أفضل، معزّيا نفسه بأنه لم يبخل عليها بالنصح والتوجيه و تطييب خاطرها عندما تعثّرت في دراستها. بل إنه شجعها على العمل باكرا حتى لا يصيبها الإحباط ببقائها في البيت من دون عمل. طلب العفو من تلك التي بسط لها يده مرارا وتكرار خاوية فارغة ذليلة وفي نفس الوقت متعالية طماعة لتأخذ من عرقها عندما كان يضيق به الحال لا لشيء وإنما ويا لسخرية الأقدار، لشراء سجائره التي اعتاد ألا يتنازل عنها. طلب العفو من أميرته التي نزلت من درجة ملكة الإنسانية الرفيعة إلى درجة العاملات الكادحات ممن يغادرن بيوتهن قبل نور الشروق ولا يعدن إليها إلا بعد الغروب، ممن لا يعرفن الدواء والأطباء رغم ما يجنين من أمراض، ولا يعرفن العدل والقضاة رغم ما يخضعن إليه من ظلم واستغلال، ممن بهتت وجوههن واحدودبت ظهورهن ولجمت أفواههن رغم صغر سنهن حتى ندر كلامهن... إذ تبخّرت أحلامهن.

طلب العفو من التي أحبّته أكثر مما أحبّها، من التي لم يسمع لها يوما رجاء ولم

١٢ انظر تقرير ص ٢٤٧

يعرف لها يوما حلما، من التي لا تشتكي كي لا تقوض كبرياءه ولا تبكي كي لا تهدم برج أبوّته الشاهق... من التي عطفت عليه دون حساب وأعطته دون مقابل.

كاد ألمه في تلك اللحظة أن يزهق روحه لولا شوقه إلى رؤية ابنته معافاة من جديد منعه من أن يلفظ أنفاسه ويسرق منها دور الضحيّة، والأهم من ذلك أن ما زاد من همّته في تلك اللحظة وفرج أساريره كان صوتها الضعيف الّذي خرج بصعوبة من فاهها المنتفخ كي تخفف عنه وتطيب خاطره مطمئنة إياه أنها ستكون بخير لا محالة، وأنها ستعود معه إلى البيت، وأنها لا تحتمل رؤية الدموع في عيني أطيب أب في الكون، وأضافت:

– هل توصّلت الشّرطة إلى الجاني...؟ لست أقصد من عنّفني... بل من دبّر وخطّط لذلك... لن أسامحه يا أبي... يجب أن يعاقب... يجب أن يعاقب...

حاول رجب تهدئة طفلته ولوعتها وقال لها أن ثقته كبيرة من بعد الله في المحقّق سالم الّذي وعده أن يبذل قصارى جهده كي يقبض في أقرب الآجال على ذلك المدعوّ كريم عبدالله حتى لا يعيد الكرّة مع غيرها وحتى ينال جزاء فعلته النكراء هو ومن تواطأ معه في ذلك. كان أمل رجب أن يكون الشّرطي أقدر منه وأجدى في الوفاء بما وعد، وأن يقوم بذلك في أقرب وقت، ولم يخطر بباله أن الأمور قد تأخذ منحى مغايرا لما يجب أن تكون عليه بسبب ما قام به والد كريم من توصيات وتدخّلات.

ثم التفّ زوّار مريم بها يسألونها عن شكل أوجاعها ومدى معاناتها وطاقة تحمّلها، والمسكينة لا تقوى على مجاراة ذلك السيل الجارف من الأسئلة المصحوبة بالتقبيل والتربيت والطبطبة الّذين زادوا مما تتكبده ومن غثيانها أمام تلك الأطباق المقليّة والدّسمة والتي وإن كانت قد أسالت لعاب من جلبها فإنها بدت لمريم مقززة وأعطتها رغبة جامحة في التقيؤ وترك المكان بمن فيه، لولا تدخّل والدها

بلطف قبل تدخّل الممرّضة بعنف لإبعاد وإخراج وترحيل كل من ليس له سرير في ذلك القسم إذ انتهى وقت الزيارة وآن الأوان كي يهنأ المرضى ومن يشرف عليهم بالراحة اللازمة.

اتجه الخلق نحو الخروج متزاحمين صاخبين غير راغبين في ترك أقاربهم إلا بعد أن صارحوهم بما هفت عليه أنفسهم من شهوات لأطباق ومأكولات سيستميتون في إعدادها وجلبها لهم في الغد كي تمنحهم الطاقة والقوة اللازمة لشفائهم حتى يغادروا ذلك المشفى اللعين في أقرب وقت. وها هي عواطف ببطنها المكتظ والمتدلي ونظاراتها السميكة وشعرها المذهب الّذي أسدلته فوق حاجبيها الأسودين، تحاول جاهدة الاقتراب من مريم دون جدوى فإذا بها تمسك بيد رشيدة وتنفرد بها تسألها عن ملابسات الحادثة التي رمت بابنتها في تلك الحالة ، فأخبرتها أن شخصا يدعى كريم عبد الله قد سلّط منحرفا قام بتعنيفها عند الفجر عندما كانت في طريقها إلى عملها.

لم تبذل عواطف جهدا كبيرا في مواراة ابتسامة صفراء ماكرة إن دلّت على شيء فليس أكثر من تشفّيها في ابن نعيمة لإدراكها أن المعني كريم ليس سوى ابن الدّكتورة الّذي سبق واصطحبته معها إلى المستشفى مرارا وتكرارا منذ كان طفلا صغيرا. وبالرغم من العشرين سنة التي رافقت خلالها الممرّضة رئيستها المباشرة في مختلف الأقسام التي اشتغلتا بها، إلا أن العلاقة التي كانت ولاتزال بين السيّدتين لم تعرف سوى التوتّر والضغينة. فعواطف لم تكن سهلة المراس، بل متمرّدة على نظام العمل ومعروفة بتقاعسها واستهتارها وعدم تركيزها في ما كان عليها أن تتقنه ما عدا النميمة والتطاول على الأوامر والسّخرية من المرضى والأدهى من ذلك سرقة معدات الأقسام من ضمائد وحقن وقفازات وأدوية، منها ما كان لاستعمالاتها الخاصّة والعائلية عند الحاجة ومنها ما كان للبيع والمتاجرة

والمساومة واستغلال النفوذ. لم تكن تقدم بمفردها على مثل هذه السرقات، بل كانت عادة حميدة ينتهجها عدد كبير ممن يعمل في المصحات العمومية من أطباء وإطار شبه طبي، لكن نعيمة وقلائل آخرون كانوا لا يقبَلون ولا يقبِلون على مثل هاته التّصرّفات التي أوقعت بالكثيرين في مشاكل جما انتهت بتصدع العلاقات بين الموظفين والإداريين، و في أقصى الحالات إلى التّحقيق وهيجان النقابات وتسليط العقوبات التي لم تكن في الواقع تتعدى ما هو أخطر من الإبعاد من القسم الّذي ارتكب فيه المذنب فعلته إلى قسم آخر يطهّر فيه كرامته لوقت حتى يعاود الكرة بمعية من هم أكثر جرأة وخبثا وتسترا فيما يقترفون. الجدير بالذكر أن قلب عواطف قد انشرح تشفيّا عندما علمت أن ابن الدّكتورة المثالية والمنزهة عن كل خطيئة أو كبيرة سيقسم أنفة أمه ويجيب عليائها الأرض وسينغص عليها بمثل ما فعلت هي معها. بل إنها ستستمتع اللّيلة بنمّها والتندّر عليها وعلى ما قد تؤول إليه الأمور بشأن مصيرها المهني، إذ تتوقع أن يتم فصل نعيمة المتعجرفة وإبعادها محمّلة بمبادئها المستقيمة التي ما فتئت تتباهى بها وتستعرضها على الملأ بسبب أو من دونه، وأن تكلّل بفضيحة العمر ونهاية مسار لم تكن تشوبه شائبة إلى اليوم، وتترك الطريق منفرجا كي تبقى عواطف ومن شابهها في حرية تامة، يسرقون ما وجب سرقته دون رقيب أو حسيب شأنهم في ذلك شأن أولئك المجاهدين في سبيل تعديل كفة الشر ووهنه أمام الخير وجبروته.

***

أشارت ساعة الحائط في مكتب تأشير العاملين بالمستشفى إلى السابعة مساء إلا عشر دقائق، ولم يكن بالمكان أحد غير حسيبة الممرّضة المناوبة لعواطف والتي اعتادت أن تكون أولى الملتحقين بمكان عملها كي تنفرد بغرفة تغيير ملابس العملة قبل حلول زميلها أنور الّذي ما انفك يغازلها ويتودّد إليها ولا يفوّت فرصة

في اقتحام تلك الغرفة عليها عندما تكون قد انعزلت فيها لأخذ قسط من الراحة، غايته من ذلك استراق النّظر لأدنى سنتيمتر قد يبرز من لحمها من تحت زي عملها وسترتها البيضاء المشدودة في أعلاها بمشبك معدني ورقعة من الضميدة اللاصقة لستر ما خافت أن يبان من صدرها إذا ما اضطرت للانحناء أمامه كلما أوقع قلما أو حقنة وطلب منها جمعها له بتعلة أنه يشكو آلاما في ظهره وأن جل الأطباء قد منعوا عنه الانحناء كي لا تصيبه وعكة حادة ستضطره لزوم الفراش وقت الدوام وستلزمها أن تنوبه في مهام عمله من جهة بل والسهر على راحته من جهة أخرى، مما يستوجب المسك بيده ولم لا بجسده كله كي يتكئ عليها مستغلا الفرصة في كل مرة كي يعانقها ويلامسها بعفوية... غير بريئة.

ألفت حسيبة أن تكون في عملها قبل بقية الزّملاء موهمة إياهم وبالأخص أنور أنها لا تستعمل حجرة الملابس لأنها تغادر منزلها كل يوم على أهبة تامة من الاستعداد، وأنها تلبس زيها الرسميّ في بيتها كي لا تضطر إلى وضع ملابس أخرى كانت قد خصّصتها إلى ما هو أهمّ كالفسحات ونزهات تستحق ما تستحق من الشياكة والأناقة، وتحسب المستشفى وروّادها في غنى عنهما[١٣].

تقدمت في رواق القسم الّذي تشتغل به تبحث عن زميلتها فوجدتها صحبة الدّكتور لطفي يقفان بجانب سرير مريم التي لم تكن عليه، وكانا يتهامسان وعلى وجهيهما ملامح التعجب والاستغراب والريبة. انقبض قلب الممرّضة وخشيت أن يكون في الأمر شيء له علاقة بهفوة طبية أو تهاون لم يمرّ بسلام. لم تر من بد سوى الالتحاق بهما تسألهما عن أحوالهما وأحوال العمل والقسم وعدد وخصائص المرضى الّذين تم إيواؤهم منذ الصّباح، فأخبرتها عواطف بكل لهفة وحماس أن أهم نزلاء المشفى والتي كان من المفروض أن تكون ممدّدة بجانبهما، ولكنها

١٣ انظر تقرير ص ٢٤٨

اختفت ربّما لتقضي حاجة في بيت الراحة التي كانت تتوسل إليها منذ قليل كي تساعدها في الذهاب إليها لأنها لا تقوى على النهوض بمفردها من فرط أوجاعها، والتي أجابتها أن ممرضة دوام اللّيل ستكون رهن إشارتها بين اللحظة والأخرى، وهي التي ستتكفل بها وبمدّ يد العون لها طوال اللّيل، وأنها كانت تودّ لو أنها قادرة على فعل أي شيء من أجلها لولا أن السّاعة تشير إلى موعد المغادرة وبناء عليه فإن من واجبها القيام بجولة في أركان القسم مع الطبيب المباشر والممرّضة المناوبة كي تسلّمها التعليمات والتوصيات التطبيبية بخصوص ذلك العدد الهائل والمفزع من المرضى الحمقى والمتواطئين والّذين اختاروا في نفس الزمان وفي نفس المكان، بتوافقية لئيمة وتدبير ماكر وانتهازية بشعة لكونها امرأة مناضلة ونزيهة وجادة في عملها، أن يكونوا في عهدتها هي دونا عن غيرها من سائر الخلق كي يستنزفوا قواها الجسدية والذهنية مما يجعلها تخر تعبا وإجهادا وتعود إلى بيتها بسحنة مقلوبة عابسة ومزاج عكر مكفهر سيكون له انعكاس سلبي على الجو الدّاخلي في أسرتها، ليس بالأساس مع زوجها اللعين، النتن والقبيح الشّكل والمفلس، لولا ما تجنيه هي من عملها ومن بعض الإضافات الخارجية التي قد تؤدي بها يوما إلى ما قد لا تحمد عقباه، والّذي ما انفكت تتمنى أن ترجع يوما إلى البيت فتجده قد هج منه إلى بيت والدته الماكرة أو إلى الجحيم بغبائه وشحّه وكره رائحة فمه الأبخر وقصر قامته وبطنه المتدلي وهندامه المتسخ وشعره الأشعث ولحيته الخشنة وأظافر أصابعه القذرة وأصواته المقززة عند الأكل والوضوء والتغوط... بل سيكون الانعكاس على أطفالها المراهقين والّذين أصبحت متطلباتهم الغذائية اليومية مشطة تحبسها في المطبخ لساعات متتالية لا تنتهي لتحضير أطنان من مأكولات لا تسدّ ريقهم سوى لدقائق يهيجون من بعدها ويتضوّرون جوعا باحثين في شتى أرجاء المنزل عن مصدر حريرات مهما كان نوعها لالتهامها علّها تسدّ ريقهم إلى الغد... المهم

أن تلك المريضة ليست سوى مريم التي قام كريم ابن الدّكتورة نعيمة بتعنيفها وتسليط منحرفين لضربها ولكمها وإهانتها وتشويه خلقتها والتحرّش بها وربّما اغتصابها وسرقة أغراضها فجر اليوم. وأعلمتها أن فيديوهات يتم تداولها في الحال ومنذ الصّباح على مواقع التواصل الاجتماعي بها كل تفاصيل الواقعة وكيف كان صاحب الفعلة يتباهى بما قام متحدّيا أن يقف أحد في وجهه ولو تعلّق الأمر بالشّرطة والقضاء، ومهدّدا كل من سيقترب منه بالتنكيل والتشويه أضعاف ما لحق بمريم. وأخبرتها أن مدير المشفى قد أصدر قرارا بعدم التّطرّق إلى الموضوع مع أي مخلوق كي لا يعطّل ذلك سير التّحقيقات الأمنية، ونبّه أعوانه أن المحقّقين سيتهاطلون على القسم وسيتداولون على مريم يسألونها ويستنطقونها كي يقع إلقاء القبض على المذنب وعصابته الخطيرة، وأن الصحافة والإعلام لن يتوانوا عن الزحف إليهم كي يغطوا الحدث وملابساته وكما عهدهم في مناسبات فارطة سيصبون همَّ اهتمامهم على الإطار الطبي والشبه طبي ونظافة المستشفى وأقسامه ومعداته وجزئياته التي مهما كانت ضئيلة فإنها ستكون في الواجهة معتمة موضوع مريم ومن بعث بها إليهم. وبشرت عواطف زميلتها أن الفرصة قد حانت أخيرا كي ترد لنعيمة الصاع صاعين وأنها ستتمتع بكيدها وذلّها وكسر شوكتها المتعالية بالاستقامة والتنزيه الّذين عانت منهما لسنوات.

التفتت حسيبة إلى الرواق فرأت مريم تتقدم ببطء متمايلة ومحاولة الاستناد إلى الحائط ومنه إلى باب الغرفة ومن الباب إلى سرير النزيلة الأولى ومنه إلى السّرير الثاني حتى لم يكن بينها وبين سريرها سوى خطوتين أو ثلاثة أيقنت عندما لمحته أن لا طاقة ولا قوة لها لإدراكه فألقت بجسدها المنتهك عليه وسط تشجيع الفريق الطبي المتجمد والمتسمر في مكانه، إلا أنه حماسي ومحفز، إذ كان وللأمانة يشجعّها كي تتقدم خطوة تلو الأخرى، كي تمشي على هينتها دبيبا على مهل، كي لا تتعجل

أو تسرع حتى لا تتعثر أو تقع. ثم اكتفت عواطف بدفع ما تبقى خارج السّرير من جسم مريم بركبتها كي تسويها فوقه قائلة بكل لطف وتودّد:

– ستكونين بخير و في أحسن حال يا عزيزتي...

أرأيت أنك لا تحتاجين لعون أحد...؟ و لا تحتاجين لكرسي متحرك...

أنا وزملائي سندلّلك وسنسهر على راحتك حتى تقفي على قدميك وتكيدي غيضا من كان وراء ما حلّ بك...

وهنا تقدم منها د. لطفي وأضاف بنخوة:

– سأغضب منك يا مريم إن احتجت إلى شيء وتردّدت في طلبه مني أنا شخصيا... وسأكون قاسيا مع الممرّضات إن اكتشفت أنهن تهاونن في تقديم المساعدة وكل أسباب راحتك أثناء إقامتك بيننا.

فأردفت عواطف:

– كان بودّي البقاء هنا لأخدمك حق ما تستحقين يا غالية... لكنني أستودعك أجمل جميلات المستشفى لترعاك وتسهر على راحتك... لا أستطيع أن أترك أبنائي الصغار بمفردهم بالبيت... لكنني سأكون هنا منذ فجر الغد... إذا احتجت شيئا فاسألي حسيبة أن تبلغني بذلك...

أغمضت مريم عينيها موهمة طاقمها الطبي الخاص أنها ستقوم بكل ما طلبوا منها وأنها لن تتردد في جعلهم رهن إشارتها إلى أن يحفوا في تلبية مطالبها، ولكنها بدأت تفهم أن ما أبدته الممرّضة وزملاؤها من نفاق ومراوغة جعلها تكاد تنسى ما استرقته من حديثهم قبل حين عندما كانت تحاول الرجوع إلى سريرها، بخصوص الدّكتورة نعيمة... والدة معنّفها.

مضى اللّيل بطيئا ومملّا ولم تهنأ مريم إلى النوم سوى للحظات متقطعة بالآلام والأوجاع والتفكير في ما حلّ بها وما سيتلوه في علاقة بمستقبلها المهني والشّخصي،

وما إذا كان ما تعرضت إليه من جروح وإصابات سيترك لها مخلفات وعواقب ستعاني منها بقية العمر. وما انفكت تستعيد ما تبادلته الممرّضات والطبيب بشأن نعيمة، ونيّتهم التشفي بها والكيد لها حتى يوقعن بها في مصائب بغية طردها من العمل. لم تستطع اقتلاع فكرة أن تلك الدّكتورة وبالرغم مما أبدته في الصّباح من تفان والتزام في اعتناءها بها ومستوى عال من الخبرة إلا أنها أعطت المحقّق قصد تضليله مواصفات لتبعد الشّكوك عن ابنها وهذا يؤكد ما ادعاه زملاؤها المنافقون في شأنها واتهامها بالتّلاعب.

من جهته كان كريم قد قضى معظم اللّيل على الهاتف بين كم هائل من المكالمات مع أصحابه يستعيدون ما حدث وما قيل وسط حرم الكلّيّة مع الشّرطي سالم، ثم ما أقدم عليه إسكندر من وقاحة لم يستسغها أحد، والأهم من ذلك ادعاء سندة أنها خطيبته وأنه قضى اللّيلة في سريرها دون اعتبار لرأيه الشّخصي وما قد تظنّه والدته إيزاء جرأتها التي لا تعرف حدودا في سبيل أن تجعل منه حبيبها أمام كل الطّلبة وتبعد عنه تلك اللاتي يحمن حوله ويطمعن في ودّه. أمّا نعيمة فقد تاهت بين أفكارها التي حرمتها النوم، وباتت غير قادرة على التركيز على إحداهن، فكيف لها ذلك وهي لا تقوى على ترتيبها من المهمة إلى الأهم لتشابكها وتعقيدها ومرارتها. كيف لها أن تضع اهتمامها في واحدة فقط دون أن تسرح في فظاعة الأخريات. أولاها مريم التي ستكتشف عاجلا أم آجلا أنها والدة من أذنب في حقها... ثانيها كريم الّذي اكتشفت ولأول مرة منذ ولادته أنه غريب عنها بشخصيته النرجسية ولا مبالاته، كما أربكها موقف زوجها وبرود أعصابه أمام ما حدث، وانتهاجه بتسليط وساطة أمنية عالية المستوى أقصر الطرق وربّما، وإن كانت لا تودّ الإقرار والاعتراف به، الأضمن لحماية ابنها من كل مكروه، رغم ما سيتسبب من هضم حق مريضتها التي لا حول ولا قوة لها. وبقيت تتململ في فراشها وتتخيل موقف

سالم من إبعاده عن الأبحاث بسبب عبد الله الّذي تعالى شخيره بجانبها منذ وضع رأسه على الوسادة بعد أن نبّهها ألا تتطرق إلى الموضوع مجدّدا لأنه يراه منتهيا لا محالة ومن دون أي خسائر، وبعد أن أوصاها أن توقظه في الغد باكرا لأنه سيسافر في مهمة بيداغوجية ستجعله يتغيب عن البيت ليومين متتاليين، بينما الحقيقة أبعد عما تكون، فالتوتر الّذي حل فجأة بالبيت جعل الرّجل يقرر ترك عائلته بمشاكلها ليقضي وقتا ممتعا عند عشيقته حليمة. سألته نعيمة سبب عدم إبلاغه إياها بذلك مسبقا كي ترتّب شؤونها وجدول أوقاتها فأخبرها أن ما حدث مع كريم جعله ينسى الموضوع وأن المهمة قد أسندت إليه فجأة ليعوّض زميلة اعتذرت عنها في آخر لحظة دون أن توضح الأسباب. لم يكن حال رجب أفضل من غيره في تلك اللّيلة، وبعد أن خلدت زوجته وابنه إلى النوم، بقي ساهرا يدخن السيجارة تلو الأخرى وقد تمكن منه الأرق وأضناه التفكير وتأنيب الضمير محملا نفسه مسؤولية ما جدّ منذ ولادة مريم، وعدم قدرته تأمينها وحمايتها من شر النّاس. وبقي يسائل نفسه الفاشلة كيف له أن ينغرس تحت غطائه الدافئ وابنته وحيدة في المستشفى بين الحياة والموت، تصارع الأوجاع والبرد والجوع بمفردها. نظر إلى رفيقة دربه يهز كتفها علها تنهض وتستقيم بجانبه كي تسمع منه وتخفف عنه ولكنها كانت في أعمق سبات غير مكترثة بما يدور من حولها[١٤]. لم تجد رشيدة صعوبة في الغوص في نوم عميق لأنها تعتقد أن ما حلّ بمريم لا يعنيها في شيء وأنها ليس عليها أن تتحمل مصيبة ليست من نصيبها وأن ابنتها قادرة على تعدي تلك المحنة بسلام وبكل سهولة لأنها من طينة صلبة لا تنحني ولا تغلب، وإن كان لأحد أن يتكبد الهمّ والسهر والجري وراء إيجاد الحلول فهو رجب[١٥].

١٤ انظر تقرير ص ٢٤٩

١٥ انظر تقرير ص ٢٦٠

التوقيت: السادسة والنصف صباحا.

المكان: الشارع الّذي يسكن به كريم.

ليس بالمكان حركة أو اكتظاظ... كالمعتاد في تلك الأحياء الراقية والهادئة... بعض العصافير التائهة بدأت تتكسل وتستعد لفلاح اليوم مطلقة حناجرها لزقزقة تنذر أنها ستخوض معركة قد تكون دامية مع قطط الحي وجرذانه ليقتسموا ما استقبلته حاويات القمامة ليلا من ملذات زادت عن حاجيات السكان ولم تجد مكانا داخل ثلاجاتهم الملآنة.

لكن الأمر لن يكون عند ذلك الحد من الضراوة... إذ أقبل أعنف أعداء الحيوانات.

الإنسان.

تقدم من الحاوية بخطى ثقيلة ولكنها ثابتة، رجل في مرحلة ما من العمر، ربّما كان في العشرين... أو ربّما تخطى عتبة الستين. من المستحيل معرفة سنّه بالتحديد لأنه تعمّد إخفاء أي مؤشر لذلك. لقد غطى بوشاح كامل رأسه وجعل طرفه لثاما يحجب ثلثي وجهه ما عدا العينين. كان يمسك بيده اليمنى عصا طويلة ثبّت بآخرها مشبكا معدنيا حادا ومعقوفا، ويجر بيسراه شوالا كبيرا قذرا، وكان قبل كل خطوة يتأنى في النّظر من حوله ليرى إن كان أحد في الجوار، خاصّة وأنه غرس بأذنيه سماعات أوصلها إلى هاتف جوال يشغل موسيقى وأغاني تحفيزية كان قد أحسن دسه تحت معطفين أو ثلاث لبسها لتقيه برد الفجر.

لم يكن ذلك الرّجل سوى واحد من بين آلاف منقّبي النفايات أو البرباشة الّذين لن تكون لهم علاقة من قريب أو من بعيد مع شخصيات القصة. وكيف لهؤلاء أن تكون لهم علاقة مع البشر إذا كان البشر بدورهم لا يرونهم ولا يعون

وجودهم[١٦].

المهم أن ذلك الرّجل ألقى بنصف جسده داخل حاوية قمامة لم تكن قد امتلأت بعد بأكملها بنفايات أهل الحي الّذين تعودوا إخراجها في الصّباح عند ذهابهم إلى أعمالهم، لذلك لم يتسنى له رؤية الأستاذ عبدالله يغادر بيته في سيّارته الفخمة الداكنة، بل والأهم من ذلك أنه لم يعر اهتماما لصوت دراجة نارية صاخبة كان يمتطيها صلاح، والتي اقتفت أثر تلك السيّارة حال مغادرتها الشارع. كان صلاح يراقب بيت كريم منذ الفجر مستترا وراء شجرة التوت المتدلية الأغصان، وفي نيّته تتبّع أولى فريساته الثلاثة اللاتي كان قد علّمهن بالأمس. وإذا بالاختيار يستقرّ على أكبرهن. لم ينتبه الدّكتور إلى أنه متبوع، ولم يتوجه إلى الكلّيّة كما اعتاد أن يفعل في صباح كل يوم، بل كانت وجهته بيت عشيقته حليمة. ولما دخل عليها وأغلق الباب كان صلاح قد توقّف خلف سيارةٍ وثبّت دراجته بعمود كهربائي، وما هي إلا قفزتين رشيقتين حتى تسلّق سور بيت حليمة، ثمّ نط منه إلى شرفة غرفة نومها وبدأ يستل النّظر من شقوق النافذة، فرأى العشيقين في وضعية قد يعبّر عنها في صفحات صدى المحاكم بصُحفنا المحافظة بأنها "مخلّة بالآداب". ولم يكن في حاجة لأكثر من تلك الشقوق كي يلصق بإحداها كاميرا هاتفه الجوّال ويصور جلسة الحبّ التي هام في لذتها عبد الله وحليمة.

في غضون دقائق كان ما صوره بائع الهواتف كافيا كي يلعب به ورقة مساومة رأى أنها ستربحه الكثير، وأنه من العبث تأجيلها إلى وقت آخر، لذلك قفز من الشرفة إلى السور ومنه إلى الشارع وركض إلى الباب الرئيسي يقرع الجرس قرعا ملحّا ومزعجا فزع له الحبيبان وقطع خلوتهما فركضا إلى الباب محاولين ارتداء ما يسهل وضعه على جسميهما لسترة ما استحيا كشفه.

١٦ انظر تقرير ص ٢٦٠

فتحت المرأة فنطّ صلاح في وجهها يضحك ويتمايل كمهرّج السيرك وكأنه يقصد بذلك عدم فجعها وإرباكها كي لا تقفل الباب في وجهه، وكان هاتفه بيده يهزه ويجيبه ويردّه في كل الاتّجاهات. سألته حليمة من يكون فلم يجبها بل انطلق في الغناء بمرح ونشوة، ثم هدأ قليلا وقال لها أنه أتاها بخبر سعيد سيغيّر مجرى حياتها إلى الأبد وسيدرّ عليه ربحا كبيرا... خبر الموسم الّذي سيكون محور اهتمام وحديث الصغار والكبار، والّذي سيشغل اهتمام النساء والرجال لما فيه من دروس في الأخلاق والرياضة لمن تجاوزوا سنّ الخمسين... خبر سيعود بالوبال على كل من يلعب به دور البطولة وعائلاتهم... خبر يستوجب أقصى درجات الإصغاء والانتباه. وفي لحظة تغيّرت ملامح الشّاب وانقلبت سحنته فجأة وأخذ وجهه تعابير جدّية وصارمة وبرزت في عينيه لمعة خبث ودهاء جعلت العشيقين يدركان أن الموقف جادّ ولا يحتمل تجاهلا أو مماطلة، لأن هذا الأرعن الماثل أمامهما ليس سارقا أو متحرّشا أو معتوها ظل طريقه فوقع عليهما صدفة.

سكت الثالوث للحظة فرتّب صلاح هندامه وكفّ عن الغناء والتنطّط، ثم شغّل هاتفه وقدّمه إلى الأستاذين ليشاهدا فيه جسميهما المترهّلين في أحلى تعابير حبّهما المغشوش والمغمّس في النفاق.

أمّا عن عبد الله فقد كان ينظر دون إبداء رأي أو ملامح دهشة ، وأما عن حليمة فقد جفّ حلقها واصفر وجهها ثم احمر، وأصبحت لا تقوى على إكمال محتوى الشريط حتى نهايته، فأوقف صلاح العرض وحشا الهاتف بحرص في أعماق جيب بنطاله ونظر بوقاحة إلى تعيسي الحبّ وقال:

– تعرفان البقية... وإليكما ما يلي: مائة ألف دينار مقابل اختفاء هذا الشريط نهائيا... وربّما الهاتف برمته... مقابل ألا يقع في يد الدّكتورة... وأبنائك... وزملائكما في الكلّيّة والعالم بأسره. لديكما أربع وعشرون ساعة لتجميع المبلغ...

إذا تجاوزتما الموعد سيكون على كل منكما دفع ١٠٠ ٠٠٠ دينار في غضون أربع وعشرين ساعة أخرى... وإذا تجاوزتما الموعد الثاني فإنكما ستدفعان بي إلى تنفيذ ما لن يروق لأحد.

نصيحتي ألّا تتهوّرا وإلا كانت العواقب وخيمة... على... لست أدري... الاختيار صعب... ربّما على كريم...؟ أو...؟

لا تحاولا البحث عني... ستضيعان الوقت والأجدى لكما أن تبدآ بتجميع المال...

سأتصل بكما غدا...

إلى اللقاء.

وركض صلاح إلى دراجته يشغلها ويمتطيها وينطلق بسرعة كي يبتعد عن أنظار عبدالله وحليمة غير مبال بما بقيا عليه من سخط وريبة. أغلق والد كريم الباب ولم ينطق بأكثر من جملة وحيدة:

– فلنكمل ما ابتدأنا...

بينما ابتسمت حليمة دون أن تقول شيئا ونفسها تسوّل لها أن ما يحصل ليس من قبيل العبث ولن يكون نهاية العالم، وإنما فرصة طال انتظارها وتتاح لها أخيرا كي تخرج علاقتها مع حبيبها إلى النور علّه ينفصل عن زوجته ويصبح نصيبها. وجب عليها الهدوء والرويّة كي تجد السبيل إلى استغلال هذا المأزق لصالحها دون تهوّر أو ردّة فعل طائشة قد تعود عليها بالضرر والفضيحة في وسطها الاجتماعي وخاصّة المهني.

في ذات الآن، أمام بيت الدّكتورة نعيمة، توقّف باص خصوصي ألصقت على جوانبه صورا كرتونية زاهية الألوان كتب عليها "مدرسة الأمراء الصغار الخاصّة" (مع أن الأمراء كانوا فيما مضى يستقبلون العلماء والمدرسين في بلاطهم وتحت أعين

الحراس وخدمة الحشم ليأخذوا من العلوم ما يجعل منهم نوابغ وأهلا بالعرش الّذي سيعتلونه من بعد الملك). فتح خليل باب الباص المهترئ بالصدأ ثم صعد درجتين ولم يجلس بعد في مقعده حتى انطلق الباص مندفعا بقوة كافية لغلق الباب من جهة والبعث بالطفل من جهة أخرى كالقذيفة إلى قعر العربة ليتسلّمه التلاميذ الآخرون قبل أن يرتطم رأسه بالمقعد المهترئ الّذي برزت لواليبه من تحت حاشيته في جو من الضحك واللعب والاستبشار بمستقبل باهر سيجعل منهم أمراء بفضل مدرستهم الخاصّة وتكاليفها الباهظة. وابتعد الباص بدخانه تاركا والدة ولي العهد وأخواته بانتظار سيارة أجرة. لقد قرّرت نعيمة وبسبب عربتها المعطوبة أن تصطحب أبناءها الواحد تلو الآخر إلى أماكن دراستهم بالتاكسي، وأجبرت كريم على عدم استعمال سيّارته الصّغيرة والبيضاء الجديدة حتى لا تسوّل له نفسه الخروج من كلّيته والتوجه إلى أمور قد تفسده وتشغله عما هو أهم. لم تكن متأكدة أن الشّرطة قد طوت ملف مريم نهائيا، بل ذهب ظنها إلى أن في الأمر مناورة، وأن الأمنيين قد يبقون ابنها تحت المراقبة لوقت، لذا أصرت على اصطحابه حتى باب كليته والتأكد أنه سيحضر الدّروس حتى آخرها. كما سيتسنى لها مرافقة بنتيها ملاك وشيراز اللتين بان عليهما الاضطراب في الآونة الأخيرة بعدما حظيتا بإهمال كبير ونقص رعاية من طرفها وطرف والدهما.

بعد عشر دقائق توقّفت أمام عائلة عبدالله سيارة صفراء تعالى من داخلها ضجيج المذياع بصوت منشط برامج الفقرة الصّباحية والتي لا تتعدى أن تكون حلبة لإنهاء اقتتال بين شخصيات سياسية أو إعلامية كانت البارحة قد ابتدأت عراكا على قناة تلفزيونية هي بالأساس على ملك صاحب القناة الإذاعية أو أصدقاء له، والّذين تعودوا فيما بينهم تبادل أكباش النطاح هؤلاء ليفرهدوا نفوس الجماهير بكل ما أوتوا من حرفية وصدق في الكلام والتزام بالفعل والفائدة العامة

قبل الخاصّة.

أنزل سائق التاكسي زجاج عربته وابتسم وقال للدكتورة متحمسا:

– صباح الخير سيّدتي... هل تحتاجون سيارة أجرة؟

انشرح وجه الطّبيبة وأجابت:

– أجل.

وأمرت أبناءها بالركوب ففعلوا. و انطلقت السيّارة بسرعة. وبدأ الرّجل بالحديث دون انقطاع وقال:

– أوصلت سيدة إلى بيتها... تسكن في أول شارعكم... كانت تتكلم كثيرا... لكنها كانت سخية معي والحمد لله... أخذتها من محطة القطار وأتيت بها إلى هنا مع الكثير من الحقائب... أخبرتني أنها تركت قريتها لتنزل بضعة أيام عند ابنها... تقول أنها جاءت للتداوي... وعليها أن تعود طبيبا مختصا ليرى إن كان لدائها دواء... المسكينة... لكن ابنها سيتكفل بكل المصاريف... فهو على ما أخبرتني تاجر ميسور ولديه الكثير من الأصحاب الّذين سيسهّلون عليه عملية تسجيل والدته على قائمة المرضى ذوي الأولوية القصوى بالمستشفى الجامعي حتى يتم تشخيصها على جناح السرعة... المسكينة... لا يدري أحد ما الّذي أصابها بالضبط... قالت أنها استيقظت منذ الفجر كي لا تفوتها رحلة أول قطار... وكانت تتضور جوعا رغم ما كان بحوزتها من فطائر الصاغ وزيت وزيتون وعسل... كانت رائحة الأكل عابقة داخل السيّارة... لكنها استحت أن تأكل أمامي.

بينما كان الضجر قد تسلل بين أبنائها، كانت نعيمة تتابع السائق في كل ما يقول بشغف عل كلامه ومشاكل النّاس ينسونها همها فقالت بعفوية:

– هل قالت لك من يكون الطبيب الّذي أتت لعيادته؟

– لا سيدتي... هل حضرتك طبيبة... ؟ هل لك معرفة بالأطباء...؟

– أجل...

– وهل ابن حضرتك طبيب أيضا...؟ أو ربّما يجب أن أقول أنه طالب في الطب... فهو لا يزال يافعا... لأني عهدت أبناء الأطباء دائما على خطى أوليائهم...

– لا... كنت أتمنى ذلك... ولكن ابني طالب بكلّيّة الآداب.

– عذرا سيدتي... عذرا يا بني... إذا كنت لم تتّبع منهج والدتك الطّبيبة... فهذا يعني أن والدك ليس بطبيب... هذا يعني أنه "أديب"...؟

ضحك كريم بفخر وقال:

– أنت ذكي... فعلا... أنا اتبعت مسار والدي... وفعلا أبي "أديب" ولا علاقة له بالطب.

فأضاف السائق بلهفة:

– إذن أنت تدرس بكلّيّة الآداب... التي توجد على الطريق الحزامية...؟ أليس كذلك...؟

– أجل... قلت لك أنك ذكي.

– عذرا منك مرة أخرى يا بني... هل لي أن أسألك ما الّذي حدث بها يوم أمس...؟ رأيت رجال الشّرطة يغادرونها وقد بان على وجوههم الجدية وما يوحي بأن أمرا على غاية الأهمية قد جدّ بداخلها؟

– لا شيء يذكر... لكن كيف عرفت أنهم رجال شرطة...؟

– أنا أعرف الجميع... لا زلت صغيرا على هذه الأشياء يا بني.

سائقو التاكسي وسيارات الأجرة يتعاملون مع الشّرطة في مجالات عديدة... لذا نحن نعرف جيدا بعضنا البعض. والّذي رأيته البارحة مع زميله يدعى المحقّق سالم.

وهنا تدخّلت نعيمة مرتبكة:

– ولماذا تظن أن شيئا قد حصل بالكلّيّة...؟ ثم ما رأيك بالمحقّق سالم...؟ هل هو موضع ثقة...؟

استغرب الرّجل من سؤال الدّكتورة واهتمامها بعون الأمن ولكنه لم يشأ أن يبان عليه ذلك فقال:

– سمعت أن فتاة من حي شعبي قد تعرضت إلى التعنيف فجر الأمس من طرف طالب من كلّيّة الآداب... لذلك تحوّلت الشّرطة إلى هناك للتحقيق في الأمر... سمعت كذلك أن الشّاب من عائلة مرموقة... وأن والده قد تدخّل لدى كبار المسؤولين بالأمن كي يضمن ألا يلحق ابنه أي أذى.

أدار كريم عينيه عن عيني السائق في المرآة العاكسة الدّاخلية للسيارة ونظر إلى الشارع متظاهرا بالتلقائية وقال مموّها:

– أجل... أجل... سمعت بذلك... الكل يتحدث عن ذلك الأمر...

لم ينتبه الشّاب أن التاكسي توقّف أمام كليته، ولكنه أحس بمرفق أخته شيراز تهمزه. التفت إليها وسألها مستنكرا:

– ما بك...؟

فإذا بالسائق يستدير بكامل جسمه وينظر إلى كريم مبتسما ويقول له:

– ها قد وصلنا كلّيتك يا بني... لا بد وأنك لم تنم جيدا البارحة....

ابتسم كريم ونزل من السيّارة وذهب بجانب نافذة السائق وانحنى عليه مبتسما وقال:

– ألم أقل لك أنك ذكي أيها الرّجل الطيّب...؟

وانصرف تحت أنظار أمه التي أبت أن تغادر المكان قبل أن تطمئن أنه قد دخل فعلا إلى كلّيّته، ومن عدم وجود أحد في أثره من رجال الشّرطة أو الغرباء الّذين قد يختلقون معه المشاكل. ثم انطلقت العربة والسائق لا ينقطع عن الحديث والمباهاة

بمعارفه ومكانته بين الأمنيين وأوساط نافذة أخرى بالمدينة. وبعد وقت توقّفت أمام كلّيّة ملاك أين نزلت الصبيّة دون أن ينتبه إليها أحد، وها هي شيراز من بعدها تنزل إلى إعداديتها تنط وتلهو متقمصة دور بطلة الأنيمي المحبذة إليها.

وأخيرا توقّف التاكسي أمام المستشفى. فتحت الدّكتورة باب السيّارة وهمّت بالنزول ثم انتظرت لحظة وبادرت تسأل الرّجل:

– لست أذكر أنني أعلمتك وجهتي عند ركوبي معك... ومع ذلك توجهت نحو كلّيّة ابني ومنها إلى كلّيّة ابنتي ومن بعدها إلى إعدادية الصّغيرة وها أنت تقلني إلى مقر عملي دون أن أشير لك بذلك... كيف لك أن تعرف كل هذا...؟ من أنت... وكيف تعرفني...؟ هل بعث بك أحد لتتقفى أثري...؟

فقال السائق مبتسما:

– – هوّني عليك دكتورة... أنت ذكية كفاية كي لا تستغربي... طاب يومك سيدتي...

ابتعدت نعيمة مترنّحة ومثقلة بالوساوس ومن دون بوصلة تحدد معنى ما يحدث معها. من تراه يكون ذلك الرّجل الّذي يعرف عنها وعن عائلتها أكثر من مجرد تخمين يتظاهر به شخص في أول لقاء؟ هل هو من طرف زوجها الّذي غادر البيت منذ الفجر تاركا إياها تتخبط وحيدة مع المشاكل؟ أو ربّما كان من رجال المحقّق سالم... يستعين به لمراقبة النّاس ونقل أخبارهم؟ أو ربّما كان مسلّطا من طرف المحقّق الجديد الّذي تعهد بالملف بدلا عنه؟ المهم أن ساقا الدّكتورة قادتاها دون إرادتها حتى مكتبها، وما إن فتحت الباب حتى فوجئت بمريم رغم ما كانت عليه من مرض وأوجاع تجلس كرسيها منتظرة إياها وتبادرها بالسّؤال دون تحيّة أو مقدّمات:

– لماذا أخفيت عني أنك والدة كريم عبد الله...؟

لم تقوى الطّبيبة على النّظر في عيني مريم المتورّمتين واستدارت ترتّب حقيبتها وتلبس منديلها الأبيض وقالت محرجة:

– بالفعل... أنا والدة كريم... لكن أؤكد لك أن ابني بريء من كل تهمة... ليست له علاقة مع من تسبب لك بهذا... مشيرة إلى الجروح والكدمات.

– من تكونون سيدتي ومن تظنون أنفسكم...؟ من أحلّ لكم احتقار النّاس وإهانتهم...؟ من أحلّ لكم العبث بمصير الخلق...؟ هل تعرفين من أنتم...؟ لا أراك تعرفين... ولا أراك تعرفين ابنك جيدا حتى تدافعي عنه... قد لا يكون ابنك من تسبب بهاته الجروح (مشيرة إلى وجهها) ولكنه هو من تسبب بهذا الجرح (واضعة اصبعها قبالة قلبها) وهذا الجرح أعمق وأكبر... وشفاؤه مستحيل.

ابنك المدلل ليس بالرجولة التي تسمح له بالاعتراف بما فعل... ليس بالرجولة كي يواجه ما اقترف... إنه عديم الرجولة والمروءة.

– كفى يا ابنتي... رجاء...

– تلك هي الحقيقة... ليس رجلا من يعنف فتاة... بل إنه لأنذل الأنذال إذ لم يواجهني وكلّف من هو أحقر منه ليقوم بالعمل القذر بدلا عنه...

– أرجوك يا بنيتي ألا تتسرعي في الحكم عليه...

– إياك أن تناديني ابنتك... لا يشرفني أن أكون ابنة سيّدة أنجبت وربّت معتوها مثل ابنك...

– صدّقيني... إنني لا أقوى على تصديق ما يحدث... ولا أصدق أن ابني أنا... هو من كان وراء كل هاته المشاكل. لن أجادلك ولن أقول لك أنك غير محقة في الحكم على من تسبب لك بالمهانة بهاته القسوة... لكن أرجوك ألا تتسرعي حتى نعرف الحقيقة كاملة.

– لن أفرط في حقي... سأبعث بالمذنبين وأوّلهم كريم إلى السجن... كلّفني

ذلك ما سيكلّفني...

وانصرفت مريم تاركة نعيمة تندب حظها التعيس بابنها اللئيم. إلا أن عقلها الباطن وقلبها المهزوز قالا لها أن تدخّل عبدالله لدى الأمنيين لحماية كريم سيجعل هذا الأخير في مأمن مما تخطّط له مريم إيزاء من عنفها. وعندما تهلّ المصائب على الغافلين فإنها تأتي بالجملة. إذ ما لبثت الدّكتورة تستردّ توازنها حتى دخل عليها زميلها يسري ووجهه الكئيب ينذر بكمّ جديد من المشاكل وقال لها دون تحيّة:

– هل علمت بالأمر...؟

فأجابته محبطة:

– خير إن شاء الله... لا... ما الّذي يحدث...؟

– قيّم القسم قام بجرد للتموينات ووجد خرقا فادحا... لذا... فإن إدارة المشفى ستفتح تحقيقا بالأمر.

– ومتى حصل ذلك...؟

– يبدو أن الأمر حديث... لم يمض أسبوع منذ آخر جرد... لذا فإن التّحقيق سيشمل الفرق التي اشتغلت ليلا في الأيام القليلة الفارطة فحسب...

– و هذا يعني أنني سأكون أول المشمولين بالبحث... بما أنني قضيت معظم الأسبوع هنا...

وهنا دخل فيصل بوجه مستاء ومكفهر وقال متلعثما:

– دكتورة... أنت... عفوا... صباح الخير... أنت مطلوبة في الإدارة.

شعرت نعيمة أنها وسط مؤامرة رخيصة تستهدفها وتحاك ضدّها وصرخت:

– يا الله... يا الله... ما الّذي يحدث بحق السماء.

وخرجت مهرولة تشق رواق القسم غير قادرة على تجنب نظرات عواطف الخبيثة، ومريم أمام غرفتها وكأنها تتوعدها وتقول لها:

– إن سخطي على ابنك بدأ ينصب عليك...

رنّ هاتف كريم فأخرجه ونظر فيه، لم يتعرف على رقم من كان يطلبه فأقفله ليكمل فترة راحة العاشرة مع أصحابه ويتمتع بالتباهي وسط شلّته بما فعله والده لإزاحة المحقّق سالم عن التّحقيق وكسر أنفته. لكن الرقم عاود الاتّصال ثانية فاتّجه نحو بهو الكلّيّة بعيدا عن صخب المشربة ومن تجمهر أمامها من طلبة، وأجاب:

– ألو... من معي...؟

– هذا أنا... صديقك صلاح...

– ظننتك لا تريد محادثتي... وإنما إلحاق الأذى بي...؟

– فعلا... لا أحبّذ محادثتك... ولكني قطعا سأتمتع إن ألحقت بك الأذى...

فقال كريم بصوت واثق ونبرة متهكمة:

– أنصحك أن تترك الأمر يمرّ بسلام... قد ينقلب السّحر على الساحر... وتجد نفسك ضحيّة ما تخطط له... أنت لا تعرف من أكون... ومن يكون والدي وما الّذي يستطيع فعله.

– لا عليك يا صاحبي... أصبحت أعرف من يكون والدك وأعرف ما الّذي بوسعه أن يفعله... أنا أمام كليتك... أخرج... أنا بانتظارك... إياك والتأخير...

وأقفل صلاح الخطّ. عاد كريم أدراجه يشقّ بهو الكلّيّة ثم الحديقة مهرولا غير عابئ بأصوات أصحابه ينادونه، فانتبه الشّباب أن في الأمر ما يدعو إلى الريبة والفطنة، وخمنوا أن صديقهم يتّجه إلى شيء خفيّ وغير متوقع قد يكون على علاقة بحادثة الأمس والفتاة المتضرّرة والشّرطة. لذلك نهضوا بعجلة وحثوا بعضهم البعض إلى تتبّعه خارج الكلّيّة، ومكثوا يراقبونه عن بعد ليروه يبحث في كل الاتّجاهات حتى اقترب منه شاب قصير القامة، نحيل حتى برزت عظامه من تحت

قميصه الرياضي الداكن وقد غطت رأسه قبعة تحمل صورة ورقة القنّب الهندي، وقد بان وجهه الأسمر نحيفا مكفهرا بهالات وبقع سوداء تحت عينيه. كان صلاح يتحدث بوقاحة وتعال مع كريم وقد أمسك بيده اليسرى هاتفا جوالا أشار إلى الطالب أن ينظر فيه. في بادئ الأمر كان ابن عبدالله يتخايل ويتمايل فارتا عرض صدره وقوته أمام خصمه ولكن سرعان ما انقلبت تعابير وجهه الّذي اعتلته علامات الانكسار والخزي وأصبح غير قادر على إبقاء عينيه على الهاتف الّذي أصر صاحبه أن يدفع به في وجه ابن بطل الفيلم الموثّق. وغير بعيد عن الشّابين بان لأصحاب كريم أن صديقهم كان ربّما قد تلقى خبرا سيئا من ذلك الغريب الّذي تطاير الخبث واللؤم من عينيه والّذي أرجع هاتفه إلى جيب بنطاله ثم همس خافتا لكريم:

– شريط يستحقّ جائزة الأوسكار... لكن هذا لا يعنينا. فقط عليك أن تعلم أن إبادته مرتهنة بمدى حكمتك وبُعد بصيرتك.

وقف الطالب مذهولا يسترجع كمّ المفاجآت التي انهالت عليه في غضون الأربع وعشرين ساعة الأخيرة. فتاة تتهمه... أخرى تخطبه... شرطة تترصده... أب نافذ... والآن أب فاسد... وهل يصح وصفه بالفاسد...؟ كل ما في الأمر أنه يمارس الجنس مع امرأة من الواضح أنها لا تبدي أية مقاومة أو تمنع، ومن الواضح أيضا أنهما في غاية المتعة بما هما فيه كراشدين لا يغصب أحدهما الآخر على مكره، بل تجليا في قمة السعادة والوفاق والنهم الجنسي. ولكي لا يوجّه تفكيره وتركيزه على والده، حتى لا ينساق إلى نقده أو انتقاده مما يصغّر شأنه عنده، رأى الشّاب أن يصبّ همّ انشغاله وعمل مادّته الرمادية صوب حليمة. فقال له عقله أنها رخيصة... بائعة هوى... صبيانية ووصولية، متسلقة وانتهازية مفتقرة إلى إشباع رغباتها الجسدية، وعليها أن تشعر بالفخر والتميز إذ عاشرت أفضل رجال العالم

وسيّد أسيادهم. وإن كان في الموضوع من يعاب فهي بمفردها، أما الدّكتور عبد الله فله الشكر والامتنان إذ تواضع ونزل بمقداره إلى مستوى امرأة عزباء زادها بعلوّه علوّا وبشرفه شرفا عندما قبل أن يلامس جسده الطاهر جسدها. ثم قال لغريمه:

– ليس في الأمر ما يخجلني أو يخجل والدي... رجل ككل الرجال بل سيّدك وسيّد كل الرجال... يفعل ما يفعله الرجال... وإن كانت ببالك نيّة المتاجرة أو المساومة والابتزاز باستعمال هذا الشريط فدعني أنيرك أن أبي لا يهتم البتة بكل هاته التفاهات... وأما عن والدتي... فهي امرأة منفتحة ومثقفة ولا تنطلي عليها مثل ألاعيبك... لديها ما يكفي من الحرص والخوف على توازن أفراد عائلتها، ومن الحكمة والبصيرة والرصانة ما يجعلها تتجاوز ما قد ينجرّ عن هذا الفيلم من كدر ومتاعب تنوي افتعالها.

لم لا تأخذ بضاعتك المضروبة والرخيصة وتساوم بها المرأة التي تظهر فيها...؟ فهي العاهرة التي لن تقبل أن تلطّخ هكذا فضيحة سمعتها...؟

– كنت أظنّك ذكيا... لكنّك أخرق وأحمق...

– وأنا أيضا كنت أحسبك أذكى مما أنت عليه...

جهلك مصيبتك...

– هل ظننت أنني كنت أنوي عرض الفيلم على والدتك...؟

– إذن على من...؟

– غبي...

ربّما عرضته على أختك الكبرى...

أو ربّما عرضته على أختك الصغرى...

أو ربّما على أخيك الصغير...

ولك أن تتخيل حجم الهزة النفسية التي سيصابون بها وما الّذي سينجر عن

ذلك مستقبلا...؟

– هراء... لن تفعل ذلك...

ربّما... قد لا أفعل ذلك... ولكنني قد أنزل الشريط على مواقع التواصل الاجتماعي...

– تقنيا... لا يمكنك فعل ذلك...

– أنا من يعرف التقنيات... لست أنت...

لكن ذلك لن ينفعني كثيرا...

– إذن ما الّذي تريد فعله...؟ ما الّذي تنوي فعله بذلك الشريط...؟

– لا أريد شيئا إن أنت تصرّفت بحكمة وتحملت المسؤولية كاملة بشأن تلك الفتاة... وإلّا اضطررت إلى عرض الفيديو على والدتك الحكيمة... وإخوتك المراهقين والقصر... وتنزيله على النت... و لم لا...؟ على إدارة الكلّيّة...

وسنرى عندئذ إن كان والدك... سيد الرجال... وخليلته العاهرة... سيهتمان بالأمر أم لا...

فضيحة... فمجلس تأديب... فقرار طرد... ونهاية بائسة... ومستقبل مظلم بالنسبة إليك... يا ابن سيّد الرجال...

أصبح كريم في موقف ضعيف وأيقن أن شريكه في الانحراف شخص لا يستهان به. وبدأت أفكاره تحمله بكل الاتّجاهات وإن كانت في معظمها دون علاقة مباشرة مع ما يتوجب عليه فعله إيزاء ما يحصل:

– ما العيب في ممارسة الجنس...؟

أو بالأحرى... ما العيب في ممارسة الجنس خارج أطر الروابط الزّوجية...؟

رأيت أبي متمرسا... وصاحب خبرة ومعرفة...

حليمة مثيرة للغاية... لا بد وأنها مغرمة بأبي... هل تراها تواعد رجالا

آخرين...؟

وأبي...؟ هل يواعد أكثر من امرأة في نفس الوقت...؟ لا بد أن له رغبات لم يتمكن من إشباعها مع زوجته

زوجته... نعيمة... آه...لا

ما العيب في أن يرانا النّاس عراة... نمارس الجنس...؟

الجميع يمارس الجنس... ويشاهد من يمارس الجنس... هل عندما يتعلق الأمر بأبي يصبح عيبا...؟ ويتسبب له بالمتاعب؟

عندما يتعلق الأمر بالدّكتور عبد الله... سيصبح الجنس تذكرة عبور إلى النقد وفرض الأخلاق والآداب والقيم ممن هم بدورهم يمارسون الجنس... ليحققوا معه ويؤدبوه وربّما يقصوه عن وظيفته.

كانت أردافه وهو يجامع حليمة تتدلدل كليّة الغنم...

أما هي فكانت مثيرة للغاية... بدا عليهما توافق متين وتواطء عميق... هذا يدلّ على قدم علاقتهما.

لم أر أبي يوما يجامع أمي... لا أظنّهما يفعلان ذلك...

كيف عرف هذا القبيح بسرّ علاقة أبي وحليمة...؟ وكيف تمكّن من تصويرهما بهذه السهولة...؟ ربّما من فرط انغماسهما فيما كانا يفعلان، نسيا الدنيا وما حولهما.

ترى هل ما يجمعهما حب...؟

إن واجه أبي المشاكل بسبب هذا الفيديو فقد يحال على مجلس التأديب وبناء عليه على المعاش... وعندها بالفعل سيكون مستقبلي الدراسي في ورطة.

حتى مستقبلي المهني والاجتماعي

يجب أن أتصرف بحكمة من أجل أبي كما فعل هو البارحة من أجلي.

ترى... كم مرّة في اليوم يجامع أبي حليمة...؟

ثم توجه إلى صلاح وقال له بابتسامة ركيكة:

– لك ما تريد... اطمئن... لن أخذلك ولن أذكر اسمك إن سئلت بشأن تلك الفتاة... لكن... كيف أضمن أنك لن تستغل الشريط ثانية...؟ عليك إتلافه في الحين...

– دع عنك ذلك... عليك أن ترتاح وتهنأ بالا... فأنا الضامن الوحيد لكل شيء... لن أتلف الفيديو قبل أن أتأكد أنني خارج الموضوع تماما... سأتركك الآن ولكنني سأعود ثانية وعندها قد أكون بمزاج آخر وحاملا لقرارات أخرى... هذا يتوقّف على مدى ذكائك وعدم استهانتك بذكائي وبطشي... إلى اللقاء يا ابن أبيك...

–

وقبل أن يغادر، قام صلاح بتنزيل ذلك الفيديو على هاتف كريم وقال له:

– سيعينك هذا على مراجعة دروسك... راجع نفسك جيدا... راجع جيدا يا ابن أبيك...

وابتعد بين السيّارات ليمتطي دراجته الثقيلة وينطلق بسرعة، بينما بقي كريم باهتا يتأمل هاتفه، ويحاول تركيز اهتمامه على أي شيء من حوله دون جدوى حتى تفطن إلى رفاقه يقفون أمام باب الكلّيّة الحديدي العالي من الجهة الأخرى للمعبد ويراقبون ما يجري.

أكملت عواطف حقن مريم وإعطاءها دواء تشربه وبعد أن بدّلت لها ضمائدها انصرفت من الغرفة قائلة:

– سألقي عليك نظرة فيما بعد... لكنني لن أكون بمفردي... سأعود لأطمئن عليك صحبة طاقم طبي موسع.

أصبحت مريم أفضل حالا رغم قصر فترة تواجدها بالمستشفى بفضل الأدوية التي وصفت لها والتي أعطت نتائج إيجابية وقلّصت أوجاعها. ولكنها لن تغادر المكان قبل بضعة أيام لضرورة إجراء فحوصات شاملة وكاملة ستمكّن الأطباء من تقدير حجم الأضرار الدّاخلية والتدخّل في حال ظهور تعكّرات ثانوية. لم تعر الصبيّة اهتماما لما قالته الممرّضة مدركة أن كمّ النفاق بين ثنايا حديثها كبير وغالب على منسوب الاهتمام والالتزام المهني أو حتى الشفقة. جلست لبرهة على حافة سريرها ولكنها نهضت لتقوم بجولة في أركان القسم حتى تحرّك قوائمها وتنشّط دورة الدم داخل عروقها وبالأساس لقتل الوقت الطويل والمملّ. وبعد أن ترنّحت وتمايلت وتعثّرت، وبعد بضعة خزائن معدنية نخرها الصدأ، وبعد بعض المرضى والكثير من الزّوّار يأكلون ويتفكّهون ويتفاكهون ويسدّون الطريق أمام عاملة النظافة المشغولة بهاتفها الجوّال، وبعد أن أحسّت أن قواها بدأت تخور من شدّة التعب والوجع، ارتأت أن تقف للحظة بجانب باب غير موصود كتب عليه " يمنع الدّخول لغير العاملين بالقسم"، فإذا بها تسمع أطراف حديث بين عواطف وحسيبة والدّكتور لطفي والذين كانوا يتهامسون مرة، ثم يضحكون أخرى، ثم تعلو أصواتهم لوهلة كي تنخفض إثرها لوهلة أخرى متقطعة بصرخات ساخرة وخبيثة. في تلك اللحظة رنّ هاتف مريم في جيبها... إنه رجب يطلبها ليطمئن على حالها ويسألها كيف قضت ليلتها الأولى بالمستشفى...

وهل كان اعتناء الممرّضات بها جيدا أم لا... وهل أزعجتها المريضة التي ترقد بجانبها بنفس الغرفة بشخيرها وصراخها وضراطها... وهل أكلت ما جلب لها من حساء وطاجين وموز وياغرت... وما جلبه لها الأقارب من برتقال وبسكويت وياغرت... وهل تناولت الدواء بعد الإفطار أم في التحلية ممزوجا بياغرت... وهل يسمح لها بقبول زيارة أحد أفراد عائلتها في الصّباح... وهل تريد أن يحضر لها معه نفس الياغرت... وإن رغبت في غيره فكم علبة... وهل يسمح لها بالتنقل بين أركان القسم... وهل قام الطبيب بفحصها... وإن فعل فهل أخذ بشأنها قرارا ما... وهل ستجرى لها فحوصات تكميلية أخرى... والأهم من كل ذلك إن كان المحقّق سالم قد عاد لاستنطاقها وأخذ أقوالها للتقدّم في سير ومجريات البحث عن الجاني علّه يقبض عليه في أبكر الآجال كي ينال عقابا يليق بما فعل. كانت كلها أسئلة لا تتطلب أكثر من الإجابة بنعم أو بلا. لذلك اكتفت مريم بهمس الإجابات بطريقة مقتضبة ومدّخرة للمجهودات. وعندما أنهت المكالمة وطمأنت بال والدها عليها بشيء من السكينة، أقفلت الخطّ وإذا بحديث الممرّضتين والطبيب في تلك الغرفة المنعزلة يشدّ انتباهها ويبعث في روحها اليقظة ويدفع بجسمها المريض كي يقترب من الباب أكثر فأكثر حتى التصقت به، ثم وضعت أذنها فوقه فبانت إذا ما أقبل عليها أحد ووجدها في تلك الوضعية وكأنها تبحث عن الراحة وتسترجع طاقتها لمّا نال الإجهاد منها، فلا يتفطن إلى أنها تسترق السمع خلسة. والقليل مما اختطفته من ذلك الحديث جعلها تشغل تطبيقة التسجيل السمعي في هاتفها لتوثّق ما سمعت. ثم عادت مترنحة إلى سريرها، مثقلة الكاهل لا تعرف ما الّذي قد تتكشّف عليه من أسرار في ذلك المكان في قادم الساعات. وبعد أن وصلت إلى سريرها بوقت دخل عليها كامل فريق العمل بذلك القسم: د. نعيمة، د. يسري، د. لطفي، عواطف، حسيبة، فيصل وأنور. أي التف بمريم على غير العادة أفراد

فريق النهار مع أفراد فريق اللّيل والّذين أبوا أن ينصرفوا إلى بيوتهم قبل أن يطّلعوا على آخر المستجدات والتوصيات فيما يتعلق بمريضتهم الفذة.

لم يخل الموقف من التركيز على وجه نعيمة وما حمل من تعابير الارتباك والحيرة. فلقد عادت المرأة لتوّها من مكتب الشؤون القانونية أين وقع استجوابها بشأن سرقات متكرّرة وبالغة الأهمية والقيمة من معدات القسم، كانت لجنة المراقبة بإدارة المشفى قد استخلصت نتيجة يصعب التشكيك فيها وهي أن تلك السرقات قد وقعت ليلة كانت نعيمة في المداومة. وبما أن الأمر على درجة عالية من الأهمية فإن الوزارة أصبحت على علم بما يحدث فقررت إرسال هيئة لتحقّق في ما حصل قبل إحالة الموضوع على القضاء. لم تتضايق أم كريم من غمزات زملائها الحاقدة ولكنها كانت تحاول تفادي عيني مريم اللتين امتلأتا قهرا وغليانا وعبّرتا عن شيء من التذبذب والضياع الّذين لم تلاحظهما عليها منذ حين عندما واجهتها بمعرفتها أن من عنفها ليس سوى نجلها المصون. ومضت الدّكتورة تتلبّك وتخطئ في الكلام، وفيما عدا يسري وفيصل كانت تقاسيم وجوه الآخرين موشحة بالشماتة وبابتسامة مزعجة وحقودة. وزاد قلق نعيمة وانعدم تركيزها وتفاقمت لخبطتها للتشخيص وأسماء الأدوية والوصفات الطبية رغم مساندة يسري لها، وكانت بالكاد تجبر ساقيها على عدم الاتجاه بها جريا خارج الغرفة والقسم والمستشفى برمّتها هربا من المواجهة والاتهامات. حتى جاء الفرج يخلّصها من ذلك المضيق حين دخل رجب متبوعا بزوجته رشيدة متلهّفا لرؤية ابنته والسّؤال عنها، ومحملا بأكياس امتلأت غلالا ومرطبات وقوارير ماء وطبعا ياغرت. صاحت نعيمة بقوة في وجهيهما وعاتبتهما بشدّة (وإنما بلطف مدارى حتى لا تزيد من استفزاز مريم وكأنها تحاول أن تذكرها أنها لا زالت تتحكم بزمام الأمور) على عدم احترامهما عمل الأطباء ومن معهم، وعدم احترام مواعيد الزيارة المرخّص فيها وأنها ستتخذ

إجراءات صارمة وحاسمة لدى إدارة المستشفى كي تضع حدا لهذا التسيّب وتحاسب أعوان الأمن الدّاخلي على عدم قيامهم بواجبهم على أحسن وجه بتركهم أقارب المرضى يدخلون عليهم في كل فترات النهار واللّيل. وأنهت وصلتها وهيجانها بتذكير رجب وزوجته أنها تسعى إلى توفير أقصى درجات الراحة والسكون إلى أن تتمكن ابنتهما من التعافي في أحسن الآجال وقالت لهما ألا يعتبرا في ردّة فعلها تلك سوى المنحى الحرفي الّذي لا تنحرف عنه والّذي طالما تعاملت به وبكل تجرّد مع القاصي والداني مهما كانت مستهدفة من قبل قوى تخريبية وهدامة لا تضع نصب عينيها الصالح العام وكرامة المواطن... وختمت كلمتها والغصة تخنق حنجرتها لإحساسها بالعزلة في ذلك الحين ورمت ملفات المرضى أرضا وخرجت تاركة المكان بمن فيه بين من يتغامزون ويتهامسون بلؤم وبين من ذهلوا لتصرفها الغريب وغير المعهود والمبالغ فيه.

بينما انحنى فيصل يجمع ويصفف ما تبعثر على الأرض من أوراق، جرى د. يسري وراء نعيمة ليلحق بها ويهدئ من غضبها ويطمئنها أن الأمور ستسير على أفضل الوجوه وأن التّحقيقات ستثبت أنها فوق كل اشتباه أو لبس، وأن سمعتها ستبقى ناصعة كما كانت منذ عرفها منذ أكثر من عشرين سنة. من الجهة الأخرى انتظر د. لطفي خروج فيصل من الغرفة حتى ينفرد بمعيّة عواطف وحسيبة وأنور بمريم ووالديها وقال لهم متصنّعا:

– لست أدري ما الّذي يحدث... لم أر يوما زميلتي على هاته الحال منذ عرفتها... فهي في العادة لطيفة وودودة مع المرضى وأقربائهم... بل إنها هي من يشجّع أهل المرضى على المجيء إلى المستشفى في أي وقت يحلو لهم كي يمدوا يد العون للممرضين... لنقص عددهم وعدم قدرتهم توفير العناية الكاملة وتحمل عبء النزلاء ومتطلباتهم المضنية... ما الّذي جعلها تنفعل بهذا الشّكل...؟ مريم

يا بنيّتي... هل هناك أمر نجهله في علاقة بالدّكتورة نعيمة...؟

أشارت الفتاة برأسها بلا، لكن عواطف لم تقتنع بتلك الإجابة فاقتربت منها وبدأت تمسح شعرها وتربت على كتفها وتستجديها بكل لطف وحنّية أن تدلي أمام الجميع بما لديها كي تحسن التّصرّف معها وإن لزم الأمر رفع الموضوع إلى إدارة المستشفى فيقع إبعاد تلك الطّبيبة من الإطار الموكل له الاعتناء بها وقالت بصوت لئيم:

– أعدك أن أقف إلى جانبك للإدلاء بالشهادة على ما وقع... كما سيسعد زملائي أنور وحسيبة ها هنا، والدّكتور لطفي الّذي طالما وقف مع الضعفاء في مواقف مماثلة وسالفة أن يدعموك بالشهادة هم أيضا.

وهنا أضاف لطفي:

– كل ما عليك فعله هو ملء استمارة تظلم... سيشرفني يا ابنتي أن أتحول بنفسي إلى مكتب العلاقات مع المواطن لجلب واحدة منه.

ثم التفت إلى حسيبة وقال لها بكل ثقة:

– سيدة حسيبة... رجاء أن تساعدي مريم في ملء الاستمارة بعناية وبدون أخطاء.

هزّت حسيبة رأسها بنعم وقد بان على وجهها عدم الموافقة على المناورة التي دخل فيها زملاؤها للإيقاع بمريم في مكيدة ستمكنهم من الإيقاع بنعيمة. تفطن لطفي إلى تردد حسيبة في مجاراته فقال في محاولة للإيقاع بنعيمة وبمريم في شراك فخه:

– في الواقع لا مناص من الاعتراف بأن تصرف الدّكتورة لا يمتّ إلى الإنسانية بِصِلة... بل إنه عجرفة وتسلّط وعدم إحساس بالشفقة... الدّكتورة نعيمة تسيء بتصرفها معكم إلى سمعة الأطباء ومن معهم من الساهرين والمضحين بالغالي

والنفيس من أجل راحة المرضى... بل إنها تسيء إلى سمعة المستشفى بأكمله والهياكل العمومية بصفة أشمل. إن خبرتها وأقدميتها لن يشفعا لها إن تطلّب الأمر أخذ تدابير استثنائية تجاهها وإجراءات ردعية ضدّها، فهي مطالبة بضبط النفس وتأدية واجبها على أكمل وجه وحسن معاملة المريض وأهله والانضباط اللا مشروط بمبادئ الطبيب النبيلة التي أقسمنا على عدم الذّود عنها كلّفنا ذلك ما سيكلّفنا.

تهيأ لمريم أنها أمام تلفازها الصغير بصدد مشاهدة نشرة الثامنة مساء لشريط الأنباء على القناة الوطنية الرئيسية وأن مخاطبها مسؤول وزاري يتوعّد بالقضاء على الرّشوة والزجّ بالرّاشين والمرتشين في السجن. وهنا أحسّت بقرصة بطن وخافت أن يقع القطع نهائيا مع الفساد فلا تتمكن لسوء حظها من شراء ذمة أحد المسؤولين النافذين كي يعينها على النيل ممن كان في مصابها سببا. فخضخضت رأسها المتورّم كي تسقط منه تلك الفكرة النجسة وأخذت جهاز التحكم عن بعد لتتحول إلى القناة الثانية وبدا لها لطفي وكأنه أحد كبار المسؤولين بالجمارك في خطاب مشحون بالصرامة والحزم إيزاء ما يفعله المهربون بالبلاد من اقتصاد مواز وتضخم مالي وما انجر عن ذلك من هشاشة في أجهزة الدولة التي أصبحت ضعيفة منهارة أمام بارونات الفساد. وهنا كانت قرصة البطن أشد حدة لأنها رأت البلاد نظيفة من كل السلع الأجنبية المهربة التي اكتسحت الأسواق وكاد يغمى عليها عندما تخيلت مدن الجم وما شابهها قاحلة خالية من النّاس والباعة والمحلات التي عرفت ببيع السلع الصينية والتركية من دون تراخيص ديوانية، وغمرتها العبرة من سخط ما قد تؤول إليه الأمور من مشاكل قد تواجهها الدولة لإعادة إدماج هؤلاء التجار ورؤوس أموالهم في الدورة الاقتصادية النظامية وتشجيع المستثمرين المحليين على سد الشغور، والّذي حز في نفسها أكثر من كل شيء هو أنها لن تتمكن عقب ذلك

من شراء ما ينقصها من جهاز العروسة. لذلك غيرت القناة مرة أخرى فوقعت على قناة خاصّة بائسة، فترت نظارة صورتها، وبلحت ألوانها وقد ظهر فيها باهتا شبه وزير الفلاحة يحلف أغلظ الأيمان ويقسم بعرض أمه وشرفها أن يؤمن الاكتفاء الذاتي من الحبوب واللحوم والحليب حتى نحقق الأمن الغذائي لنا وللأجيال القادمة وللمغرب العربي وإفريقيا إن أعربا عن رغبتهما في ذلك وأن يرمّم السدود ويزيد من طاقة استيعابها وإن شحّت السماء من الغيث النافع فلن يتردد عن ملئها بالمياه المعدنية. ولمجرد فكرة أن المياه المعدنية قد تسحب من الأسواق لتسكب في الوديان خرت مريم على سريرها وخنقها الضيق وحزنت وتكدّرت. كيف لا وهي ما انفكت منذ سنتين تجمع المال لكراء مخزن كبير في حيها سيكون مشروعا يعينها على تأمين مستقبلها ويتمثل في نقطة لبيع المياه المعلبة بالجملة والتفصيل وبعيدا عن أشعة الشمس والغبار والرطوبة.

أطفأت الفتاة شاشة التلفاز وعادت إلى أستوديو الواقع أين أصبحت تتأرجح بين وشك الاقتناع أن نعيمة على درجة عالية من المكر والدهاء وسوء النية، وأن ما حلّ بها إنما درس لا بد لها أن تستوعبه وتتعلم منه ليردّها إلى رشدها... وبين قناعة لا شك فيها أن مخاطبيها ليسوا إلا ثلة من الأفّاقين والمنافقين بصدد نسج شبكة عنكبوتية سيرمون في شراكها بزميلتهم المثالية ليزيحوها عن طريقهم كي يحقّقوا مصالحهم الذاتية والرخيصة والمغرضة، وها هم لا يترددون في استغلال مريضة لا حول ولا قوة لها، وانتهاز ضعفها ومرضها حتى تستعمل شهادتها ضد أم كريم. وانهمك الرباعي في الحديث فيما بينهم متظاهرين بعدم الاكتراث بتواجد عائلة رجب بالغرفة ومتفنّنين في البوح بأسرار وخبايا عن نعيمة وعن تسلطها وتكبرها وعما قاساه زملاؤها منها على مرّ السنين التي عملت بها بالمستشفى وكل الّذين تداولوا على قسمها واضطروا إلى الانتقال منه إلى آخرين حتى لا تتسنى لهم فرصة

الاحتكاك بتلك الظالمة من قريب أو من بعيد.

لم تستسغ رشيدة ما قيل من حولها وضاقت ذرعا وسئمت البقاء في تلك الغرفة والاستماع إلى المزيد، وكأنها قد تجاوزت بأميال طاقتها لاستيعاب المشاكل بما أنّ ما لها منها كاف وكفيّ، لذا قامت بوضع القفة التي جلبتها معها على سرير مريم وأخرجت منها علبتين، امتلأت الأولى بحساء دافئ قدمته إليها وأمرتها أن تأكله، وأما الثانية فقد كان بها مرطبات صنعتها بيدها منذ الفجر، وقد تدفقت منها رائحة طيبة جعلت الرؤوس تلتفت إليها، إلا أن المرأة أخذتها وتركت الغرفة بمن فيها واتجهت إلى بهو القسم أين وجدت فيصل فقدّمتها إليه مع ابتسامة عريضة ودودة. وطلبت منه أن يترك ترتيب أكداس الأوراق التي بعثرتها نعيمة إلى حين آخر، وأن يهنأ إلى قسط من الراحة مع ما جادت به يداها من المرطبات التي صنعتها على الطريقة الإيطالية الأصيلة. وسألته إن كان يرغب في كوب من الشاي أو فنجان قهوة فما عليه إلا أن يطلب منها ذلك وستكون سعيدة بجلبه له في الحين من مشربة المشفى. إلا أن الرّجل تمنّع كي تبقى معه لوقت أطول. صحيح أنه يُشهد لفيصل بالانضباط والالتزام لكنه لا يمانع أن تمتنّ عليه السيّدات والآنسات الوافدات على القسم من وقت إلى آخر بشيء من اللطف الّذي يهوّن عليه شقاء مهنته رغم معرفته أن ذلك اللّطف ليس بالمجاني وإنما مقابل خدمات إضافية سيسديها إلى أقاربهن المرضى. وكان يدرك في تلك اللحظة أن رشيدة سيّدة ذكية ونبيهة توخّت مثله الحذر في استمالته ببعض الأطايب من أجل أن يكون اهتمامه بمريم أكثر. إلا أنه كان يجهل سبب اختياره دونا عن غيره. رأت المرأة بعد سماعها لما سمعت من زملاء الرّجل أنهم ربّما على درجة عالية من الوقاحة التي تجعلهم يمسكون بزمام الأمور إلا أنهم لن يقدّموا شيئا طواعية ولن يفيدوا مريم بشيء، بينما هذا الرّجل البشوش الّذي استقبل ابنتها بالأمس يبدو وفيّا لأخلاقه المهنية ومروءته. وبما أن

موظف الاستقبال كان قد أوصاها هي وزوجها رجب أن يقدّموا هديّة لأحد ممرّضي القسم كي يزيد اعتناء ببنتيهما، فإنها لم تتردد في قصد هذا الأخير الّذي وعدها بألا يخذلها وأوصاها أن تمرّ عليه بين الحين والآخر للسؤال عن حال ابنتها وأشار عليها أن يترك لها رقم هاتفه الجوّال حتى تتصل به قبل مجيئها في كل مرة فتجده بسهولة.

كان اجتماع مجلس أساتذة الكلّيّة قد انطلق منذ ما يزيد عن الربع ساعة داخل قاعة صغيرة تتوسط مكاتب الإداريين في الطابق العلوي من مبنى الكلّيّة. وكان العميد حسين يترأس الحصة وينشطها بكل حماس بما أن موضوع انتخاب خلف له يحتل المحور الرئيسي في النقاشات. كرّس الرّجل من عمره فترتين انتخابيتين متتاليتين أرادهما أن تنهيا مشواره العلمي والأدبي قبل إحالته على شرف المهنة مؤكدا في كل مرة رغبته في التفرغ نهائيا إلى السياسة، إذ كان منذ فترة قد التحق بأحد الأحزاب الصاعدة أين وُعد أن يتقمّص صلبه دورا محوريا.

أخذ التململ والقلق مأخذهما من الحاضرين، فالجميع يطمع إلى اعتلاء كرسي الدّكتور حسين من بعده وأولهم الدّكتورة إلهام التي يتمّ انتخابها كل سنة على رأس لجنة الامتحانات فتسهر على اختيار الأسئلة والتثبت من تطابقها مع مدى استكمال برامج كل السنوات الدراسية، ثم تضع جداول الاختبارات وأوقاتها لكل دفعة، وتدرج أسماء المعيدين ومن ينوبهم إن تغيّب منهم أحد، وتختار منهم من سيتولى المراقبة ومن سيتكفل بالإصلاح حسب جداول أوقاتهم وانشغالاتهم دون أن تفرض عليهم مهاما تنغّص عليهم شؤونهم اليومية أو عطلهم خاصّة الصيفية التي تتزامن مع اختبارات دورة الإسعاف. ولكل هذا العمل الجلي فإن المرأة كانت محبوبة من جميع الأساتذة الّذين دأبوا على كسب صداقتها، ومن جهتها كانت لا تتردد في إرضاء أغلب زملائها (خلسة وبمقابل مالي يضبط حسب العرض والطلب) حين يطلبون منها نسخة من امتحان سيمتنّون بها على أحد أقاربهم أو معارفهم أو من كان لهم به مصلحة من أولياء أمور الطّلبة النافذين في البلاد و من أصحاب المناصب الاجتماعية المرموقة.

بالمقابل جلست د. وصال تدافع عن حظوظها في الترشح لذات المنصب.

كيف لا وللمرأة من الأقدمية المهنية والإنتاج الأدبي والفكري ما يكفي ليجعلها تنافس على منصب وزير التعليم العالي برمّته. كما يعرف على المرأة علم وثقافة تحسد عليهما، وربّما كانا نقطة ضعفها... إذ جلبا لها غيرة من أحاط بها وأوّلهم د. عبدالله الّذي كان كلما أتيحت الفرصة كي تبرز فيها الأستاذة وصال على الساحة الثقافية أو الإعلامية في الدّاخل أو في الخارج إلا وكسّر مقاذيفها وأحبط عزائمها وادعى أنها لا تملك من الكاريزما ما يجعلها قادرة على تمثيل النخبة الأدبية أحسن تمثيل أمام نظائرها العرب في الملتقيات الفكرية التي تجرى بصفة دورية في أغلب البلدان العربية منها أو الأوروبية. وكان في كل مرة يقنعها بأسلوبه الخاص والسلس أن تترك المجال لغيرها للعب مثل تلك الأدوار الجلية والتي تتطلب تمرسا واعتدادا بالذات ولم لا بعض الوقاحة. وكان ينجح في إقناعها أنها ستكون بأفضل حال إن تحصلت على عمادة الكلّيّة لأن ذلك المنصب سيكون بمثابة مركز تمرين سيسهل عليها فيما بعد المرور إلى الأنشطة الدولية والعالمية. واهتدى شيئا فشيئا إلى زعزعة ثقة السّيدة بنفسها حتى ابتعدت عن تلك المحافل لصالحه ولصالح غيره. ولكنها اليوم تتغلب على رهابها وتأتي مطالبة باستحقاقها الانتخابي عملا بنصح عبد الله ذاته الّذي وعدها أنها ستحظى بمؤازرة الجميع لها من الوهلة الأولى.

بدا الأمر ليكون هيّنا على الأديبة لو لم تكن المنافسة على أشدّها بترشح كل أعضاء المجلس العلمي بما في ذلك مراد وحليمة وبالطبع أبو كريم الّذي فاجأ وصال بتقديم ملفّه إلى إدارة الكلّيّة والوزارة وطلب الدعم منها. وعندما عبرت له عن استيائها من تصرفه الّذي من شأنه أن يقلّص حظوظها في نيل العمادة، أكّد لها أن ترشحه صوري لا غير، ففي حال وجدت نفسها فيما بعد وحيدة في المضمار، ستتهم بالتّلاعب بأصوات ناخبيها وبتأثيرها على اختياراتهم لصالحها. وأكد لها أن تواجده كمنافس سيضفي على العملية الديموقراطية برمّتها نزاهة وشفافية لا

ريب فيهما. وبما أنها الأوفر حظّا من بين زملائها للنجاح فإن فوزها أمامه سيزيد رونقا وبهرجا وإشعاعا في الدّاخل والخارج الّذي طالما رنت إليه. ووعدها أنه لن يدّخر جهدا في إزاحة الآخرين عن طريقها لما علق بسمعتهم المهنية منها أو الشّخصية من شوائب لن تخدم صالحهم أمام المصوّتين، وذكّرها أن إلهام تغشّ وتتلاعب بالامتحانات وبمستقبل صفوة شباب البلاد على مرأى ومسمع من الجميع، بينما حليمة لا ترتقي إلى مستواها العلمي، في حين أن مراد عرف عليه أنه انتهازي ومتحرّش وعلى علاقة حميمية مع إلهام وهذا يخلق تضارب مصالح بينهما. ولم يفوّت الفرصة ليقول لها أن العميد المتخلي سيقف حجرة عثرة أمام مراد لأنه لا يحمله في قلبه خاصّة بعد تداول إشاعة في الفترة الأخيرة مفادها أن العميد ينوي التمسك بمنصبه والتمديد في فترة عمله لأربع سنوات أخرى.

انتهى اللقاء في ساعته وفي تاريخه، وانطلق الأدباء والمفكرون يغادرون مقر أعمالهم في اتجاه مقرات سكناهم بعد المرور على العطار أو الجزار أو الخضار... أو غيرهم لجلب مستلزمات عائلاتهم، ما عدا عبد الله الّذي كان قد أوهم زوجته أنه في مهمة بيداغوجية تستوجب تنقله إلى العاصمة، فقد قام بامتطاء سيّارته مسرعا إلى منزل حبيبته. وأما حليمة فقد تركت سيّارتها بمربض الكلّيّة وغادرتها مترجلة إلى مطعم قريب من هناك كي تبتاع أطعمة جاهزة كانت قد طلبتها منذ دقيقة بالهاتف. لم تلاحظ المرأة في تلك اللحظة أن الدّكتور مراد كان يتبعها لأنه كان بدوره ينوي شراء أكل جاهز من نفس المطعم وبالأساس لأنه كان ينوي محادثتها على انفراد فيما يخصّ الانتخابات. كان يترنح خلفها ويتكلم في هاتفه الجوّال حين وصلت المرأة إلى المطعم واستلمت طلبياتها ودفعت ثمنها وها هي تستعد لتعود أدراجها إلى سيّارتها بالكلّيّة إلّا أن صوتا معهودا يفاجئها من الخلف:

– هل أحضرت مؤونة الأكل لأسبوع كامل...؟

استدارت فوجدت كريم يقف وراءها. ابتسمت وقالت مرحّبة:

– مرحبا كريم... لا... لم تظن ذلك...؟

– أعرف أنك تعيشين بمفردك... ولكنني أراك تحملين أكلا كثيرا... هل تنتظرين ضيفا...؟

– أجل... هو كذلك... تبدو غريبا... ما الأمر...؟

– لن أضيع الوقت... أنا على علم بعلاقتك بوالدي... كيف تجرئين...؟

ارتبكت حليمة للحظة وجفّ حلقها ولكنها تماسكت وتداركت الأمر كأي معلم يحسن كبح جماح تلميذ يتجاوز حدود الأدب مع معلمه وقالت:

– بل أنت... كيف تجرؤ...؟ ما يجمعني بوالدك نشأ قبل مجيئك إلى الدنيا... أنا أحبّه... وهو يحبّني...

– وما الّذي ينبغي أن أقول لك عندما تخبرينني أنكما على علاقة غرامية قديمة...؟ ما الّذي جعله يتزوّج بغيرك إذن إن كان بالفعل حبٌ ما يكنّه إليك...؟ أو ربّما حميّة الحبّ جعلتك تغفلين عن طرح هذا السّؤال عليه إلى اليوم...؟

لم تبن على وجه حليمة الدهشة أو بوادر المفاجأة، ففي مثل هذه المواقف وعندما يصارح أحد غيره بأنه يعرف عليه سرا جللا ينتظر منه على الأقل وبكل عفوية أن يسأله "كيف عرفت ذلك؟ " وهذا الشّيء جعل كريم يستغرب الأمر ويتأكّد أن عشيقة والده على علم بالتسجيل الّذي يمسكه عليها صلاح. لكن المرأة بدت ممتعضة لذا حدّقت في وجه الشّاب وقالت له بكل ثقة:

– وما المطلوب مني الآن...؟ ما الّذي يرضيك سيّد كريم...؟

– لست أدري...

– تريد مالا...؟

– ربّما... لست أدري...

– إذن ماذا...؟ ليكن في حسبانك أنني لست فخورة بوقوفي أمامك... ابن الرّجل الّذي أعشقه منذ ربع قرن... تساومني وتهدّدني لعلمك بعلاقة أعطيت فيها الغالي والرخيص لإنسان ليس لي ذنب تجاهه سوى أني أحبّه حبّا صادقا ومخلصا... عاقبني والدك فيما فات من عمري بأن تزوّج امرأة غيري... لا يحبّها بقدر ما يحبّني... وهي لا تهواه مثلما أهواه أنا... والآن أقف متّهمة أمام ابنه... ابن تلك المرأة التي ظفرت بحبيبي ... ولقبه... وبالنور في حياته... وبشرف إعطائه الأبناء الّذين كانوا من المفروض أن يكونوا أبنائي أنا... أقف لأدافع عن نفسي...؟ لأبرّر ما أخفيت طوال عمري... أقف ليرى على وجهي الخزي والخجل مما يحمله ذلك الشريط...؟ أقف أمامك لتحاسبني على ما أشترك فيه مع والدك... على ما يخصّنا نحن الاثنين دون غيرنا...؟

لا يا بني... لن أقبل أن يحاسبني أحد على ما ضحّيت به من أجل والدك... إن كان أحد أجدر مني بمشاهدة الشريط فهي والدتك... أنا على علاقة بعبد الله وكنت أعرف أنه متزوج... أما هي فقد ظفرت به زوجا ووالدا للأبناء الّذين حرمت أنا منهم... أنصحك أن تأخذ شريطك معك... وتواجه به نعيمة... آن لتلك المسكينة أن تعرف حقيقة ما يجري من ورائها... اذهب إليها... وإن كنت تنوي ابتزاز المال بما لديك... فلربّما أعطتك والدتك أكثر مما كنت عازما اقتلاعه مني... لا لشيء... إلا لتبقي الأمور على ما هي عليه...

وانصرفت نحو الكلّيّة من جديد لتأخذ سيّارتها مغمورة بالفخر وإحساس بالخلاص من حمل سنين، وكلّها أمل أن تكون مصارحتها مع كريم نقطة البداية لإشهار علاقتها بحبيبها، ولم لا طلاقه من نعيمة كي يصبح أخيرا من نصيبها لوحدها.

لم يخطر ببال السيدة أنها كانت على مرأى من زميلها مراد الّذي توارى عن

الأنظار وراء سيارة، يسترق السمع إلى ذلك السرّ الّذي قد يساعده في ابتزاز أطرافه.

تتوقّف سيارة تاكسي أمام فيلا عبد الله وينزل منها كريم ونعيمة وملاك وشيراز. كان الصمت سائدا عندما دخلوا إلى المنزل لنيل بعض الراحة قبل العودة إلى حصص الدراسة المسائية. لكن كريم لم يبقى أكثر من عشر دقائق ليستلّ مفتاح سيّارته من حقيبة أغراض والدته ويخرج من البيت عنوة أمام تصدّيها وصراخها ووعيدها.

كانت الوجهة إلى المطعم الّذي اعتاد ملاقاة أصحابه فيه. دخل عليهم بوجه مكفهرّ ومثقل، فوجدهم يسترجعون ما حدث معه في الصّباح مع صلاح الّذي لا يعرفون له صلة من قبل بابن أستاذهم. وسألوه عمن يكون ذلك الغريب فامتنع عن الإجابة وقال أنه ترك البيت وأتى كي لا يفكر في الأمر وكي يبتعد عن الجو المشحون الّذي تسببت فيه والدته منذ البارحة.

وأدار وجهه عنهم، حتى إذا ما خفّ عنه اهتمامهم به عاد يحدق بهم الواحد تلو الآخر. من جهة كان إسكندر يدخن سيجارة حشا في تبغها لفافة من القنّب، غير مكترث بما يدور من حوله وبما قد يجنيه فعله عليه وعلى أصحابه إذا ما ضبطه شرطي في تلك الحال. وها هي عفاف تنظر إليه بحزن المحبّ من طرف واحد، متحسّرة عليه وعلى ما فعله الإدمان به. وبجانبها كانت ماجدة تحاول جلب أطراف الحديث معها لتلهيها عن إسكندر حتى لا تقع في أوهام حب شبه مستحيل قد يرمي بالفتاة في متاهة يصعب الخروج منها. من الجهة الأخرى من الطّاولة التي اجتمعت حولها الشّلّة، كان سامي مفرطا في الضحك والنميمة والتباهي أمام سندة التي لم تكن تعيره اهتماما يذكر، بل كانت تذبل أهدابها لابن عبد الله وتنظر إليه من تحت رموش عينيها الاصطناعية وكأنها تستجديه أن يعيرها بعض التقدير والامتنان لموقفها الشجاع والجريء الّذي اتخذته البارحة أمام الشّرطي. وتفرّس

كريم في أصحابه وتقاسيم وجوههم وملامحهم وتعابيرها وانتبه إلى إشاراتهم وأحاديثهم وكلماتهم وألفاظهم وعباراتهم خاصّة الجاهزة منها، وتاه من جديد بين تأملاته وأفكاره وقال لنفسه:

– المشكلة... هي أن ما يظهر على المرء... لا يوحي... ثم لا يمت بشيء إلى ما يجول في غياهب رأسه...

إسكندر يبدو منتشيا وسابحا في سحابة الدخان المنبعثة من سيجارته المحشوة حشيشا... ربّما كان تاجر مخدرات أو... مغتصبا... مندسّا بيننا...

عفاف تبدو بسيطة... لكنها تحب المال... لا بد وأنها تسرق وتختلس والديها...

سندة... لطيفة وجميلة وبنت ذوات... هي أيضا قد تكون على علاقة حميمية... أو لم لا... جنسية مع... لست أدري... ربّما مع سامي... غبي...

سامي... فكاهي وطماع وانتهازي... أظنّه من عائلة مترفة وذات أملاك وأطيان... ولكنه تربّى على البخل والشحّ...

ماجدة... من تكونين...؟ أنت الوحيدة التي اعتدناها عفوية ودون قيود... ربّما كنت زعيمة عصابة في حيّك... أو تنتمين إلى جماعة إرهابية تدافع عن أفكار هدّامة... أو تتاجرين بالدّين... أو الأسلحة... لست أدري...

وجوه النّاس لا تطابق أقوالهم... وأقوالهم لا تطابق أفكارهم... وأفكارهم لا تطابق أهواءهم...

من تكونون أنتم...؟ ومن أكون أنا...؟

وأتى صوت عفاف يقطع عليه خلوته حين قالت له:

– كريم... تعرف أنني من نفس حي تلك الفتاة التي تتّهمك بأنك وراء تعنيفها... حسب ما قاله المحقّق عندما جاء إلى هنا... أردت أن أقول... أن الجميع... بالحي... يقولون نفس الشّيء...

اسمها مريم... من عائلة بسيطة جدا...

حذاري... فأهل الحي يهدّدون بالقصاص منك إذا ثبت بالفعل ضلوعك في ما حلّ بها...

وهنا قاطعتها سندة بحماسها المعتاد وقالت:

– كيف لفتاة من بيئة شعبية أن تلفّق تهمة شنعاء مثل هذه إلى شاب مثالي مثل كريم...؟ ابن المفكر والدّكتور عبد الله...؟ رمز الاستقامة والأخلاق العالية... الرّجل الّذي سيعتلي عن قريب منصب عمادة الكلّيّة... هذا هراء...

امتعض كريم ولأول مرة من إطناب أحدهم في مديح والده الّذي اكتشف منذ سويعات أنه... "مختلف" عما يتصوره النّاس... حتى لا يذهب إلى قول أنه عكس تلك الصّورة. وانتابه شعور أن شيئا ما ثقل على كتفيه... إنه حمل يطبق على عاتقه... لم يطلب أن يتحمّله ولكنه عبء رغم أنفه. أصبح ملزما بكتمان سرّ غير معني به، والحفاظ على سمعة والده كي لا يصبح رمز الانحطاط والانحراف واللا مسؤولية. أدخل يده إلى جيبه وقبض على هاتفه بكل قوته وكله خوف أن يطير الهاتف بما فيه فيقع بيد أحد الطّلبة أو موظفي الكلّيّة وعندها سيفقد الدّكتور عبد الله عمله ومركزه العلمي والأدبي وهيبته وسينصبّ عليه وعلى عائلته الخزي والعار، لكنه ابتسم في وجه سندة كأنه يبارك تجلّدها ودفاعها عنه وهمّ بالكلام حين سبقته ماجدة وقالت مستاءة:

– أنت دائما سطحية ومتعالية في نفس الوقت... ليس لأن الفتاة من طبقة شعبية... فهي بالضرورة متجنّية وتلفّق التّهم...

فصرخت سندة في وجهها:

– ويحك... أ تشكّين في كريم...؟ يا للخيبة...

– لست أشكّ في كريم... ولكنني لا أسمح أن ترمي استنتاجاتك على البشر

بطريقة سطحية... أنت لا تعرفين الفتاة... ولأنها من بيئة شعبية... فقد حكمت عليها وصنفتها وسخرت منها... ربّما لا يتعدّى الأمر تشابها بالأسماء... أو لخبطة في الهويّات... لا تكوني سطحية... أرجوك...

– بل أنا سطحية... وكلنا سطحيون... ولا أرى ما هو أفضل من أن نكون سطحيّين... انتهى زمن القيم والمعايير البالية والإيديولوجيات يا عزيزتي...

وأنت...؟ من نصبك لتدافعي عن الفقراء والمهمّشين...؟

زمن شي قيفارا قد ولّى ومضى...

– على أساس أنك تعرفين من يكون شي قيفارا...؟

– لا أعرفه... ولا أظنّ أن الفرصة ستتسنى له كي يعرفني بدوره... أنا من أنا... ومن يعرفني... يدرك أنني لن أكون إلا أنا...

– انتهازية وعبثية...

– وهل ترين أن تصنيفك لي سيُنقص من شأني...؟ هل هذا سيحرمني النوم والأكل واتّباع رغباتي وتحقيق أهدافي...؟ هل عندما تقولين لي ذلك... سأشعر بالدوران أو الإحباط...؟ أتتوقعين أن أفقد عينا أو يدا بكلامك هذا...؟

واشتدت المواجهة بين الفتاتين، وازدادت النعوت والأوصاف بين خفيفة متصابية، ومتعجرفة متخلفة... وأمام عدم انتباه إسكندر وعفاف، وعدم اكتراث كريم أول المعنيين بما يجري، صاح سامي في وجه ماجدة يسكتها وينهاها عن مخاطبة سندة بتلك الحدّة والقسوة، لأنه لا يقبل أن يدوس أحد على طرف لها، ولأنها لم تكن مخطئة بمؤازرتها لكريم، تدافع عنه وتصدّ عنه اتهامات رخيصة ومغرضة من فتاة مجهولة لا يعرف حقيقتها أحد.

ومن فرط القلق والضجر عاد كريم إلى سباحة الأفكار والتّساؤلات بعد ما قاله أصحابه:

– سامي يحب سندة ويهواها... ويعشق التراب الّذي تدوس عليه بأقدامها رغم علمه أنها تحب غيره... بل إنه مستعد أن يقف في وجه أقرب أصدقائه ليدافع عنها بكل بسالة...

عفاف وقعت في حب أكثرنا غيابا عن الواقع...

إسكندر: المخدرات... أنت أو لا أحد...

سندة تقول أنها تحبني... لكنها تحب الصّورة اللامعة التي تشع مني والتي أضيفها إلى لمعان صورتها النرجسية...

ماجدة... هي أفضلنا... أنت دائما صريحة وشجاعة في تبليغ آرائك والتمسّك بها... حتى وإن كانت أفلاطونية... لكن... من تراك تحبين...؟ أنت تحبينني أنا... أو بالأحرى من تظنين أنني قد أكون... يا للسخافة... أنت صاحبة الرأي السديد وبعد النّظر وعمق الأخلاق... تحبين وهما... تحبين حلما...

عزيزتي ماجدة... أصبحت أخاف عليك من الاستفاقة من هذا الحلم واكتشاف حقيقته الخفية.

كان عبد الله في بيت حليمة ينتظرها على أحرّ من الجمر فإذا بهاتفه يرنّ، ولما نظر فيه، رأى أنه اتصال من نعيمة. أرادت المسكينة أن يواسيها أحد ويمدّها بالمشورة بعد أن أصبحت موضوعا للحديث بين من أحاط بها، وبعد أن وقع التّحقيق معها هذا الصّباح بشأن السّرقات التي عرفها القسم الّذي تعمل به، وبشأن ما أقدمت عليه من تطاول وتحامل على عائلة مريم، وكذلك بسبب خروج كريم عن طوعها ومغادرة البيت بالرغم من منعها إياه. ولكن الدّكتورة وجدت نفسها عزلاء دون سند، وحيدة وكأنها بلا زوج وربّ أسرة كان من المفروض أن يشاركها بعضا من همومها ويهوّن عليها قلقها. بل إن الرّجل في تلك اللحظة أخفض صوت جرس الهاتف وتركه يرن إلى أن أقفلت من جهتها الخطّ.

ثم ها هو الرّنين يعاود مجدّدا، لكن المتّصل هذه المرّة كان الأستاذ مراد. ردّ عبد الله مستبشرا ولطيفا مع زميله، تملؤ الضحكات كلامه وكأنهما لم يلتقيا منذ أمد. لكنه فوجئ بمراد يقول له أن الأمر حسم، وبات من المؤكد ترشيح زميلتهما إلهام لأنها الأجدر بذلك المنصب لكفاءتها وحسن تصرفها ولثراء معرفتها العلمية ومعارفها بالدّاخل كما بالخارج من الأكاديميين والجامعيين الّذين يعملون على مشاريع استشرافية من شأنها إيجاد بوادر حلول تخدم الصالح العام وتساعد أصحاب القرار في البلاد للخروج من الأزمة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي يعيشها شعبنا منذ سنوات.

كان السيّد مراد[١٧] واثقا مما يقول ومن خطابته المنمقة كما لو كان في إحدى المنابر الإذاعية التي اعتاد المرور بها كلما التجأ إعلاميون إلى إثراء النقاش حول وضع البلاد الراهن ومخرجات الأزمة والتدني الأخلاقي للسياسيين وصناع القرار أمام

١٧ انظر تقرير ص ٢٦٣

تغييب أو غياب الجامعيّين عن القيام بدورهم المفصلي في جعل هؤلاء يلجؤون إليهم لهندسة استراتيجيات الخروج من عنق الزجاجة. استغرب عبد الله ثقة زميله العالية والغريبة عندما كان يحدّثه عن مساندة إلهام اللا مشروطة كي تتمكن من الجلوس وراء مكتب د. حسين بعد التقاعد، وأخذ يسايره ويجاريه في الحديث كي يتملّص منه بذكاء دون الالتزام بوعد فيتروّى بالأمر إلى أن يعرف سرّ تلك المكالمة وما الّذي جعل مخاطبه يتّخذ ذلك الموقف، وكأن شيئا فاته ووجب عليه اكتشافه والوصول إليه فيحكم التّصرّف دون تسرّع قد يندم عليه فيما بعد. أنهى أبو كريم المكالمة وما هي إلا لحظات حتى تلقّى ثانية.

إنها من الدّكتورة إلهام بعينها. تلك التي كان بصدد الحديث بشأنها منذ لحظات مع زميله، ها هي تطلبه وتتودّد له وتكثر من شكره، ممتنة له بأحلى العبارات وألطفها، ومادحة نبل صنيعه وشخصه القدوة. وعندما سألها عن سبب كل ذلك، قالت له:

– د. عبد الله... أريد أن أقول لك أنك كنت دائما خلوقا ومتواضعا... أخبرني د. مراد... أنك بدورك... أخبرته... أنك تساند ترشحي لكرسي العمادة...

لم يطل الرّجل مع الأستاذة ووعدها أن للحديث بقية وأن الأمور ستكون على النحو الّذي سيرضي الجميع. وأقفل الهاتف وبقي يلاعبه بين يديه والحيرة تمنعه من فهم ما يجري والمغزى من وراء ما قاله مراد وما ادعته إلهام. واتجه نحو باب البيت يقف وراءه وينظر من خلال مربعاته البلورية، متلهفا إلى عودة حليمة علها تحمل له في جرابها ما يجيب عن كل تساؤلاته. وبعد ربع ساعة دخلت عليه محملة بأكياس الأكل والمشروبات والعصائر والفواكه الجافة والمكسرات وكأن سهرة نهاية الأسبوع ستنطلق عندها بداية من السّاعة الثانية بعد الزوال. سألها عما يجري فأجابته بكل هدوء أن الكلّيّة بمن فيها على دراية بعلاقتهما، وأولها مراد الّذي رأى

مصلحته في لعب ورقة المساومة معهما قبل أن يرفع الأمر إلى مجلس الجامعة ومنه إلى الوزارة، مدّعيا أنه ارتأى أن يأخذ بعين الاعتبار العشرة التي جمعته بهما وصداقة عشرات السنوات لمواصلة مشوار الكفاح الأدبي والعلمي وتفادي المواجهة التي ستعود بالضرر والخسارة على الجميع.

دفعت نعيمة باب الثلاجة بعد أن صفّفت بداخلها مجموعة من العلب الحافظة أحكمت إغلاقها على ما تيسّر من الأكلات التي أعدّتها لأبنائها والتي سيتناولونها على امتداد يومين، إن سمح بذلك نهم أصغرهم، بما أنها ستباشر حصة الاستمرار بدون انقطاع على مدى يومي نهاية الأسبوع. لم تكن ترغب في الذهاب إلى المستشفى ولكنها وجدت نفسها مجبرة على ذلك بعدما اتصلت بأغلب زملائها لتطلب من أحدهم أن ينوبها لكن دون جدوى.

وعلى غير عادته كان البيت هادئا وخال من أي حركة أو صوت. ففي غياب كريم، واعتكاف ملاك وشيراز في غرفتيهما، تسمّر السيد خليل أمام التلفاز وقطع عنه الصوت حتى يتمكن في صمت تام وبينما يأكل ما امتلأت به جيوبه من حلوى ومكسرات وشوكولاتة من مراقبة تحرّكات من يسكنون معه، وسماع وقع أقدام أي شخص يتوجه نحو الصالون فيخبّئ بذكاء ما لديه من ممنوعات تحت وسادة ويتظاهر بأنه بصدد مضغ علكة، وكان على أهبة ليقول إذا سأله أحد عن سبب قطع صوت التلفاز أن آلة التحكم عن بعد قد اختفت، أما إذا صادف أن صادر أحدهم المأكولات المهرّبة والمخفيّة والغير مصرّحة فإنه سيقفز إلى المطبخ يعاين الثلاجة وما زخرت به أدراجها من أطباق مطبوخة ليُسكنها داخل بطنه المنتفخ والمتدلّي... وفي حال ضاقت أمامه السّبل فلا حرج من الاعتماد على محتويات خزانة المؤونة والخضر ليخرج منها مثلا كيسا من المعكرونة النيّئة التي سيتباهى بقرمشتها غير مهتم بعُسر الهضم والغازات والمغص الّذين سينجرون عن ذلك... أو في أسوأ الأحوال وحتى يقبر جوعه فإنه سيلتجئ إلى ما ليس للأطفال عليها قوة أو إليها ميل: الخضر... سيقضم جزرة محاولا أن يقنع نفسه أنه سيتمتع بحدّة نظر كالأرنب "بوقز بني" أو سيفرّك بعض البازلاء أو الفول ممنيا النفس أن يصبح لونه

يوما أخضر كالعملاق "هولك".

صاحت نعيمة في ردهة المنزل تنادي أبناءها وبناتها، لكن ما من مجيب، فقرّرت تركهم في سلام ليهنؤوا إلى الراحة بعض الدقائق، ولكنها ستعيد الكرّة قبل خروجها إلى العمل كي توجّه إليهم التوصيات الملحّة في احترام بعضهم البعض، وعدم البقاء أمام التلفاز أو الحاسوب لساعات، و أن يغسلوا الأطباق والمواعين بعد الأكل، وأن يمسحوا الطّاولة وألا يتركوا فوقها فتات الخبز حتى لا تجلب النمل (بينما الحال شتاء) أو قشر البرتقال فتتعفّن، وألّا يُبعثروا أحذيتهم في كل أرجاء المنزل، وأن يغسلوا أرجلهم بالماء والصابون وأن ينشّفوا بين أصابعها بعد ذلك، وأن يُخرجوا جواربهم النتنة من غرفهم مباشرة إلى سلّة الأدباش المتّسخة وأن يفركوا أسنانهم قبل النوم، والأهمّ من ذلك ألّا يتشاجروا وألّا ينشغلوا عن دروسهم بالحديث مع أصحابهم على هواتفهم الجوّالة حتى طلوع الفجر وأن يطلبوها عند الحاجة وعدم التعويل على والدهم المتغيّب في أي شيء.

توقّفت لحظة في الصالون وهمّت بالحديث مع خليل لإحساسها بأنها مقصّرة في الاهتمام والرعاية به ولإدراكها أنه ابتعد عن اللّعب بسبب وزنه الزائد. رأته ممدّدا على الأريكة يرقّص رجله بينما يشاهد برنامجا اعتاد مشاهدته والبسمة على محياه فقالت له:

– هل أنت بخير...؟

فقال مبتسما وبلطف:

– أجل... هل أستطيع أن آكل ما تبقى من الثمار...؟

– ألم يكفك ما أكلت...؟

– بلى... لكنني أريد أن آخذ ما تبقى.

– حسن... لك ذلك... أنت طفل لطيف وتستحق ذلك...

ابتسمت... ومن يدري سر تلك الابتسامة. أ لأنها تنشرح كلما نظرت في وجه ابنها البريء والنقي؟ أو لكي تقول لنفسها إنه بخير ولا خوف عليه؟ أو ربّما لتقول أنها ستدللّه وتربّيه بطريقة تجعله يخطو خطاها ويتعلم على مبادئها فلا يشبه أخاه الّذي اختار والده مثالا؟ أو بالأحرى لتعزي نفسها المتخاذلة والمتباطئة في الوقوف بجانب صغيرها الّذي قد تأخذه التلفزة وبرامجها المجنونة إلى عالم الإدمان وخطورته فتهدّد أو تدمّر طفولته ونموّه الفكري السوي وتزعزع توازنه النفسي والعاطفي والعائلي، أو تصيبه السمنة وعواقبها من أمراض كالسكري وأمراض القلب والشرايين وغيرها من التي تفقهها وتعرفها حق المعرفة.

قفز الصغير إلى المطبخ بينما توجّهت إلى الأريكة لتتسطح بعض الوقت قبل الانطلاق في رحلة المساء وعنائها. لكن السكينة لم تكن في الموعد أو من حظ الطّبيبة، إذ دخل عليها كريم والقلق على وجهه وكلام كثير على فمه. اعتدلت المرأة في جلستها وهمّت بلومه على عصيان أمرها حين خرج من البيت رغم منعها له، ولكنها خافت أن تفعل ذلك فيغضب ويرجع عن الحديث معها ومصارحتها بما يدور في رأسه. دخل عليهما خليل بموزة محشية في فمه الصغير، فإذا بكريم يصرخ في وجهه وبدون مقدّمات:

– اذهب إلى غرفتك... فورا...

تلعثم الصبيّ وذعر وقال بفم ممتلئ وصوت غاص:

– كنت هنا قبلك... أليس كذلك يا أمي...؟

ولكن أخاه لم يكن مستعدا إلى المهادنة فصرخ ثانية:

– قلت لك أن تنصرف إلى غرفتك في الحال... وإلا كسّرت عضمك...

فتدخّلت نعيمة مهدئة ابنها الصغير وقالت:

– أرجوك يا عزيزي أن تذهب الآن... أكمل أكلك في غرفتك... بيني وبين

كريم حديث... لا يجوز أن يسمعه الصغار...

خرج خليل إلى غرفته غاضبا ومتماسكا عن البكاء كي لا تخرج اللّقمة من فمه فتسقط أرضا ويخسرها إلى الأبد. وبقي شقيقه الأكبر يتململ والكلمات لا تقوى على مبارحة فمه. كيف له أن يصارح والدته بذلك الشريط وما يحتويه. ستكون المفاجأة مميتة كالصاعقة. فليست المسألة متعلقة بمجرد وجود الشريط من عدمه، بل ستكتشف نعيمة أن زوجها ووالد أبنائها خائن وعلى علاقة غرامية قديمة العهد، أصبحت معلومة وموثقة في شريط متداول وموضوع مساومة وابتزاز. والأدهى من كل ذلك أن حليمة، بطلة الشريط النسائية الأولى والوحيدة فرحت لوجوده وعقدت العزم على إخراج علاقتها بعبد الله إلى العلن. كما سيورّط ذلك الفيديو كريم بذاته لأنه سيثبت معرفته بصلاح وبناء عليه، تورّطه مع المغدورة مريم. كمّ كبير من المشاكل والأسرار التي سيكون وقعها على الدّكتورة وخيم، لكن الشّاب قال مترددا:

– تعلمين أنه من الصعب أن يوجد إنسان منزّه... ومعصوم من الأخطاء...؟

انقبض قلب نعيمة وظنت أنه جاء ليعترف بما تتهمه به مريم، فقالت:

– أجل يا بني... والمروءة في أن يسعى الرّجل إلى وضع حدّ لتلك الأخطاء كي لا يتمادى وتعود عليه وعلى من يهمّه أمرهم بالوبال والضرر.

– في الواقع... الأمر ليس بتلك البساطة... وأحيانا قد يتحتّم كتمان الأسرار لدرء الفضائح والمصائب التي قد تهرب عن السّيطرة... فاليوم مثلا... اكتشفت أن معادن النّاس خفيّة... وراء ما يظهرون للعامة وما يحاولون افتعاله من بهرجة وزينة قد تنسي صاحبها والبشر من يكون فعلا...

اليوم اكتشفت أن أقرب النّاس لي... ليس بالبراءة والنزاهة التي كنت أعتقد أنه عليهما منذ عرفته... منذ ولادتي... اكتشفت أنه لئيم وغير مسؤول... مستهتر

وأناني... اليوم شعرت بالخزي والعار عندما علمت أنني أنحدر من سلالة هجينة...

اعتقدت نعيمة أن كريم أصبح على علم بالاتهامات التي نُسبت إليها على أساس تلك السرقات التي جدّت في مقرّ عملها. استغربت وصول الخبر إليه بتلك السرعة، وخذلها انعدام الثّقة بينهما ومحاسبته لها وعدم وقوفه إلى جانبها. أصابها الذهول إذ ظن فلذة كبدها أنها ليست كما اعتقدت أنه يراها، أنها مذنبة دون أن يسألها حقيقة ما يجري رافضا احتمال وجود من يتربص بها ويلفّق إليها التّهم والمكائد ليوقع بها. لا بد وأنه يشعر بما شعرت البارحة حين رأته بعيدا كل البعد عما عهدت فيه أو ظنت أنه يكون، واليوم باتهامه لها يؤكد أنه ابتعد عن التهذيب والأدب ونبل الأخلاق التي طالما توسّمتها فيه. استردّت المرأة أنفاسها ثم قالت متلبّكة:

– كيف عرفت بالخبر...؟ من أين لك بكل هذا... لعمري لا يزال الأمر سرّا... ولا أحد له علم به...؟

– إلى متى كنت تنوين مواصلة إخفاء ذلك...؟ الأمر قديم للغاية... وعندي الدليل على ما أقول.

– صحيح أن أشياء جدّت في الماضي... واستطعت آنذاك أن أخبئها وأطمسها لتجنب عواقبها... ولكنني ما ظننت يوما أن تصل الأمور إلى هذا المستوى... أصبحَت خارج السّيطرة... ولست أملك القوة لأنكرها أو أواجهها أو للوقوف في وجه هذا الطوفان... أصبحت ضعيفة... وصدمة البارحة تجعلني أتفهّم أن أراك تتّخذ مني موقفا حادا كهذا...

– عما تتحدثين يا دكتورة... أي موقف...؟ وبسبب ماذا...؟

عما تتحدثين...؟

– أتحدث عن السرقات...؟ وأنت...؟

– لست أفهمك... أي سرقات...؟

– السرقات... اختلاس معدات القسم الّذي دعيت إلى التّحقيق بشأنه هذا الصّباح... كيف وصلك خبرها...؟

لم يجبها كريم لأنه غصّ بالكلام واختنق وفزع وذهل لما سمع من أمه. اكتشاف آخر وحقيقة أخرى وسجلّ قذر يضاف إلى سيرة عائلته. امتلأت عيناه دموعا وجلس بجانب والدته ووضع رأسه على كفيه ودون أن ينظر إلى التي حملته ووضعته في هذه الدنيا قال:

– أي بشر أنتم...؟ أي أب وأي أم أنتما...؟

انزعجت المرأة و شعرت بإهانة لم تعرف طعمها من قبل، فقالت:

– لا تتسرّع في حكمك عليّ يا بني... التّحقيق سيثبت أنني بريئة وسيظهر الحق أمام الجميع... كنت أظنّك تعرفني كفاية حتى تعلم أن ما يحدث معي مكيدة حقيرة من صنع زملاء يكرهونني ويريدون إبعادي عن القسم وعن طريقهم ليستبيحوا السرقة والنهب دون رقيب...

– هذا لا يهم...

– كيف لا يهمّ...؟ أنت أيضا تظن أنني مذنبة... تظن أن والدتك مجرمة...؟ في حق نفسها وحق عائلتها وحق المجتمع...؟ من يسرق معدات بمستشفى فكأنما أدخل يده في جيب كل مواطن صالح ليسلبه حقّه وعرق جبينه... أتظنني أقدم على فعل هذا وأقبل أن يطالني فيطالكم العار والفضيحة...

– قلت لك... هذا لا يهم... أنت لا تفهمين شيئا...

– ربّما... لكنّك لم تقل لي كيف علمت بالأمر...؟ من أخبرك...؟

وفجأة انتفض الشّاب من مكانه وبدأ يصرخ بصوت حاد وعال وينادي ملاك

وشيراز وخليل حتى يلتحقوا به وبنعيمة في الصالون. ودخل في حالة هستيرية لم يره عليها أحد من قبل... يسبّ ويلعن ويتلفظ بكلمات جارحة ومهينة في حق والديه. فزعت نعيمة وبدأت تبكي وتخبّط وتطلب منه أن يهدأ، واعدة إياه أن الأمور ستصبح على ما يرام في أقرب الأوقات.أقبلت ملاك وشيراز تهرولان، مرعوبتان، بوجهين مصفرين، لا تفهمان ما يجري. وذهلتا لرؤية كريم في حالة هيجان دون سابقة، ولرؤية والدتهما تنحب وتبكي وتتوسّل له أن يهدأ. وأتى خليل ليرى ما صعب عليه استيعابه وفهمه، فصدم أمام ذلك المشهد الّذي أخافه ووتّره وجعله ينقطع عن مضغ ما كان بصدد أكله. وإذا بأخيه الأكبر يصرخ والدموع تنهمر فوق خدّيه المحتقنين ويقول:

– نحن أبناء الزاني... والسارقة... نحن أبناء الزاني... والسارقة...

وأعاد تلك الجملة مرارا وتكرار بعلوّ صوته، وكان يتنقل بين إخوته ويصرخ في وجوههم بكل قوته أنهم أبناء الزاني والسارقة. حاولت نعيمة إسكاته بالصراخ ولطمه على وجهه أو دفعه أو سحبه من سترته وخضخضته لكنه لم يكفّ. وكلما أصرت أكثر، زاد من زمجرته وتمادى، ناهرا إياها حتى أعياه الصراخ وبح صوته وتمكن منه السعال فسكت للحظة استغلتها نعيمة لتقول له وهمّها أن تردّ انتباه ملاك وشيراز وخليل عن موضوع الزنا:

– قلت لك أني لم أسرق شيئا... والتّحقيق سيثبت ذلك للجميع...

فقال وهو يسعل:

– هذا ما تريدين إيهامنا به... وكيف لي أن أصدّقك...؟

– لا يهم... كل ما عليك هو أن تنتظر يا بني...

فصرخ في وجهها:

– لست ابنك... ولا أريد ولا أتشرف بأن أكون ابنا لامرأة مثلك... أنت وزوجك جلبتما لي العار والمهانة.. أنتما فاسدان أنانيان... لا يعنيكما ما ستؤول إليه الأمور بالنسبة لي...

خافت نعيمة أن يتطرق ابنها إلى موضوع زنا عبد الله أمام إخوته، ولو أنها كانت تتوق لهفة وفضولا لمعرفة ما الّذي يلمّح إليه:

– إياك أن تخطئ في حقي أو حق والدك... كيف تجرؤ على اتّهامنا بالفساد...؟ وأنت...؟ ما الّذي فعلته بتلك الفتاة المسكينة...؟ أليس ذلك فسادا وانحرافا وإجراما...؟

– هذا ليس من شأنك... أنا أعرف ما الّذي فعلته... ولماذا فعلته... أما أنت وزوجك.. فلا... أنتما عديما المسؤولية والضمير... أفسدتما حياتي وما كنت أصبو إليه مستقبلا...

– أصمت أيها العاق... أنا أيضا أعرف ما الّذي أفعل وما الّذي لا أفعل... وأنهاك أن تتّهمني بالسرقة والفساد... كما أمنعك من اتهام والدك جزافا...

– لماذا تدافعين عنه...؟ أنت حقا غريبة... يخونك منذ سنين... وأنت...؟ بكل بساطة وغباء... تدافعين عنه...

– اخرس أيها اللئيم... لقد تجاوزت كل الحدود وسيكون عقابك وخيما...

– أنت لم تري شيئا بعد.

وبينما كان خليل وأخواته يتابعون فصلا سيئا ومرعبا من التراشق والتّلاسن بين أم مرعوبة وأخ أطنب في الوقاحة، أخرج هذا الأخير هاتفه من جيبه وانقض على جهاز التحكم في التلفاز عن بعد وقام بتشغيل تطبيقة تصل الجهازين ببعضهما وقام بعرض الشريط الّذي أعطاه إياه صلاح في الصّباح والّذي يظهر فيه عبد الله وحليمة يمارسان الجنس على فراشها وفي منزلها، وصاح بإخوته وأمّه:

– تفرّجوا وشاهدوا...

هذا هو والدكم... هذا هو زوجك...

تفرجي عمن تدافعين...

أبوكم زاني... وأمّكم سارقة...

نحن أبناء الزاني... والسارقة...

قفزت نعيمة وانقضت على كريم تلطمه وتضربه وتكرّ شعره وتندب وجهه، وانهالت عليه شتما وسبّا وافتكت منه جهاز التحكم عن بعد لتطفئ التلفاز أمام فزع وذعر وسخط ملاك وشيراز وخليل الّذي صاح دون وعي:

– أمي... أمي...

وأجهش يبكي ويردّد:

– أبي في مهمّة... أبي في مهمّة...

اندفعت نعيمة نحو ابنها تحضنه بلهفة وتمسح دموعه ومنه إلى بنتيها تحضنهما وتربّت عليهما وتقول:

– لا عليكما... لا عليكما...

انسوا ما رأيتم للتو... انتزعوه من أذهانكم إلى الأبد ولا تفكّروا فيه بتاتا... لم تروا شيئا... لم تروا شيئا...

والتفتت إلى كريم وصرخت في وجهه:

– أما أنت فسيكون لي معك حساب عسير... أغرب عن وجهي أيها الحقير... أنت غريب في هذا البيت... لا أعرفك ولا أريد أن أعرف أمثالك... ولا أريد أن يعرفك أخواتك بعد اليوم... سافل ودنيء...

ثم أخذت تضربه وتدفعه نحو الباب حتى طردته من البيت ورجعت إلى أطفالها تحضنهم بكل قوة وتشاركهم البكاء والنحيب.

قاربت السّاعة على السابعة مساء حين توقّف د. حسين عميد الكلّيّة أمام باب حديدي كبير توسّط سور فيلا جميلة وراقية لم يكتمل بناؤها بعد. كانت الأشغال قد توقّفت بها منذ ما يزيد عن الأربعة أشهر، أي خلال العطلة الصيفية حين كانت صاحبتها د. إلهام مع زوجها أستاذ الرياضيات وبنتها الكبرى وزوج ابنتها في رحلة إلى ماليزيا دامت أكثر من أسبوعين، ولكنها استنزفت منهم جلّ مدّخراتهم السنوية مما اضطرهم إلى تأجيل تشطيب الفيلا إلى منتصف السنة الجامعية[١٨].

دق الرّجل الجرس فإذا بالباب يفتح أوتوماتيكيا ليتقدّم بضع أمتار حتى الباب الدّاخلي فيجد إلهام وزوجها في استقباله بكل حفاوة وترحاب، ويدعوانه إلى الدّخول وشرب القهوة وأكل المرطبات في انتظار أن تُنصب طاولة العشاء. انفرد العميد بزميلته في غرفة الجلوس وبدآ يتهامسان وكأن ما بينهما سيبقى سرّا لن تعيده المرأة بحذافيره على مسامع زوجها الّذي بقي في المطبخ لينهي إعداد وليمة على نخب الضيف. ورغم أنه كان غير بريء ومحشوا كلاما بذيئا ومخللا في الإيحاءات الجنسية الأخوية، فإن الحديث في إجماله كان يدور حول الامتحانات والطلاب أبناء الذوات الّذين خانتهم الدّروس الخصوصية وساعات العمل الإضافية التي أهدروها على هواتفهم، فاضطروا لدفع أولياء أمورهم بوجاهاتهم وأموالهم لتبضّع بعض الأوراق التي قد تحمل أسئلة الامتحانات القادمة، وبهذه الطريقة يضمن ائتمان النجاح والامتياز والظفر بالوظائف إلى الأحق والأولى بها من أبناء صفوة المجتمع، والقطع مع التهميش والتنمية غير المتكافئة والتفرقة الاجتماعية (لعنها الله).

كان زوج إلهام يتعمّد تركها بمفردها كلما استقبلت أحد زملائها، وذلك لتجد

١٨ انظر تقرير ص ٢٦٣

راحتها في الحديث معه، وكذلك حتى لا يُفرض عليه إعادة الأشياء أكثر من مرة. ففي طبيعة عمله يتوخى الرّجل مثل حرمه المصون نفس المنحى والتوجهات العملية... أو ربّما أكثر منها.

إذ يوجد على مادة الرياضيات التي يدرّسها بالجامعة أكثر طلبا من الآداب، والطّلبة المعنيّون بتلك المادة هم أكثر عددا وأكثر طموحا وطمعا في ولوج أرقى كليات الهندسة والعلوم و التكنولوجيا وما إلى غير ذلك مما قد يقتطع لهم تأشيرة إلى بلدان أوروبية وأمريكية توفّر مهنا تدرّ أموالا كثيرة ومستقبلا باهرا. لذلك كانت المساومة على امتحانات الرياضيات أكثر شراسة، ولأجل نيلها يجنّد كبار المتفاوضين لإنهاء الصفقات البيداغوجية دون ريب أو لبس أو غبار يجلب الأنظار إلى أطرافها. وزوج د. إلهام كان ذو خبرة واسعة عرف كيف يمرّر جلّها إلى قرينته كي تتمكن بدورها من إنجاح عمليات البيع والشراء في مجالها بأرباح متضاعفة سنة بعد سنة. وأصبحت للمرأة استراتيجيات متطوّرة ومبلورة لاستشفاف رغبة من يقصدها من الزبائن بالإنفاق دون قيد أو حساب، وكان فخر الزّوجين وشركائهما أن أبقوا ميدانهم الوحيد الّذي يوفّر خدماته من المنتج إلى المستهلك ولم يقتحمه الوسطاء على غرار الميادين الحياتية الأخرى كالعلف والأسمدة وخرفان العيد ودقلة النور وغيرهم...

أخذ د. حسين قطعة مرطّبات مشبّعة بالدهون والسعرات الحرارية وأدخلها عنوة في فمه الواسع، متعسفا على طقم أسنانه المطاطي الجديد، ومضى يمضغها محدثا صوتا مقززا صعب عليه إخفاؤه. ثم ألحق على المرطبات رشفة عصير مضمضها وكشكشها بين فكيه قبل أن يبتلعها فيتجرّع غازات طويلة أدمعت عينيه، ثم ابتسم وقال لإلهام وفتافيت الأكل تتطاير من بين شفتيه الغليظتين:

– عبد الله ذكي... والحذر منه واجب...

فقالت:

– لكنّه وعد مراد أنه سيقف إلى جانبي... وسيدعمني أمام باقي الزّملاء المترشحين...

– إنه لئيم... ولطالما طمع في اعتلاء كرسي العمادة منذ كان يافعا... وبالرغم من قدراته العلمية إلا أنه لم يظفر بهذا الامتياز لأنه لم يجد الدّعم اللازم من إطارات الكلّيّة والوزارة... تعرفين أنه غريب عنا... والعادة والأصل في الأشياء أن الأقربون أولى بالمعروف...

سكت للحظة وجيزة التهم فيها قطعة مرطبات أخرى وشرب وراءها ما تبقى في كأس العصير وكشكش ومضمض وتجرع وكأنما يأكل لآخر مرة في حياته ثم أضاف:

– أنا أرى أنك أقرب الأقربين... فأنت منا وإلينا... ولا أريد أن يأتي غريب... نازح مثل عبد الله ويعتلي منصبا... يعدّ واجهة للمدينة وللبلاد برمّتها.

ألا يكفيه أننا وقفنا إلى جانبه طوال سنوات دراسته حتى أصبح على ما هو عليه...

– أقدّر وجهة نظرك وأحترمها... لقد حُسم الأمر وانتهى...

وجب عليك الاطمئنان... لقد وعد بمساندتي...

– كل ما عليك فعله... ألا تثقي به...

سيصيبني الداء العضال إذا رأيت ذلك الأسمر النازح... يجلس مكاني على ذلك الكرسي الشريف.

اختطف د. حسين منديلا ورقيا من كومة بجانب صحن المرطبات التي أكل نصفها ثم مسح فمه واستدرك:

– المهم أن تعدّي ١٧ نسخة من امتحان الدفعة الأولى، و٢٦ نسخة من امتحان

الدفعة الثانية... و... ٢٥...

لا عليك من التّفاصيل... لا يهم الآن... فلنبدأ بالأكل وسأبعث إليك فيما بعد بإرسالية بها ما يلزم...

أما بالنسبة للأتعاب... فإنها جاهزة مسبقا... كما هو مفروض...

إنها في حقيبة السيّارة...

دنت والدة عفاف من ابنتها تتوسّل إليها أن تترك لها جهاز التحكم في التلفاز عن بعد حتى تستقرّ على قناة واحدة وبرنامج واحد. لم تكن الفتاة مركّزة على ما تفعل بالجهاز ولكنها ما انفكّت تردّد أنها بعدما قضّت معظم يومها خارج المنزل، حان دورها كي تحتكر التلفاز وتختار ما يحلو لها مشاهدته من البرامج لما تبقى لها مما يناهز السّاعة والنصف من الوقت قبل أن تذهب إلى النوم، وقالت أيضا:

– إذا لم أجد شيئا يستحقّ المتابعة... فإنني سأواصل تغيير القنوات بكل حرية طوال السهرة.

لكن والدتها لم تكن على ذلك الرأي وقالت مصرة:

– لكنني منذ أيام شرعت في متابعة مسلسل شيّق... ولا أريد أن أفوّت أدنى لقطة منه... لماذا لا نشاهده سويّة...؟ سيبدأ حال انتهاء الإعلانات...

وزادت المرأة من إلحاحها ومن تعنّتها أمام صمت ابنتها وتجاهلها لمطلبياتها المشروعة. ودخلت في مسار تصعيدي بدأ بالذهاب والمجيء أمام التلفاز ثم بالتهديد بإقفاله... مرورا بالحلف بالامتناع عن الطبخ والغسل وعن باقي شؤون المنزل في الأيام القادمة... حتى وصلت إلى التهديد والوعيد بحرمانها من المصروف وإن لزم الأمر من النت... واقترحت على عفاف أن تقصر الشرّ وتذهب إلى غرفتها أين السكينة وراحة البال، وأين يمكنها أن تنفرد بهاتفها والإبحار على مواقع التواصل الاجتماعي أين ستجد أصدقاءها وأكثر، وأين سيحلو لها الحديث وتقاسم وقت شيّق وممتع معهم.

ألقت عفاف بالجهاز فوق الأريكة التي كانت تتسطّح عليها وانطلقت دون نقاش أو مجادلة إلى ما اقترحته والدتها[١٩]. أغلقت باب غرفتها وراءها وارتمت على

١٩ انظر تقرير ص ٢٦٤

سريرها وأخذت هاتفها لتكتب إرساليّة إلى إسكندر لكن ما من مجيب. أعادت الكرّة فكانت النتيجة مماثلة. طلبته فأقفل الخطّ في وجهها. ملأها الغيض والغضب لأنها لا تجد تفسيرا لتصرّفه هذا وانشغاله عنها. كانت تود سماع صوته والحديث معه، لكن الشّاب كان غارقا في قنبه وعالمه الخفي، كما كانت ترغب في مفاتحته مرة أخرى في موضوع تلك الفتاة التي ينفرد بها كلما التقاها في المطعم، علها تدخل التجارة على يديها وتجني من وراءها المال لتخوض تجربة الجراحة وتغير من شكلها فترتاح نفسها بين بنات جيلها. في الأخير قررت أن تهاتف ماجدة، الفتاة الوحيدة التي لها من رحابة الصدر ما يسمح لها بالاستماع إليها ومؤانستها حتى وإن تأخر الوقت. اتصلت بها وبدأت تحدّثها عن إسكندر وتشتكي تقصيره معها وتجاهله لها، وصرّحت لصديقتها أنها تحبه وتعطف عليه في الوقت ذاته، لذا يحز في نفسها أن تراه يغرق في عالم المخدرات ولا يستفيق من ويلاته، مما سيؤثر عليه وعلى دراسته التي إن أخفق فيها ورسب فإنهما سيتباعدان وستتعمق الهوة بينهما. كانت الفرصة تلقائية وسانحة لكي تبوح ماجدة بدورها بحبّها لكريم، وقلقها بسبب ما آل إليه حاله منذ اتهمه الشّرطي بتعنيف تلك الفتاة المرميّة في المستشفى والتي لا يعرف أحد قصتها، فقالت عفاف:

– اسمها مريم... فتاة لطيفة وجميلة... حياتها لا تخلو من أسرار لا يعرفها في حيّنا إلا القلائل...

– ربّما كانت فتاة ماكرة ورأت أن تلفّق تهمة إلى كريم لتبتزه فيما بعد...

– لا أظنّ... الجميع هنا يعرفها ويشهد لها دماثة أخلاقها وحسن سلوكها... في صغرها كانت تعيش في إيطاليا... ورجوع عائلتها إلى تونس كان موضوع حديث النّاس صباحا مساء... لا أحد يعرف لماذا رجعوا بتلك الطريقة... هناك سرّ وراء تلك الفتاة وعائلتها...

– لا بد أن والدها كان تاجر مخدرات هناك...

– ربّما... ولكنني لا أظنّ ذلك... وإلا لكان معه من المال ما يجعله يعيش عيشة ترف ورفاهة...

– ربّما خسر كل شيء قبل مجيئه... أو ربّما هدّدته عصابات المخدرات فترك كل شيء وهرب إلى هنا...

– ربّما... من يدري... ولكن الرّجل يبدو هادئا ومسالما وبعيدا عن أي شكل من أشكال الانحراف... الجميع يحبّه هنا ويشهد له حسن أخلاقه...

– لو عُرف ذلك السرّ لتغيّر كل شيء بالنسبة إلى كريم...

– ظننتك حيادية ولا ترضين أن تظلم الفتاة من أجل حبيب القلب...؟

– لست أدري... أنا حائرة...

– ماذا هناك...؟

– لا شيء... نفس القصة... ونفس المشاكل بين أبي وأمي...

– هوني عليك... لم تعد والدتك بعد إلى البيت...؟

– لا... لا أظنّها ستفعل... وأعتقد أن أبي قد حسم الأمر...

– ماذا تقصدين...؟

– أظنّهما سيذهبان حتما إلى الطلاق...

– وأنت...؟ ما الّذي ينتظرك...؟

– أنا ضائعة... لا يهم... دعك مني...

اليوم رأيت كريم تائها ومهموما...

– صحيح... وأنا رأيت سندة متطاولة ومتعجرفة...

– أصبحت الآنسة ثورا هائجا ... أفعى تنفث سمها على الجميع... كما أصبح لديها من يدافع عنها ويصدّ عنها من ينتقدها ويقف في وجهها...

- تقصدين سامي...؟
- أجل
- إنه لئيم ووصولي... كالضباع... يحب الصيد في المياه العكرة...
- عليهما أن يعرفا حق قدرهما كي لا يتطاولا في المستقبل...

ذهبت نعيمة إلى عملها ولم تكن تريد فعل ذلك. في بادئ النهار كانت قد اتصلت بزملائها علّ أحدهم ينوبها، ولكن دون جدوى. ولما أتى كريم ما آتاه وأمام حالة الذعر وكمّ السخط الّذي انصبّ على أطفالها، وبسبب ما رأت في أعينهم من مشاعر خلطت الفاجعة والحقد والازدراء، عاودت الدّكتورة الاتّصال بإدارة المستشفى كي تعتذر عن العمل لتلك اللّيلة فكان الرّد بالرفض... واضطرت إلى إعادة مهاتفة زملائها فلم يلبّ أحد طلبها، فوجدت نفسها مكرهة على ترك عائلتها تتخبط في حالة من الحزن والغضب. وما أن غابت عن البيت حتى عاد إليه كريم كي يأخذ مفتاح سيّارته الصّغيرة البيضاء والجديدة، فكانت الفرصة ملائمة كي يندلع بينه وبين أخواته شجار كبير، وصار يصهل ويعربد فاضحا والديه ومقزّما من قدرهما ومما قدّماه له من تضحيات وتربية حسنة، بينما انهالت عليه ملاك وشيراز سبّا ولعنا وشتما، ولامتاه عدم التحفظ على ما بلغه من أسرار عن أبيه أنقصت من شأنه عندهم وأهانت والدتهم وذلّتها. واتهمتاه أنه يكره من كان سببا في مجيئه إلى الدنيا وأنه من فرط أنانيّته لم يمتنّ لهما بالمعروف وإنما أظهر العقوق والحقد. كما قالتا له أنهما تستنتجان مما فعل معهم أنه يكره بدوره إخوته ولا يعمل أي اعتبار أخلاقي أو إنساني لمشاعرهم حين أشهر في وجوههم ما يعاب على المرء إشهاره أمام الغرباء. وبالفعل فقد كان خليل مصدوما بين أخواته يبكي ويزيد وما من أحد ليطيّب خاطره أو يسكته ويهون عليه. فالصور التي رآها منذ حين علقت بذهنه وسيصعب محوها أو نسيانها مهما طال الزّمن أو قصر. في ذلك الحين كان عبدالله متسطّحا مبسوطا وزاهيا فوق السّرير العريض الذي يتوسط غرفة حليمة التي كانت تتزين وتتعطر في غرفة الاستحمام ممنّية نفسها بالفرج وبانتهاء تلك الوضعية الهجينة التي قدّرت أن مدّتها زادت عن حدّها.

دخلت نعيمة القسم واتجهت بسرعة إلى غرفة مريم ومن دون أي مقدّمات بدأت تصيح في وجه الفتاة غير مهتمّة بما كانت عليه من مرض ووهن. واشتد السجال بينهما واحتد التلاسن. اتهمت الدّكتورة مريضتها بأنها نذير شؤم جلبت معها المشاكل منذ ظهرت في حياتها التي أصبحت في زوبعة ستنتهي بالقضاء على عائلتها، بينما تجيبها الثانية بأن لا ذنب لها في كل ذلك منبهة إياها أنها بصدد حصاد ثمرة تربيتها المنحرفة لابن مدلل خسيس لا أخلاق ولا ضوابط له.

كان أنور خارج الغرفة لكنه ينصت إلى كل ما يدور بين الطّبيبة ومريم، ولم يدخل عليهما حتى إذا ما أراد نزلاء القسم أن يتجمهروا حولهما منعهم وأرجعهم عن ذلك. لكنه أخذ هاتفه واتصل بحسيبة ليخبرها بما يجري. صحيح أن الممرّض لطيف ولا يعرف التقاعس في عمله إلا أنه كان يحب النميمة ولو كانت عن حسن نية أو ما شابه. إذ يوجد بشر لا يسعهم التحفظ أو الاحتفاظ لأنفسهم بما يشهدون. ومن بينهم أنور الّذي سارع في تقاسم "ملفاته" مع زميلته رغم علمه أنها ستنشر الخبر بعد أن تزيّنه وتلوّنه وتزيده وتنقصه إلى أن تأتي على ما يحمله من حقيقة. هي فرصة لا يستطيع تفويتها كي يتصل ويتواصل مع ست الحسن حسيبة وإن كان جريه ولهثه وراءها ووراء جمالها لن يمكّنه من نيل ما يبتغيه منها. فالمرأة لا تنظر إليه بطرف عين والأهم من ذلك أنها حريصة على عدم الغوص في متاهات دون أمل أو رجاء مع زميل متزوج وأب لثلاثة أطفال أكبرهم يدرس في الجامعة.

هدأت الطّبيبة في نهاية الأمر وخرجت من عند مريم التي أجهدها الصراخ وزاد في آلامها، وتمكن منها الغضب لعدم قدرتها على فهم ما فعلته الدّكتورة للتو وموقفها منها. كيف لحكيمة محنكة وذات خبرة وسمعة أن تتطاول على مريضة منهكة ومعدومة القوى ، ضاربة عرض الحائط أدنى مبادئ وأخلاقيات الطبيب. ولكن في الآن ذاته كان ضمير الفتاة يقول لها أن تراكم المشاكل عند نعيمة هو من

جعلها تنفجر في وجه من تصوّرت أنها سببها الأصلي دون أن تعي أن ابنها الكارثة وزملاءها الدواهي هم من كانوا وراء ذلك.

مريم تمتلك دليل براءة الحكيمة ودليل إدانة زملائها بالسرقة وتلفيق التهم، ولكنها لا تدري ماذا عليها أن تفعل. هل تبقى صامتة لتشمت بها وتعاقبها بدل ابنها...؟ أو آن الأوان كي تفضح المستور وتخرج الحقيقة إلى النور وعلى كل مذنب آنذاك أن يتحمل تبعات أفعاله؟

مرّت اللّيلة هادئة ولم يستقبل القسم مرضى إضافيين، لذلك تمكنت نعيمة من الخلود إلى بعض الراحة في غرفة الأطباء وشيء من النوم المتقطع بالأفكار المشتتة والكوابيس المرعبة. ولسائل أن يسأل ماذا فعلت بشأن خيانة زوجها الموثقة...؟ هل اتصلت به...؟ هل تحدثت إليه وواجهته بخيانته...؟ هل بلّغته أن صولاته الغرامية ورقصاته الجنسية أصبحت على مرأى ومسمع الكبار والصغار ووسائل التواصل وقريبا في الإعلام...؟ في الواقع لا... لمجرد أنها عندما اتصلت به وجدت هاتفه مغلقا. الأستاذ عبدالله رجل استباقي ولا يحبّ أن يعكّر مزاجه بالعراك والشجار مع شريكته العلنية، لكنه يحب أن يقضي ليلة ساخنة دافئة وهانئة ملؤها الحنان والجنس مع شريكته المخفية. أدرك الرّجل حق الإدراك أنه وبمجرد عودته إلى البيت بعد تلك المهمة التي أصبحت نعيمة على يقين بأنها زائفة ومن صنع خياله فإنه سينال نصيبا عظيما من العراك والتناحر معها لذلك قرّر ألا يخوض العاصفة على مراحل، وإنما يقفز بداخلها مرة واحدة بعد أن يكون قد أخذ ما يمكن أخذه من المتعة وهناء البال ونوم الضمير.

في الغد وقفت الدّكتورة أمام مرآة متسخة عُلقت فوق صنبور بركن الاستحمام في غرفة الاستمرار، ولم تنته بعد من شطف وجهها حتى سمعت طرقا على الباب. نظرت في ساعة يدها فتذكرت أنها هدية من زوجها أهداها إياها منذ خمس سنوات

عندما عاد من مهمة بيداغوجية تهيأ لها في تلك اللحظة أنها مماثلة للتي هو فيها منذ البارحة. لم تنظر إلى الوقت وعافتها فانتزعتها من معصمها ووضعتها في جيبها. ثم أخرجتها لتنظر فيها مرة أخرى فرأت العقارب تشير إلى السابعة والنصف. أعادت السّاعة إلى جيبها وذهبت لترى إن كان الطارق أنور جاء ليخبرها أنها مطلوبة في الاستقبال لفحص مريض جديد. فتحت الباب فإذا بساعي الإدارة يطلب منها أن تتوجّه فورا إلى مكتب المدير لأمر هام ولا يتحمّل الانتظار. امتثلت نعيمة، وها هي تجلس أمام الرّجل في مكتبه الفسيح والمليء بالأثاث والديكورات والشهادات واللوحات التي غطت جدرانه، وبعد السلام والاحترام بدأ المدير بالحديث. لم ترفع الدّكتورة عينيها عنه وكانت تتساءل متى استفاق الرّجل حتى كان على هذا المستوى من الشياكة والأناقة. شعر مسرّح ووجه أبيض ناصع ونشط، كأنه نام وشبع نوما... قميص أبيض بدون انكماشات لم تشوّه رقبته صفرة الرّقاب التي تراها على أقمصة معظم الرجال، مما جعلها تتساءل إن كان القميص جديدا أو أنه مكويّ منذ الفجر، فإذا كان كذلك فمسكينة زوجته التي لم تهنأ مثلها بالنوم الكافي حتى جهّزت أغراض زوجها ولوازم شياكته على أحسن وجه. ابتسم السيّد المدير وعبّر لها عن أسفه بلوغ الأمور ما وصلت إليه بسبب التدهور الملحوظ في مردودها خاصّة بعد الشكاوى الأخيرة والمتكرّرة والتي كانت في مجملها تصبّ في خانة الاتهام بالسرقة وتحرير شهادات طبية لغير مستحقيها... واليوم تضاف إليها المعاملة السيئة للمرضى، وقال:

– أقدّر سنوات العطاء الّذي عرفك به الجميع داخل وخارج المستشفى منذ بداياتك المهنية. وأقدر ما قدّمته من خدمات جليّة للصالح العام دون حساب أو مقابل بأي شكل من الأشكال. كنت أودّ لو أن ما يحصل معك الآن... لا يتعدّى مجرد لخبطة... أو سوء تفاهم... ولكنّك تقدّرين موقفي... من واجبي أن أتخذ

معك إجراءات قانونية صرفة... وإلا عاد عليّ بالمساءلة والمضرة... لذلك فإني قد قمت بإعلام النقابة ومجلس الأطباء... والمندوبية... وقد رفعت الأمر إلى الوزارة... حتى لا يلام على أحد التقصير أو التهاون في التعامل مع الملف...

كنت أودّ... ألّا يجمعنا ظرف مثل هذا الظرف... ولكن... يؤسفني الاعتراف بأن كل القرائن والشهادات تدينك...

يمكنك الاستعانة برجل قانون... للمشورة والتوجيه... للخروج من هذه الأزمة بأخف الأضرار.

ما حصل البارحة بينك وبين المريضة منيرة...

وهنا قاطعته نعيمة:

– أنت تقصد... مريم...؟

– أجل... مريم... كان بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس...

– هل لي أن أسألك... كيف خبرت بالأمر بهذه السرعة...؟

هل لديك جواسيس بالمستشفى...؟

– لا سيدتي... ولكنني أحبّذ القول أن موظفين على درجة عالية من المهنية حريصون على سمعة المكان وعلى ديمومة السير العادي للعمل... لا يترددون في تبليغ المعلومة في حينها إلى الجهات الراعية حتى يتسنى لها التّصرّف والتدخّل بحكمة ومن دون عجلة.

– آه... أقدّر ذلك...

أناس تتعارض مصالحهم الضّيقة مع تواجدي وإياهم في نفس المكان...

بالمقابل لا يوجد أشخاص مهنيون ونزهاء ليدلوا بالحقيقة دون نقص أو تزييف...؟

– رجاء سيدتي... لطالما برهنت على الرفعة في الأخلاق والحكمة وبعد النّظر...

رجاء ألا نخوض سجالا عقيما نحن في غنى عنه... وأن تتصرفي في حدود المنطق والمعقول...

يمكنك المغادرة دكتورة... هناك من سيأتي لينوبك...

وخرجت نعيمة من عند المدير مثقلة بالحزن والكدر وبحمل ليس حملها. إذ وجدت حال نفسها تدفع ثمن النزاهة والانضباط أمام قسوة اللؤم والانحطاط. وقعت الدّكتورة في فخ الفساد الّذي تجنّد له زملاؤها وحبكوه حتى أزاحوها عن طريقهم. غمرت العبرة عيناها وغالبت نفسها على البكاء... في تلك اللحظة على الأقل... بين زملائها والمرضى، وعادت أدراجها إلى غرفة المناوبة لجمع أغراضها فوجدت د. يسري بانتظارها بناء على طلب من المدير ليأخذ مكانها بقية اليوم. واساها الرّجل وخفف عنها وقال لها أن الحقيقة ستظهر عاجلا أم آجلا، ووعدها أن يجمّع أصوات الأطباء النزهاء في صفّها كي يقفوا إلى جانبها ويقتصّوا لها من الفاسدين والمحتالين.

ثم خرجت فاعترضها أنور وحسيبة وعواطف يتمتمون فيما بينهم فتوقّفت أمامهم وقالت متوجهة بالكلام إلى أنور:

– كنت أضنك عادلا...

احمر وجهه وأجابها:

– لست من أخبر الإدارة... أقسم بذلك...

ابتسمت وأضافت:

– أعرف... بشرى لمن قاموا بذلك... سيخلو لهم المجال كي يعيثوا فسادا بالقسم... أنا ذاهبة... عندها من تراهم سيوقعون إذا ما أطبق فخهم عليهم...

لم تجرؤ حسيبة وعواطف على مواجهتها، بل لزمتا الصمت حتى انصرفت واتجهت إلى غرفة مريم. اقتربت منها وقالت:

– اعذريني يا ابنتي... ما كان يجب أن أفعل معك ما فعلت البارحة...

تعرفين كيف تسير الأمور عندما يجد المرء نفسه مستهدفا... عندما يكون في مأزق...

يصبّ وباله على أضعف المحيطين به... وهذا أنت...

يوما ما... ربّما... أستطيع أن أثبت لك أنني لست سيئة...

إنها المرّة الأولى التي أحيد فيها عن واجبي...

أرجو أن تسامحيني...

أتمنى أن تتعافي في أقرب وقت وتغادري هذا المكان برأس مرفوعة...

بعين الشفقة وبالكثير من تأنيب الضمير نظرت مريم إلى والدة الشّاب الّذي بعث بها إلى ذلك المكان ولم تقل شيئا. أرادت أن تصارحها بما تعرف عن حقيقة من يعمل معها ولكنها سكتت وخيرت ألا تفعل. فغادرت نعيمة المستشفى إلى منزلها راجية أن تنعم أخيرا بسويعات راحة قبل أن تغوص في رحلة البحث عن الحلول. أخذت مريم هاتفها وأعادت مشاهدة وسماع ما سجلته من حديث دار بين د. لطفي وعواطف والّذي إن وقع بين يدي أحد المسئولين الحياديين فإنه سيفضي إلى نتائج عكسية. انشغل بالها وحار دليلها ولم يهدها إلى العمل الصواب الّذي يجب أن تأتيه... هل تتمسّك بنفس الموقف وتصمت عن الحقيقة فتظلم الطّبيبة إلى لأن تضيع حقها، أم أنها تفشي بما لديها فتنقلب الموازين ويرتاح ضميرها. أضناها التفكير فقامت من سريرها لكي تتمشى في الرواق قليلا علها تهتدي إلى ما ينير بصيرتها ويضعها على المنهج السوي، وإذا بها تسمع أطراف حديث يخرج من تلك الغرفة التي خصصت للأعوان وكتب على بابها "ممنوع الدّخول لغير العاملين بالقسم". تسلّلت شيئا فشيئا ومدّت برأسها من طرف الباب فرأت ثالوث الممرّضين متجمعين فيها وفي غفلة عما يدور في ظهورهم. انحنت متظاهرة

بتسوية حذائها ودخلت إلى الغرفة خفية وتوارت خلف خزانة عريضة ثم شغلت هاتفها مرة أخرى لتوثق ما يدور بين الجماعة فسمعت أنور يلوم حسيبة:

– كيف تفعلين ذلك...؟ هاتفتك لأخبرك بما حصل... من باب الدردشة لا غير... انظري الآن ما الّذي حلّ بنعيمة...؟

أدارت حسيبة رأسها عن الرّجل ونظرت إلى زميلتها وقالت معاتبة لها:

– أنا أيضا هاتفتك من باب الدردشة... ما كنت أظنّك ستقلبين الدنيا وتقعديها...

لكن عواطف أجابتها بكل وقاحة:

– لقد آن الأوان لتلك المتعالية كي تعرف حق قدرها... وتلزم حدودها التي تجاوزتها منذ سنوات طويلة... لقد سئمتها وسئمت رؤيتها... منذ أول يوم باشرت فيه العمل وحضرتها تتأمّر وتنهى... كما لو كنت جارية عندها... لن أنسى ما فعلته معي في تلك المرّة... ولن أنسى أنها كادت تتسبب في طردي من الوظيفة...

أنور: ولكنّك فعلا... كنت تسرقين المعدات ولا تزالين...

حسيبة : ونعيمة هي من برّأتك... ألا تذكرين...؟ ادعت أن المعدات قد ضاعت بين الأقسام شيئا فشيئا كلما استلفها منا زملاؤنا عند الحاجة...

عواطف: ترون أنها مضطلعة في التحايل...؟ الآن لا يهم... كل هذا لا يهم... ما يهمني الآن هو أن أرتاح من وجهها العكر لبضع السنوات التي تبقت لي قبل التقاعد...؟

حسيبة: قلبك أسود... تفعلين ذلك كي يخلو لك الجو وتستمرين في السرقة...؟

عواطف: أجل... وهذا ليس شأنك... و لعلمك فإن قلبي مثل قلبك... بنفس السواد... وإلا لماذا أخبرتني بما حصل البارحة بعد أن طلبك أنور بالهاتف...؟

لتكون النتيجة كما هي عليه الآن... لأنك تعرفين أنني أنا... من يقوم بالأعمال القذرة التي تترفّعين عنها...

حسيبة: لم أكن لأخمن نواياك الخفية

أنور: ما أقدمتما عليه سيء وخراب بيوت... نعيمة لا تستحق ما جنيناه عليها... وستظهر الحقيقة يوما ما...

عواطف: عن أي حقيقة تتكلم...؟ ظهور الحقيقة... معناه نهايتنا نحن...

أنور: وما ذنبي أنا...؟ لم أسرق ولم أوقع بنعيمة. ستتحملان عواقب ما فعلتما لوحديكما... أنتما داهيتان ولا شأن لي بكما.

حسيبة: إذن لماذا لا تقف إلى جانبها وتشهد بما تعرف... انتبه جيدا يا عزيزي... إذا وقعت قدمي في الغية دون إرادتي... فلتكن بصحبة الجميع... كيف تتركني لوحدي في هذا المأزق...؟

أنور: وما دخلي أنا بك...؟ أنت مسؤولة عن أفعالك وتصرفاتك وعمن تختارين الاصطفاف وراءه.

حسيبة: أنت معنا شئت أم أبيت... وإلا فإنني سأصرخ الآن بأعلى صوتي وأتهمك بالتحرش... وبأنك شريك نعيمة.

عواطف: أصبحت تتقنين اللعب.

أنور: وما الّذي ستجنينه من وراء ذلك؟

حسيبة: لا شيء... ولكن يجب أن نكون على نفس الكلمة ونفس الرأي... حتى إذا ما طلبنا للشهادة... أدلينا بنفس الأقوال.

ثم عادوا إلى مواقع عملهم. وبعد سويعات قليلة أقبل شعب كبير من الزائرين على غرف أقاربهم و أصحابهم المرضى، وكان من بين هؤلاء البشر سبع صبايا من زميلات مريم بالمصنع الّذي تشتغل به وفي نفس الوقت هنّ بنات حيّها

وجاراتها... التففن بصديقتهن يتفحّصنها من أخمص قدمها حتى قمّة رأسها، ثم يحضنها ويقلّبن زوايا وجهها وجسدها بالكامل، ويستلطفن لها ويسألنها إن كانت تتوجع، وإن أحبّت الأكل الّذي يجلبونه لها، وعن طريقة قيامها بحاجياتها، هل كانت تفعل ذلك في مبولة في الفراش أم في حفاظة ؟ أم تراها مجبرة على التنقل رغم آلامها إلى الحمام المشترك مع المريضات الأخريات؟ والأهم من ذلك إن كانت الجروح بليغة قد تترك لها آثارا على وجهها مدى الحياة. كان ذلك في جوّ من الضحك والنكت والفكاهة التي أمتعت بنت رجب وخففت عنها معاناتها وتأنيب ضميرها. وفي خضم حديثهن عن آخر المستجدات في البلاد وبين العباد، وخاصّة في العمل وبين الزميلات وأعرافهن، وجديد الحي وأهله وجدت مريم نفسها، وبنفس التلقائية التي دفعت أنور لإخبار حسيبة بما صدر من نعيمة، تقصُّ على مسامع الفتيات تلك الواقعة وتفرّجهن ما سجّلت قبل مجيئهن من حوار دار بين الممرّضين برهانا على خبثهم ودناءة تصرّفهم.

كان وسيضل يوما مفصليا في حياة نعيمة، إذ توفّرت لها فرصة قاتمة ومهينة كي تكون في بيتها وبين أبنائها، إلا أنّهم نفروها وابتعدوا عنها فاعتكفت بالمطبخ وأعدّت من الطعام أطباقا شهية ومتعدّدة، ونصبت الطّاولة للغداء ثم نادت إلى الأكل لكن ما من مجيب.

تربعت ملاك فوق سريرها تنظر في نفس الصفحة من نفس الكتاب الّذي وضعته على حجرها منذ ساعتين، تحاول حلّ التمارين التي طلب الأستاذ منها أن تعدّها ليوم الاثنين ولكنها لا تستطيع التركيز المتواصل لأنها كانت تأمل أن يهاتفها صديقها الّذي وعدته منذ أيام أن توطّد علاقتها به وتسلّمه نفسها عربون انتماء له وارتهان لحبّه، ولكنه لم يفعل. إذ ومن دون أن تتطرق إلى الصدمة التي حلّت بها البارحة حين رأت ما رأت على هاتف كريم، كانت قد اتصلت به وعبّرت له عن اضطرابها وعن رفضها تلبية مبتغاه في إقامة علاقة جنسيّة. كان نبيلا معها، وأجابها أنها مذبذبة وصبيانيّة وأنه لا يحبّ الصبيّانيات، وسيقصر المسافات بقطع علاقته بها، عندها سترتاح من حِمل أثقلها وشتّت أفكارها، وتمنّى لها حظا سعيدا في بقيّة مشوارها الإنساني، كما وعدها أنه سيخوض علاقة جديدة في أقرب الأيام كي ينساها بسرعة ولا يعيش على ذكراها ناصحا إياها أن تفعل نفس الشّيء كي لا تبقى متعلّقة به وهو مع غيرها فتزيد حيرتها ويتفاقم اضطرابها.

شيراز كانت قد تسمّرت إلى كرسيّها وأمام حاسوبها... ربّما منذ عشية الأمس، تُبحر على شبكات التواصل وعلى مواقع إباحيّة زعزعت نفسيّتها وأحبطت معنوياتها ونفثت فيها أحاسيس متنافرة، غلب عليها السخط والغضب. وللعلم... فإن هذا لم يكن بعلم أحد... كالعادة.

بينما كان خليل قد ملأ طبقا عريضا بقليل من كل أكلة وضعتها والدته على

طاولة الإفطار وارتمى على الأريكة يأكل بنهم وعيناه لا تفارقان التلفاز والصور المتحركة الصاخبة.

أما كريم فقد استفاق متأخرا إذ لم يتمكّن من النوم جيدا في أول اللّيل. فبعد أن طردته والدته من المنزل قبل ذهابها إلى العمل كان قد خرج يعضّه الندم لما فعل مع إخوته، يجوب الشوارع والأنهج ويتسكّع أمام المحلات والمطاعم ليقتل الوقت دون أن يهتدي إلى قبلة مجدية يتبعها إلى أن تلقى في آخر اللّيل إرسالية من ملاك تقول له:

– "كن رجلا هذه المرّة و عد إلى المنزل. لا تتركنا وحدنا."

حينها رجع وانعزل في غرفته دون أن يرى أو يخاطب أحدا. وحين سمع والدته تناديهم إلى الأكل، تسلّل من غرفته دون أن يجلب انتباهها إليه وغادر البيت بسيّارته الصّغيرة البيضاء والجديدة يجوب الشوارع لساعات لم يتخللها غير مكالمة والده يستفسر حال البيت في غيابه. أخبر الشّاب أباه بما حصل وبأن الجوّ متوتر للغاية، وأن والدته أصبحت على علم بخيانته لها وبالشريط، وأنها طردته حين عرضه على إخوته وتسبب لهم في هزة نفسية عنيفة وبليغة، فقال له عبد الله بهدوء:

– لا عليك يا بني... الحياة تجارب... والحظ والتفوق لمن زادت تجربته عن غيره... ولكي تزيد تجربة المرء... وجب عليه خوض الحياة منذ الصغر حتى تنصهر شخصيته ويشتد عوده... فتراه بعدئذ لا يتزعزع ولا يقوّض... بل متينا، صلبا في وجه الأوزار... فيفوز ويهنأ... ليعلو وينعم.

ثم أضاف:

– سأمر فيما بعد إلى المنزل لأخذ بعض الأغراض.

من البديهي أن أترك البيت بعد كل شيء.

علّق كريم واتصل بوالدته كي يبلّغها بأن والده ينوي المرور لأخذ حاجياته

قبل الرحيل. في ذلك الحين نهضت نعيمة من أريكتها وجرت إلى غرفة الحمام وأخذت دشا مطوّلا وبشدّة، ضاربة عرض الحائط فرضية أن تكون بصدد إهدار الماء في بلد يعيش فقرا مائيا لا حلّ يرتجى له، وإمكانية أن تتلقى فاتورة ماء مرتفعة، أو احتكار غرفة الاستحمام لوقت قياسي، أو انحباس البخار وتكاثفه مع فرضية أن يقبض أنفاسها ويمنع عنها الأوكسيجين.

أرادت المسكينة أن تنظّف جسدها وتطهّر روحها الملطّخة بالوساخة التي علقت بها على مرّ السنوات: زوج خائن ومستقيل من كل مسؤولياته العائلية... ابن غريب ومورّط في أذى فتاة ولا يتردّد في إلحاق الأذى بإخوته الصغار... زملاء حقودون لا تتظافر جهودهم إلا في إلحاق الضرر بها... وبطبيعة الحال رائحة الثوم والبصل والزيت المقلي التي علقت بثيابها وشعرها بسبب الطبخ.

تراصّت أفكارها وتكاثرت داخل رأسها المكسو باللون الرمادي والّذي طغى عليه بياض الشعر منذ زمن بعيد. فيما مضى تفنّنت في صبغه وتلوينه بألوان داكنة و غامقة، ولكنها أدركت للتو أنها أصبحت تكره السواد الّذي مالت إليه وتركته يغرّر بها ويغالطها وينسيها عمرها وشكلها وزيّف حقيقتها حين أقنعت نفسها أنها لا تزال يافعة، شابة ومن الجمال ما لا يسمح لزوجها بالنّظر إلى غيرها. لكن هيهات، ليس هذه المرّة. أمعنت النّظر في أبيض شعرها فأحبّته لأنه منها... وفردته فروّح عنها وكشف لها ما كانت تراوغ منذ بدأت علاقتها بذلك الرّجل. مخادَعة مشتَركة وتشاركية طويلة الأمد والمدى وبرضا الطرفين مع سابق الإضمار والتبصّر. تقمّصا دور المحبين الملهوفين ليتسنّى لهما العيش كما تهيّأ لهما أن المحبّين يعيشون. مغالطات كلامية... أكاذيب عاطفية... وأقوال انتهازية تثلج الصدر وتبعث ما يشبه الحنان والدفء والأمان. لم يكن حبا ما جمعهما. ما تقاسماه كان زعما تظاهرا به وتبنياه لأنه لم يولد من صلبهما. حسبا حساب الغير والنّاس والمجتمع... ليكون لهما ألق

يُحسدان عليه. وأحبّا ذلك وارتاحا في صنعه. كيف لا ؟ أستاذ جامعي يحبّ زوجته ويعشقها ويغدق عليها بألذ الكلام ومعسوله، وينظم فيها الأبيات والقصائد، وينجب منها خيرة الأبناء. ودكتورة ذات سمعة جيدة، مغرمة، حنونة، لم تبخل يوما على زوجها بشيء... أعطته وأغدقت عليه بلا حساب... وهبته مالها وما لديها من أجل إرضائه إلى أن حسدتها عليه مئات من بنات حواء اللاتي استغربن أن يكون من نصيبها دون غيرها. ولكنها اليوم تستفيق ولم تعد تقوى على إنكار أن ربع القرن المقضي كان وهما حكمته العادة والمعتاد والروتين حتى الأوتوماتيكية وصولا إلى اليقين. زواجها منه كان لمصلحة وإرضاء نفس توّاقة إلى الهناء والهدوء.

وضعت نعيمة منشفة فوق شعرها المبلّل وتحزّمت بأخرى ووقفت أمام مرآة تمسح عنها البخار ثم نظرت فيها وابتسمت لصورتها التي بادلتها الابتسامة فهزأت منها وقالت ساخرة:

– أو كنت تظنين أنك وجدت توأم روحك...؟

غبيّة... توأم الروح لا يتزوّجون أبدا...

قيس جنّ بسبب ليلى...

وضّاح قبر بسبب أم البنين...

وحتى روميو... وإن كان قد تزوج من جولييت... فقد انتهى به الأمر منتحرا...

الّذين يتزوجون مختلفون عن هؤلاء... قلوبهم خالية وأرواحهم نائمة... لكن أدمغتهم تشتغل على النسق السّريع... ليلا نهارا وبدون هوادة... يجمعون ويطرحون ويتملقون ويتآمرون على بعضهم البعض كي يتزوجوا... وينهكون كي يحافظوا على رابط الزواج فيقعون في فخه إلى النهاية.

المتزوجون لا ينفكّون عن التّساؤل... كيف حدث ذلك ومتى سينتهي...؟

يسقطون في جبّ المشاكل ويهدرون وقتهم في البحث عن الحلول.

اليوم أظنّني أمام الحل...

اليوم اتضح كل شيء...

لن ألومه ولن أعاركه... سأتركه يرحل بسلام...

المهم ألّا أراه ثانية حتى مماتي...

ربّما أراه يوم نجاح كريم... ويوم تخرج ملاك... وشيراز وخليل...

وأيام زفافهم وميلاد أبنائهم... آآآه... لا يهم...

لست أفهم لم أخذت هذا الدّش حين سمعت أنه قادم ...؟

ليراني في أحسن حال...

لأنني أريده أن يجدني في أفضل الأحوال...

لماذا...؟

أليندم ويتحسّر على تركه لي وإضاعتي من بين يديه...؟

لكنه سوف يندم... يوما ما...

أضنّها العادة... والتعوّد...

يجب أن أقطع مع هذا...

سيكون ذلك صعبا...

لن أهتم به ولن أهتم لما سيقول... وأظنّه سيقول ويقول ويُكثر من القول... هذا مجاله... ولا أحد ينازعه فيه...

سيحاول تبرير ما فعل وتبسيطه وتحقيره... لن ينكره... لن يتجاهله ولن يدير له ظهره...

لن يعتذر... كالعادة...

سيحاول إقناعي أن ذلك قدرنا... وعلينا تقبّله دون أن ننكره... أنه شيء فينا

ومنّا...

سيتحدث عن نفسه... إنه يعشق الحديث عن نفسه...

سيتحدث عني... سيواجهني بما يعرف عني... فهو يعرفني أكثر مما أعرف أنا نفسي...

سيقول أننا جُعلنا لبعضنا... وأنني توأم روحه... وعلينا أن نصرف النّظر عما سيسمّيه... فسحة الجسد...

سيستوقفني ويمنعني من أن أتجاهله... سيلحق بي إلى المطبخ... إن أنا ذهبت إلى المطبخ...

سيصعد ورائي إلى الغرفة... إن أنا ذهبت إلى الغرفة...

سيمسك بيدي... سيضع يده على خصري... سيقبّلني...

هو أيضا اعتاد ذلك...

سنتصالح ونذهب إلى سريرنا... ولن نتركه إلا في الغد...

وسيفرح الأطفال... وسينسون ما حصل البارحة... وسيذهب معهم في فسحة... ويحكي لهم بطولاته...

سيقف معي في محنتي في العمل... ربّما سلّط أحد معارفه النافذين لينهوا الموضوع مع إدارة المستشفى وزملائي الأكارم...

استفاقت نعيمة من هذيانها على صوت قرع باب غرفة الحمام التي انقشع منها معظم البخار. فتحت، فإذا عبد الله أمامها بقبعته الداكنة، يحاول ألا ينظر إلى ما كشفت من جسدها المبلل وقال:

– جئت لأخذ بعض الأغراض...

أنا آسف...

اعتني جيدا بالأبناء... سيكونون في أحسن حال معك.

ثم فتح درج خزانة نصبت بجانب حوض الماء وأخرج علبة خيط أسنان وآلة حلاقة كهربائية ، وعاد بجانب سريره العريض أين نصب حقيبة كبيرة ملأها ثيابا وأحذية ودس في أركانها الخيط وآلة الحلاقة وجوارب وملابس داخلية.

لم تكلّمه نعيمة ولم تلحق به لتسمع منه. بل تركته يرحل لتخرج من غرفة الحمام وتستلقي على سريرها وتنام.

***

بعد ذلك ساد الهدوء والاستقرار في بيت الطّبيبة ثلاثة أيام متتالية. بعد إبعادها عن عملها ورحيل زوجها أصبحت تقضي معظم أوقاتها بين الطبخ والتنظيف وتوصيل أبنائها إلى دراستهم، ما عدا كريم الّذي كان يتفادى مقابلتها ويذهب إلى كلّيّته بمفرده في سيّارته البيضاء الصّغيرة والجديدة. لم تتكرّر الخصومات والمشادّات بين الفتى وأمه التي اختارت التهدئة وعدم التصعيد لكي لا تخسره ويهرب عنها ويحمّلها مسؤولية تصدّع العائلة. خيّر أهل ذلك البيت أن يصمتوا تفاديا للعراك والتناحر، إلا أن صفوة الجو لم تكن قادرة على إخفاء تحوّر طباعهم فيما بينهم وأكثر.

ملاك لا تكفّ عن الشرود ولا تجف عيناها من الدموع باكية ما حلّ بأسرتها ولوعة الانفصال عن حبيبها الّذي تعطّف عليها هذا الصّباح بإرسالية هاتفية كتب فيها:

– C fini ma bel… G en faim trouvee mieu

كريم من ناحيته أصبح فضا مع أصحابه، جافيا في تصرفاته، سليط اللسان ومستفزا بأبسط الأفعال والأقوال لغضب زملائه وأولهم سندة وسامي الّذين تماديا في السخرية والاستهزاء في غياب ماجدة عن الدّروس بسبب تفاقم مشاكل والديها. كما بدا مهتزا ومنفعلا خاصّة ساعات دخوله إلى الكلّيّة أو البيت أو

ساعات خروجه منهما، فتراه قبل كل خطوة يقدم عليها يلتفت يمينا وشمالا بدل المرّة عشرة باحثا في كل الاتّجاهات إن كان صلاح وراءه. إذ كان الأزعر قد ساومه منذ أيّام بعد أن كان قد ساوم والده وعشيقته وهدّدهما بأنه سيعود إليهما في غضون أربع وعشرين ساعة ليتّخذ في شأنهما قرارا ولكنه اختفى، والأرجح أنه هو أيضا اختار أن يتوارى لفترة خشية أن يكون تحت أعين الشّرطة.

كانت شيراز الأكثر تأثرا بسبب ما حدث تحت سقف البيت. والّذي زاد ما بها أنها لم تحظ بكلمة طيّبة تخفّف عنها أو أذن مصغية تسمع ما يجول في خاطرها. ما من أحد يسألها عن رأيها، أو أحد يأخذ بيدها ويرشدها. الجميع مستقلّون ومستقيلون. أكثرت منذ أن وقعت عيناها على ذلك الفيديو الذي رأت فيه والدها يمارس الجنس من الجلوس إلى الأنترنت والإبحار على المواقع الإباحيّة حتى سقمت، فذهبت إلى مواقع تعرض مشاهد عراك بين شبان ومراهقين، أو منحرفين ومنفلتين يحرّضون على العصيان والتمرّد وعدم الانصياع إلى أوامر أولي الأمر، ويدعون الشّباب إلى التجرّد من الأخلاق البالية التي كبّلت أعمالهم وخرّبت حاضرهم وأعدمت مستقبلهم قبل مجيئه، محفّزين بعضهم البعض على الضرب والعنف وفرض الهيبة وتخويف البشر منهم ومن بطشهم. وفي غضون يومين فقط انتهى المطاف بالفتاة على شواطئ بحور زرقتها خدّاعة وأمواجها غدّارة. مواقع سلفيّة إرهابية تشعل الفتنة بين الأهل، وتكفّر الآباء الّذين نأوا عن دينهم ونهج سلفهم الصالح واتبعوا المجون والفسق، وتخوّف الأبناء من مهلكة الاقتداء بأوليائهم وما سيجنون عليهم من تِيه في الدنيا قبل عذاب القبر ونار جهنم. ونما عند الفتاة شعور بالكره تجاه والديها وبالسّخط على ما يفعلون، وغدت لا تترك غرفتها وحاسوبها إلا للذهاب إلى بيت الراحة أو لأكل ما تيسّر لإسكات عصافير بطنها إن تعالت أصواتها. وكثر صراخها وعراكها مع خليل وملاك، وأصبحت لا تطيق الكلام مع نعيمة وتمنّ

عليها بلا مبرّر بوابل من النّهر والشتائم والنعوت المشينة، ولكن المرأة اختارت عدم التصعيد كي لا تستفزها أكثر فتضمن بقاء مواعين المطبخ وأبواب الغرف سالمين إلى أن تجد لها حلّا نهائيا. لكن هيهات، فسلوك شيراز العدواني تجاوز عائلتها ليطال الأصحاب والمدرّسين في الإعدادية، لذلك التجأت الإدارة إلى الاتّصال بالدّكتور عبد الله تشتكيه ابنته وتحثّه على إيجاد حلّ سريع قبل أن تأخذ في شأنها قرارا ردعيا صارما. وبسرعة اتصل الأب الكريم بابنه كريم كي يطلب منه أن يخبر والدته بالموضوع لتعالجه كما اعتادت أن تفعل دائما. وحين علمت الفتاة أن والدها لم يكلّف خاطره ليهاتفها أو يسأل عنها وإنّما رمى حملها على والدتها، انفجرت في وجه هاته الأخيرة ببكاء هستيري وأغدقت عليها بكمّ من السبّ والإهانات والكلام الجارح محمّلة إياها مسؤولية ما يحدث وسبب رحيل والدها والذهاب عند امرأة أخرى قد تعطيه أطفالا آخرين سيكون معهم أكثر لطفا وحضورا.

وزاد ذهنها تشويشا وعقلها زعزعة وريبة. أفكارها غير ثابتة وإحباطها عميق وجائح فات كل قدراتها على التحمّل. خمّنت أن إحباطا مثل الّذي انتقاها من بين البشر قد أخطأ العنوان والإنسان. فكيف لفتاة في عمر الورود أن تتحمل ضيقا مثل هذا الضيق الّذي لو احتل قلب كهل وعقله ووجدانه لأزاله من وجه الأرض. ظنت أنها تستحق ما حلّ بها ليعاقب والداها فيها. أطبق ثقل الحمل على كاهلها فنخر جسدها وانتهك قواها. خذلها أبطال الأنيمي... وخذلها أبطال مارفال... والكرتون... والمانقا... وأهملوها ضعيفة وحيدة بدون جيشها العتيد.

في غرفتها المظلمة اختارت شيراز أن تنعزل عن أسرتها وتدمن على مواقع الواعظين والدعاة إلى الهداية والسراط المستقيم، وإلى التمرّد على كفر الوالدين وإلحادهم. أناس أغراب تسللوا إلى رأسها الصغير واستوطنوا في قلبها الحزين والمصدوم، ينادونها إلى الرجوع إلى الفقهاء الأجلّين وعلمهم الصحيح واتباع

مرشديهم الّذين بعثهم الرّحمان ليُنيروا الطريق أمام بصرهم وبصيرتهم كي يصلوا بها وبأمثالها إلى الإيمان الصّحيح بالتقوى والخشوع وفرض الشريعة منهجا في حياتهم حتى ينجحوا في إرساء دولة الإسلام والخلافة وقيام جيشها الّذي سيضرب الكفر والكفّار والملحدين بحق واحد أحد.

***

في ذلك اليوم اجتمع صلاح في دكانه الصّغير وستّة من أصحابه وأبناء حيّه يدخنون سجائر مغشوشة ويشربون الخمر خلسة ويشاهدون مقابلة في كرة القدم من البطولة الإنكليزية على قناة مشفّرة. وفي منافسة مع الدخان الخانق احتل المكان صوت أغنيات وموسيقى الراب الهادف إلى النعرة والعنف وثورة الفئات المشمّسة. تشابك حديث الشّباب وعلت أصواتهم الفحلة بمثل علوّ منسوب السّعادة والنشوة التي بعثتها في رؤوسهم الكحول والحشيش. لكن صلاح كان هائما بعض الشّيء، ولم يجارِ نسق أصحابه في الشّرب والكيف، بل اكتفى بقارورة جعة واحدة مع كل سيجارة دخّنها. لم يتحدّث كثيرا ولم يرفع عينيه عن هاتفه الجوّال إذ كان يشاهد ويعيد ما صوّر منذ أيام من حميميات عبدالله وحليمة.

نده عليه أحد أصحابه وسأله عما يشغله فقال وعلى وجهه الانشغال والحذر:

– عليكم حمايتي والوقوف إلى جانبي.. لا أريد أن يصيبني مكروه.

فسأله آخر مستغربا:

– أي مكروه قد يصيبك ونحن معك؟ هل جننت يا رجل؟ ماذا تقصد؟

فأجاب صلاح مراوغا:

– أريد مبلغا ماليا من زبون ولم يأتني به بعد... أظنّه سيدبّر أمرا للتنصّل من دفع ما عليه..

– هل طالبته به...؟ هل اتفق معك على ميعاد للدفع وأخلّ بك؟

– في الواقع... أنا من حدّد كل شيء... ولم ألتزم ... المسألة معقدة بعض الشّيء...؟

– لا عليك... والتفت إلى بقية الأصحاب وقال: نحن جاهزون لاقتلاعه معك من فرج أمّه إن لزم الأمر... الآن إن أردت...؟ ما رأي الرّجال.. ؟

فهتف الجميع بصوت واحد:

– موافقون... لقد جنى على نفسه ابن العاهرة...

ودفع السداسي برفيقهم إلى الخروج معهم في مهمّة كفريق وكلاء التّحصيل. كانت السّاعة تشير إلى السّادسة والنصف مساء حين وضعوا على رؤوسهم خوذاتهم الدّاكنة وانطلقوا على درّاجاتهم النّارية الثقيلة الصاخبة بسرعة جنونية يجوبون الشوارع والأزقّة والأنهج حتى وصلوا أمام بيت كريم حيث كانت السيّارة الصّغيرة البيضاء والجديدة رابضة تحت أغصان شجرة التوت المتدلّية من وراء السور. أسكتوا المحركات والتفوا بالسيّارة يدفعونها ويضربون سقفها ويطوفون حولها كما لو كانت مناسك من طقوس دينيّة غريبة. ثم تظاهروا بالحديث وفحص العجلات والتثبّت من سلامة الإطارات ومن دون أن يخلعوا الخوذات عن رؤوسهم المسطولة كي لا تكشف هويتهم للعلن، كانت أعينهم تتراقص في كل الاتّجاهات لتراقب المارة والعربات. ثم تمركز صلاح أمام جهاز الاتّصال مع داخل منزل عبد الله وضغط الزّر وانتظر لحظات حتى سمع صوت كريم ينادي:

– مرحبا... من هناك...؟

فأجابه وبدا عليه الخمار:

– كريم... يا صديقي...

كريم... يا عزيزي...

كيف أنت يا صاحبي... ورفيقي... وشريكي...؟

اشتقت إليك... وأنت...؟ ألم تشتق إلى شريكك...؟

فزع كريم وانقبض وغمّت نفسه ونال منه الغضب، وأدرك أن اليوم لن ينتهي على خير ما دام ذلك المنحرف قد تجرأ على المجيء عنده والوقوف على بابه بغير حياء.

– ما الّذي يريده مني...؟ وإلام ستفضي هذه الزيارة...؟

صلاح عنيد ولا يثنيه شيء للحصول على مبتغاه.

أثبت أنه يحب العنف ويستسهله...

هشّم عظام مريم ووجهها، وتلصّص على والدي وعشيقته...

والآن ها هو على باب بيتي... يا لوقاحته وجرأته...

هل يجب أن أخرج لمواجهته في نزال حتى الدّم...؟

إن كان ذلك الأخرق لا يهاب السّجن لأنه سيجد فيه أبناء كاره وحيّه من المجرمين أمثاله... فإن الأمر مختلف تماما بالنّسبة لي...

قد أخسر كلّ شيء بسبب هذا المعتوه...

ثم ضغط على الزّر الدّاخلي لجهاز الاتّصال وصاح:

– ماذا تريد...؟ لماذا أنت هنا...؟

– افتقدتك فأتيت لأملّي عيني بوجهك الملائكي... اشتقت إليك يا صاحبي... ألا تأتي لرؤيتي...؟

– لا أريد رؤيتك... اذهب من هنا وإلّا دعوت الشّرطة...

– لا أظنّك تفعل ذلك... لست غبيّا...

تعالى بسرعة وافتح لي...

لم يجرؤ كريم على التصعيد وانصاع لأمر صلاح وذهب إليه. فتح الباب

الخارجي للمنزل ثم أوصد غلقه وراءه بعد أن خرج إلى عتبته حتى يمنع غريمه من الدّخول فهزأ منه هذا الأخير وقال:

– لا أدخل من الأبواب أيها الغبي...

– ما الّذي تريده مني؟

– لست أدري...

منسوب السّعادة والنّشوة في أدمغتنا مرتفع للغاية... لذا أتينا عندك أصدقائي وأنا كي نخفّضه بعض الدّرجات... هل تمانع...؟

ثم التفّ الزّعر بصاحبهم وأحاطوا كالحلقة بابن عبد الله وأخذوا يدورون به وهو واجم في قلبها. وأسرعوا شيئا فشيئا في الدّوران والتنطّط والقفز والتهريج... وفي كل مرّة يهمزه أحدهم، أو يلمس رأسه أو يسحبه من سترته... حتى أصبح ذلك الاستفزاز دفعا وصفعا وركلا... ولكن كريم لم ينهزم وظلّ صامدا في وجوههم رغم المهانة وبركان الغيض والاحتقان الّذي كان يهدّد بالانفجار في صدره في أي لحظة. كان يصبّر نفسه بفكرة واحدة فرض عليها هي الأخرى أن تستوطن داخل رأسه وتدور فيه على عكس دوران الأشرار حوله:

– أنا وحيد وهم سبعة...

أنا وحيد وهم سبعة...

أنا وحيد وهم سبعة...

وأقنع نفسه أنه بطل ذو قوة خارقة هابها صلاح فالتجأ إلى عزوة تحميه وتسند ظهره أمامها.

في المنزل كانت ملاك قد فطنت إلى أن شيئا غريبا يحدث بالخارج. إذ انتبهت منذ حين إلى صخب الدّرّاجات النّارية تصدّع الجدران وبلّور النوافذ، ومن بعده إلى جرس الباب يُقرع. وكانت قد رأت أخاها الأكبر يخرج ليرى من بالباب وها

هو لم يرجع بعد. اقتربت من نافذة غرفتها بالطابق العلوي والمطلّة على الشارع فرأت مشهدا سرياليا أبطاله سبع منحرفين يتطاولون على كريم ويعنّفونه لفظا وجسدا. صرخت الفتاة ونادت بأعلى صوتها:

– كريم... كريم يا أمي... إنّهم يعنّفونه...

وخرجت المسكينة ملهوفة ومرعوبة تجري وتنادي أخاها، وما إن فتحت الباب الخارجي للمنزل حتى التقفها صلاح ومنعها من التدخّل والاقتراب من شقيقها. وحين رأى المسكين أخته تصرخ وتعافر من أجل الوصول إليه، قفز إليها ليفتكّها من بين براثن عدوّه، لكن سداسيّ كتيبة الانحراف انقضّوا عليه وأحكموا قبضتهم حول أطرافه، فأصبح يصرخ وينادي ملاك، ويتوعّد ويسبّ أولئك المجرمين ويتصارع معهم، إلا أن قوّتهم زادت عن قوّته بمرّات فطرحوه أرضا وثبّتوه حتى كادوا يخنقوه ويكسروا عظام صدره.

وبقي ابن عبدالله طريحا، عاجزا عن الحراك، وقد تملّكه الغثيان ورغبة في التقيّؤ، بالكاد يخطف أنفاسه من تحت ستّة أجسام مخدّرة الأدمغة والضّمائر، تنبعث منها روائح التّبغ والقنّب والكحول ورائحة عطرين رديئين أو ثلاثة اختلطت برائحة العرق والصّنان، وكان يرى ملاك فريسة لا حول لها ولا قوّة في قبضة صلاح الّذي مضى يلاعب شعرها بيده ويتشمّم رائحة عطرها من تحت خوذته الدّاكنة ويداعب ثدييها وبطنها وأردافها.

كادت المسكينة تفقد وعيها وتموت من هول ما وقعت نفسها فيه من دون اختيارها ومشورتها. هي التي رفضت منذ أيام أن تعطي جسدها لمن طلبه منها، تعجز الآن عن صدّ من يغتصب إرادتها وذاتها الطاهرة.

***

أخذ د. مراد رشفة قهوة وضع بعدها الفنجان أمامه على الطّاولة ونظر إلى

عبدالله ومن بعده إلى حليمة، ثم ابتسم ليداري حيرته وحدّق في إلهام التي بادلته الابتسامة والحيرة، ثم التفت مرة أخرى إلى عبدالله وسأله:

– خيرا عبدالله...؟ دعوتنا فجأة إلى هذا المطعم الراقي... دون سابق إعلام... وها أنت تصرّ على الانفراد بدفع حساب العزومة لوحدك... ولهذا نحن ممتنّون كثيرا ونشكرك جزيل الشكر... شربنا القهوة... ودخّننا السّيجارة وتحدّثنا في شتّى المواضيع ... في انتظار أن يأتي النادل بالعشاء... ولكنّك لم تخبرنا حتى الآن سبب هذا الإطراء...

ابتسم أبو كريم ثم أخفض رأسه وقال من تحت قبعته بهدوء:

– أنتم أصدقائي الّذين تجمعني بهم علاقة تعود إلى أيام الدراسة وإلى بداياتنا المهنيّة... لذا أريد أن تكونوا أوّل من يعلم آخر الأخبار... قبل أن تتناقلها الألسن فتأتيكم من غيري محرّفة وعارية من الصّحة والمصداقيّة ... وعندها ستعاتبونني وستلقون عليّ اللّوم لعدم إشراككم... أنتم... أحبّائي وأصدقاء عمري... قبل غيركم... ما سيغيّر حياتي إلى الأبد... وإلى الأفضل... إن شاء الله... لذلك... وحول هذا العشاء اللّطيف... يسعدني أن تشاركوني فرحتي بخوض تجربة ومرحلة جديدة أتمنّاها الأسعد من مشوار العمر.

تململت حليمة واحمرّ وجهها خشية أن ينطق الرّجل بشيء يصعب عليها مجاراته، إذ أنّه وبالرّغم من تواجده عندها منذ أيام، لم يصارحها بشيء من نواياه واكتفى بتطمينها أنّ الأمور لاتزال تحت السّيطرة فاكتفت بابتسامة ظريفة ونظرت في عيني إلهام ورأتها تشعّان شغفا وفضولا لمعرفة ما سيُدلي به الرّجل فقالت:

– أنت تتقن التّشويق عبدالله... ما القصّة...؟

فقال متصنّعا:

– في الواقع أنتم تعلمون أنني متزوّج بسيّدة فاضلة منذ أكثر من خمس وعشرين

سنة... لن أجرؤ على المساس من صورتها وممّا قدّمت لي طوال هذه الفترة... التي أعتبرها الأهمّ من مسيرتي... إنسانة محترمة... أمّ مناضلة... وطبيبة نزيهة يُشهد لها نقاء السيرة ويُحسب لجدّيّتها وخبرتها ألف حساب... أعطتني أطفالا صالحين يحسدني النّاس عليهم. ومن جهتي كنت أبا مجنّدا لتربيتهم أحسن تربية و لصونهم من كلّ بأس... لم أقصّر يوما في حقّهم... ولم أدّخر جهدا أو حبّا أو حنانا كي أجعل منهم ما أصبحوا عليه من توازن ونجاح دراسي واجتماعيّ... لذلك... وبقلب راض وضمير مرتاح وثقة عالية... أنا متأكد أنّ ما سأُقدم عليه لن يعود عليهم بالضرر... بل إنهم سيفهمون موقفي وسيدعمونني ويناصرونني.

كل ما أريد قوله... هو... أنني قرّرت الانفصال عن والدتهم... الدّكتورة نعيمة.

امتعض مراد وتعرّقت إلهام ولكنّهما أظهرا على وجهيهما المفاجأة والاستغراب فقال الأوّل:

– أ معقول ما تقول يا عبدالله...؟

وأضافت الثانية:

– ما هذا الخبر يا عبدالله...؟ كيف يحدث ذلك... ولماذا...؟

فأجاب بدوره متكلّفا الحياء والإحراج:

– في الواقع... السّبب قديم... لازمني منذ تزوجت نعيمة... حين اكتشفت أنني لا أكنّ لها المشاعر التي تستحقّها مني... بالمقابل عشقت امرأة أخرى وتعلّقت بها... وكان حبّي لها خالصا لا ريب فيه... واليوم لا يمكنني إخفاؤه أكثر ممّا فعلت...

هذه المرأة هي حليمة...

نحن على علاقة منذ فترة... آن لها أن تخرج إلى النّور... وآن لحليمة أن تأخذ

المكان الّذي تستحقه في حياتي... ظلمتها طوال هذه السّنوات بزواجي من غيرها... لذلك قرّرت أن أطلّق الدّكتورة نعيمة وأتزوّج من المرأة الوحيدة التي تسكن قلبي... حليمة... طبعا إن وافقت هي على ذلك...

كان الأمر بالنسبة لإلهام جريئا ولكنّه غير مفهوم، فاكتفت بتقبيل حليمة واحتضانها والدّعاء لها بالهناء والسعادة وطول العمر. أما مراد فقد بان عليه الاستياء، كيف لا، والبساط قد سُحب بسلاسة من تحت قدميه، فاحترقت ورقة مساومة كان ينوي استغلالها وإخراجها في وجه عبدالله ليُجبره على التّخلّي عن الترشّح إلى عمادة الكلّيّة، والعلاقة السرية التي كان يعوّل على فضحها أصبحت الآن علنيّة ومباركة، فما كان منه إلّا أن أخذ رشفة أخرى أتى بها على ما تبقّى من قهوة في الفنجان وقال:

– أنت كالبئر العميق... لا أحد يستطيع رؤية قرارك... مفاجأة مذهلة وجميلة في نفس الوقت... مبارك إن شاء الله...

أمّا حليمة فقد زعزعها كلام عشيقها. أخيرا اعترف بأنّها حبيبته، وأنّه سيعطيها حق قدرها أمام نفسها وأمام النّاس، وسيبجّلها على زوجته التي قرّر أخيرا الانفصال عنها. استاءت من طريقته في التّعبير عن رغبته، أو بالأصحّ نيّته الزّواج منها. كانت تأمل أن يفعل ذلك بشيء من الرومانسية والشاعرية، وأن ينحني أمامها على ركبته مثل أبطال الأفلام الأجنبيّة، ممسكا بيدها ليطلب منها إن كانت ترضى به زوجا أم لا، ويقدّم لها باقة من الورود وخاتما من الماس، ولكنّها ستكتفي بما رأت وسمعت، وستوافق ما دام الأمر قد حُسم قبل أن يرجع الرّجل عن قراره ويغيّر رأيه.

***

ازداد صراخ ملاك وكريم وتعالى حتى وصل إلى مسامع شيراز في غرفتها

حيث كانت منغمسة في حاسوبها وما زخر به من صور الجلّادين يقطعون أجساد الكفّار ويضربون رقاب الطّاغوت بسيوف الله المسلولة، وكانت نفسيّتها مصدومة منتكسة ومتقزّزة لرؤية الدّماء والتّمثيل بالجثث. دفعت البنية بكرسيّها إلى الوراء لتبتعد عن مكتبها وغلبها أن ترفع عينيها عن مشاهد المجازر ووحشيّتها، واتجهت إلى نافذة الغرفة المطلّة على الشّارع فلمحت أخاها ممرّغا في الأرض وقد ركب فوق جسمه ستّة أشخاص بأزياء غامقة وخوذات تحجب وجوههم وتزيد من سواد المنظر وقتامته. وبجانبه ملاك رهينة وحش آدمي ينتهز وهنها وينال من جسمها وأنوثتها بينما كانت تحاول إبعاده أو غرس أظافرها في لحمه. سخطت شيراز وكظمت شدقيها وحبست أنفاسها فيبست أطرافها حتى شلّت حركتها، وبدأت أسنانها تصطكّ وجسمها يرتعد، وجفونها ترجف فنزلت دموع ساخنة فوق وجنتين باردتين هرب الدّم من شرايينها. أظلمت الدنيا في عينيها وتداخلت صور الحاسوب مع ما رأت فيه إخوتها، وخيّل إليها أنّهما ينزفان دما أحمر غزيرا على أرض سوداء انتصبت فوقها وحوش ضارية بضحكهم وتنمّرهم من تحت لثامهم المعدني المخيف. تمالكت نفسها وحثّت عزائمها وركضت إلى باب الغرفة لكن رجلاها خانتاها فخرّت قبل أن تفتحه ووقعت، فلم تجد من حلّ سوى أن تزحف وتحبو، لكنها لم تقوى على التقدّم كما لو أنها كانت مشدودة إلى حبلٍ مطّاطٍ مربوط حول عُنقها كي يُرجعها إلى الوراء. التفتت إلى النافذة فرأت سحابا أسود يقتحم الغرفة ويهجم عليها لابتلاعها، فزاد خوفها فأسرعت في الزحف حتى وضعت يدها على مقبض الباب وفتحته عنوة... وواصلت الحبو والدّموع تنهمر من عينيها المحمرّتين، وضاق نفسها وانحبس وتسارعت دقات قلبها حتى أصبحت تسمعها بين ضلوعها وفي أعماق أذنيها، وتصلّبت أعضاؤها وصعُبت حركتها حتى كانت في أولى درجات السّلم ولكنها تعثرت فسقطت وتدحرجت حتى بلغت أرضيّة

الطابق السفلي.

ارتطمت ضلوع المسكينة بعمود الدرابزين فصرخت من شدّة الألم وكأنّ سكينا اخترق صدرها، وللأسف لم ينتبه إليها أحد. أرادت أن تنادي وتصرخ أكثر... لكن شرّ الألم منعها بضراوة. وزاد قهرها بوحدتها وعزلتها وانشغال أهلها عنها، جمعت قواها واستقامت ووضعت يدها على ضلعتها المكسورة وذهبت إلى الصالون فلم تجد أحدا. همّت بنداء والدتها ولكنّها تذكرت كلام الدّاعية عن الأهل الكافرين وواجب القطع معهم، ولكنها أيضا استرجعت بين أعينها العنف الّذي أتاه زبانية ذلك الأفاق، ومن حدّة الألم والوهن تهيّأ لها أنهم هم من كانوا بصدد ضرب كريم وقمعه، والتحرّش بملاك وذلّها... ولم تعرف وجهتها... هل تقصد والدتها لتُسرع إليها بالعون والعلاج والأخذ بيدها؟ أم تبتعد عن هاته المشركة بالله ودينه الحنيف؟ هل تخرج إلى الشارع وتواجه أولئك الأشرار الّذين كانوا بصدد ضرب أخيها الفاسق المغرور الّذي عبث بعقلها وسوّد نفسّيتها منذ يومين حين لم يحترم طفولتها البريئة وما يربطهما من علاقة مقدّسة يحرّم تدنيسها وانتهاكها بالأعمال الفاحشة؟ أم تتركه يواجه مصيره وحيدا...؟ هل تترك ملاك أيضا لمغتصبها...؟ تلك التي انشغلت عنها باللّهو ومرافقة الشبان والاختلاط بالجنس الآخر... ضجيج وأصوات وصور مختلطة وأنوار داكنة وسحابة غيم فوق عينيها زادت من مرارة أحاسيسها وزعزعت إدراكها بما يدور حولها، ومن غير إرادة دخلت شيراز إلى المطبخ لتُمسك سكينا، وفي لحظة ترابط فيها الواقع بالافتراضي هَوَت به على معصمها وسقطت مغميّا عليها وسط بركة دم.

كانت نعيمة تضرب الزعران المتكدسين فوق كريم بينما كان واحد منهم يدفعها تارة ويجذبها من يدها أخرى ويحاول إبعادها عن أصحابه كي يُنهُوا مهامّهم على أحسن وجه وكان يصرخ في وجهها ويقول:

– هلا ابتعدت يا امرأة... ليس من المروءة أن أضرب امرأة...

لازلت أعتبرك مثل أمي... ستجعلينني أكسر عظامك أيتها الفاجرة...

ولكنها تصرّ أكثر فأكثر كي تلتصق بابنها وتحميه وتتلقى عنه صفعة أو صفعتين وركلة خفيفة أو أكثر، دون الانقطاع عن الصّراخ والولولة وطلب النّجدة من الجيران.

في غفلة من الجميع ابتعد أحد المنحرفين عن مجموعته وانتهز فرصة انشغال أصحابه بالعراك ودخل إلى المنزل دون هدف يُرجى، أو ربّما لأن نفسه الأمّارة بالسوء قد وسوست إليه أن يبحث في الدّاخل عن شيء نفيس صغير وخفيف يسهل سرقته بعيدا عن الأعين، لكنه وجد نفسه يتزحلق في الدماء ويقع بجانب شيراز. ذهل وفجع حين أبصر جثة الفتاة دون حراك ورأى اللّون الأحمر يلطّخ ثيابه، لكنّه استقام، وخوفا من أن يتورّط بمقتلها ويجد حبل المشنقة حول عنقه، أطلق رجليه إلى الجري حتى وصل إلى بقيّة فريقه، فدفع نعيمة بعيدا حتى أوقعها أرضا، وصاح في رفاقه أن ينصرفوا دون انتظار. وهذا ما فعله صلاح وعصابته حين رأوا سابعهم ملطّخا بالدّماء، وخافوا بدورهم أن يكون قد اقترف جريمة في حقّ أحد أفراد تلك العائلة المنكوبة، ثم قفزوا فوق درّاجاتهم وغادروا المكان بسرعة مجنونة.

وقفت ملاك ومن بعدها كريم وذهبا لمساعدة والدتهما على الوقوف، وحين رأوا ما عليها من دم ظنا أنها مجروحة فطمأنتهما أنّها بخير ولا شيء فيها، لكنها صرخت بأعلى صوتها:

– خليل... شيراز...

ودخل ثلاثتهم يجرون متعثّرين متزاحمين وينادون بأعلى أصواتهم وقلوبهم تنعصر خوفا من هول ما ينتظرهم بالدّاخل.

أمّا خليل الّذي كان يقف في الحديقة متواريا عن الأنظار تحت شجيرة صغيرة، فقد أخرج رأسه من بين أغصانها ونادى بأعلى صوته:

– أمي...

تفحّصت المرأة ابنها سريعا ولم تجد به شيئا فأودعته عند ملاك وجرت إلى الدّاخل تنادي شيراز بأعلى صوتها فلم تجبها. أشار كريم لوالدته أن تنظر إن كانت أخته في المطبخ وصعد كالمجنون إلى الطابق العلوي يبحث في الغرف والشرفات ولكنّه لم يجد أحدا، إلّا أنّ صرخة نعيمة زلزلت جدران البيت وجدران قلبه الّذي كاد يتوقّف عن الخفقان، فرجع إلى الأسفل بأقصى سرعة ودخل على والدته ليجدها تهمز شيراز وتخضخض رأسها وتضرب وجهها وتصيح فيها أن تفتح عينيها وتجيبها، وبجانبها ملاك تولول وتحضن خليل محاولة منعه من رؤية أخته وسط الدم.

في تلك اللّحظة سُمعت أصوات تتعالى في حديقة المنزل لبعض الجيران يتقدّمون بحذر وينادون أهل البيت. كانوا أكثر من عشرين نفرا ترأّسهم السيد محيي الدّين رافعا هاتفه الجوّال عاليا ويقول:

– كريم... كريم يا بني... دكتورة نعيمة... حاولت الاتّصال بالأستاذ عبد الله لكنّ هاتفه مغلق... لقد بلّغت الشّرطة وهم قادمون... لا تخشى شيئا يا بني... لقد صوّرت كلّ ما حصل على هاتفي هذا... لن يضيع حقّكم بإذن الله..

ثم تقدّم آخرون داخل المطبخ واكتشفوا شيراز على ما كانت عليه وسط الدّم دون حراك فتعالى الصّراخ وعويل النّساء وولولتهن. ولكن فتاةً من بين الحاضرين تسرّبت وشقّت لنفسها مسلكا بينهم وأخرجت هاتفها لتأخذ صورا وفيديو لكلّ ما يجري من حولها من بكاء وحزن وسخط وقالت بحرقة:

– شيراز... شيراز... لن يضيع دمك هدرا...

وتجمهر حشد كبير، وزاد النّواح والنّدب والاستغفار والدّعاء والدعوات والوعيد... واشرأبّت الأعناق تحاول جاهدة أن ترى ما يحدث فوق أرضيّة المطبخ.

***

انتهت سندة من وضع مسحوق ورديّ اللّون على وجنتيها وكحلا على جفنتيها وأحمرا على شفتيها الغليظتين وملّت عينيها من جمالها في مرآة غرفتها... ثم أخذت علبة على منضدة الزينة وأخرجت منها سوارا وخواتم زيّنت بها معصميها وأصابعها... ولفّت طوقا حول ذراعها أدخلت فيه هاتفها الجوّال... ثم لبست سترة وحذاء رياضيين وهمت بالانصراف ولكنها عدلت عن ذلك وجلست على سريرها. أخذت هاتفها ثانية وبعد جولتين أو ثلاثة على الفيسبوك، وصورتين أو عشرة حمّلتهن على الانستغرام مُعنوِنة إياهنّ: "قبل الرياضة في انتظار اللايكات"، اتصلت بكريم عاقدة النيّة أن تدعوه إلى الخروج معها للجري في مسلك صحّي خارج المدينة، وإن امتنع فليكن لاصطحابها في جولة في شوارع الحي والحديث كما اعتادا أن يفعلا منذ زمن. لكنه لم يجبها، فعاودت الكرّة ثانية ثم ثالثة ورابعة والنتيجة كانت على حالها في كل مرّة. كان أملها أن يمنحها فرصة للتقرّب منه وكسر جدار الصمت والجفاء الّذي انتصب بينهما في الأيام الأخيرة. خاب رجاؤها منه ويئست من الحصول عليه واقتنعت أنه يتجاهلها ولا يعبّرها فخرجت مسرعة إلى الرّياضة وكي لا يستبطئها متابعوها على النت والّذين وعدتهم بصور حينيّة لها أثناء ممارسة هوايتها المفضّلة التي استأنستها للحفاظ على رشاقتها وللتباهي بها أمام الشبان والفتيات في الدّاخل والخارج وفي الماضي إن لزم الأمر. وبعد بضعة مئات من الأمتار من العدو توقّفت وعاودت الاتّصال بحبيبها فلم يجبها. بعثت له إرسالية تقول فيها: "أنا لست بعيدة عن بيتك، سأمرّ عليك ونخرج للعدو سوية"، لكن دون جدوى. وهنا بدأت تغضب وملأها الشعور بالإهانة والمساس من

كرامتها وأنانيّتها ونرجسيّتها، فالفتاة لم تعتد أن ينهرها أو يصدها وأكثر من ذلك أن يتجاهلها أحد وإن تعلّق الأمر بكريم. لم تفهم ما الّذي يجري معها ولم تتساءل إن كان يجري معه شيء يمنعه عنها. وزاد غيضها غيضا حين وجدت نفسها وحيدة دون صاحب تشتكي إليه ما يحدث. لم يتّسع رأسها المزوّق لكل هذا السّخط وخافت عليه من العطب، فسارعت بأخذ بعض الصور بابتسامة مصطنعة والعرق يتصبب من جبينها ونزّلتها على الانستغرام من جديد حتى لا تخذل أصحابها الافتراضيين ولا تتأخر عليهم فتصغر في عيونهم. وبعد ذلك طلبت سامي لتفضفض إليه ما يجول في خاطرها ففرح الشّاب وملأته الغبطة بمكالمة من تربعت على عرش قلبه فاستقبلها مهلّلا ومرحّبا أكثر من عادته. استغربت سندة وسألته عما يجري فقال:

– جيران كريم نزّلوا للتّو صورا لأخته الصّغيرة مقتولة... وصورا لوالدته وله وهو في حالة من الهيجان...

كان يبكي ويولول... حقيقة كان منظره مقرفا ومضحكا في الآن نفسه...

من كان يتوقّع يوما ما أن أرى كريم يبكي...؟ يا للسّخافة...

يتباهى ويتفاخر برجولته وفحولته ... واليوم يذرف الدمع ويلطم كالولايا...

صعقت سندة لما سمعت واستنكرت موقف سامي وتهريجه الصبياني وعدم تعاطفه مع مصاب زميلهما، فصاحت:

– سامي... أنت فعلا أحمق ولا أمل في علاجك.

وأقفلت الخطّ وركضت إلى منزل كريم حزينة على شيراز لأنها تعرفها حقّ المعرفة بحكم الجيرة والزمالة وصداقة العائلتين، وفي دقائق كانت أمام حشد من مئات الأشخاص من جيران ومارة وفضوليين سمعوا بخبر مقتل فتاة في ذلك الحيّ الراقي فهبّوا إلى مسرح الجريمة في غضون ثوان. وكانت سيارة الإسعاف تقف مباشرة أمام باب الدّار بينما رجال الشّرطة يحاولون جاهدين إبعاد الجماهير

الغفيرة لترك المجال أمام المُسعفين الّذين أقبلوا يدفعون سريرا متحركا تمدّدت فوقه شيراز مغطّاة بلحاف أصفر لماع ليَقِيها البرد وقد تشابكت الأمصال في عروق يديها وقناع الأكسيجين فوق وجهها.

أدركت سندة أن البنيّة لا تزال على قيد الحياة فانفرجت بعض الشّيء وبحثت بين النّاس فلمحت ملاك ممسكة بخليل وسط الزحام بينما طبيب الإسعاف في حوار مع نعيمة يحاول تهدئتها وطمأنتها أن لا خوف على طفلتها وأنها ستكون بخير ولكنّها تحتاج إلى المراقبة في قسم العناية المركّزة وتحت إشراف طاقم من الأطباء المتمرّسين حتى تقف على قدميها من جديد وترجع إلى البيت وبين عائلتها في صحة وعافية. وليس بعيدا عن والدته، كان كريم منهارا وهائجا في نفس الوقت، يصرخ في وجوه من عطّل تقدُّم سرير أخته الجريحة نحو السيّارة الطبية، والغريب في الأمر أن جاره محيي الدين كان يحاول أن يلتصق به ليواسيه على طريقته الخاصّة بحكايات مترابطة لا تنتهي عن وقائع مشابهة راح ضحيّتها شبّان وشابات انتحروا في عمر الزهور إما بقطع أوردة معاصمهم أو بالشنق أو الارتماء تحت عجلات قطار... ومنهم من رمى بنفسه من فوق بناية عالية وآخر من شرب مبيد الفئران، وكلما زاد كريم من صراخه، تلبّك الجار غير قادر على إكمال قصصه المرعبة والكئيبة والحزينة فيقفز إلى قصة أخرى أكثر بؤسا ودراما من السّابقات مستغلّا سلبية كريم في الاستماع إليه وعدم جرأته على إسكاته أو التملّص منه.

اقتربت سندة من حبيبها وابتسمت بعفوية في وجهه، ولكنه لم يرحّب بقدومها وظنّ أنها أتت لتشمت به فزاد هيجانه وثار في وجهها:

– أغربي عن وجهي... أنت عديمة الإحساس... تظنّين أنني بحاجة إليك...؟

ارتبكت الصبيّة وشعرت بالإهانة وغصّة في حلقها، فقالت:

– لكنني جئت لأطمئنّ عليك... وأقف إلى جانبك...

فأجابها وهو يحاول الاتّصال هاتفيا بوالده:

– لا أريد منك شيئا... أغربي عن وجهي... عليك أن تفهمي ألّا شيئا يعنيك مما يدور هنا... انصرفي أيتها الفاجرة...

أصبحت أعين المشاهدين الأعزاء جميعها متجهة نحو سندة ومنصبّة عليها بكثير من التحامل والامتعاض، فتفاقم ضيقها وكبُر شعورها بالمهانة والحقرة وتمنّت لو أن الأرض تبتلعها وتلفظها أميالا بعيدا عن ذلك المكان ومن فيه، وبدأت أصوات النّاس تزايد:

– انصرفي... أنت في المكان الخطأ...

– المكان والزمان ليسا مناسبين لتواجد أمثالك هنا...

– قليل من الاحترام... لم يعد عند بنات هذا الجيل حياء أو تقدير...

– أخته تكاد تفارق الحياة... وأنت تريدين من الشّاب أن يترك ما بين يديه ليهتمّ بك...؟

– وقاحة وقلّة أدب تجاوزت كل الحدود...

– أليس لها والد[٢٠] يشكمها...؟

أجهشت سندة بالبكاء ودفعت من كانوا أمامها لتغادر منهارة ومكسورة الخاطر، ومن دون أن ينزع الهاتف عن أذنه في محاولة أخرى للاتّصال بوالده، اتجه كريم نحو باب سيّارة الإسعاف ليركب بجانب أخته، لكن الممرّض منعه لضيق المكان، فزاد من صراخه وتهديده حتى أدركه الطبيب وقال له:

– أنت تعطّلنا... وقد تتسبب بفعلك هذا في هلاك شيراز...

وهنا صاحت به نعيمة لترجعه عن تعنّته وقالت:

– دعهم يقومون بالواجب على أكمل وجه... سنلحق بهم بسيارتك.

٢٠ انظر تقرير ص ٢٦٨

حينها ابتعد ومن حوله مفسحين الطريق أمام الإسعاف كي ينطلقوا إلى المصحّة، وركض إلى سيّارته يقفز بداخلها ويقودها بسرعة مرعبة ليقترب من والدته التي كانت بدورها تحاول الاتّصال بمن يُحسب عليها زوجا، ويحثّها على الرّكوب هي وملاك وخليل دون تعطيل. وخرجت السيّارة بسرعة جنونية أخافت الجماهير وجعلتهم يقفزون للهرب منها.

***

بعد عشاء فاخر ودسم اتّسم بالملاطفة والنفاق، تفارق عبد الله وضيوفه كلّ إلى سبيله. امتطى سيّارته الكبيرة الدّاكنة صحبة حليمة وبعد أن شغّل موسيقى هادئة ومسك يدها بلطف انطلقا إلى بيتها. لم يتكلّم طول الطريق حتّى توقّفت العربة أمام مستودع منزل زوجة المستقبل فقال:

– ظننتك ستفرحين.

فأجابت بنبرة حزينة:

– لقد خدعتني...

– ستشكرينني فيما بعد.

– ظننتك أبرع في الحديث والإقناع...

ولكن الحوار لم يدم أكثر من ذلك، إذ ما إن نزل الرّجل من السيّارة ليفتح باب المستودع حتى قفز في وجهه ابنه كريم هائجا كالثور تكاد عروق وجهه تنفجر. اهتزّ الأب مفجوعا وقال:

– ماذا هناك؟

فصاح ابنه:

– كل هذا بسبب هاته العاهرة... كل هذا بسببك أنت...

صعق عبد الله لسماع ما قاله ابنه، واستغرب أن يراه في تلك الحالة من الغضب

بما أنه كان قد أعلمه حين مرّ لأخذ أغراضه من المنزل نيّته ترك نعيمة والارتباط بحليمة حتى يضع الأمور على المسار الصحيح ويصلح ما فسد في محاولة لتفادي ما قد يلحقه ويلحق عائلته من ضرر وأوّلهم كريم. لكنّه استشرف أن الأمر في علاقة بما هو أعمق وأخطر فسأله:

– ما الّذي يحدث...؟ لماذا أنت على هذه الحال...؟ ولماذا تكلّمني بهاته الوقاحة...؟

فاختصر الشّاب قائلا:

– شيراز بين الحياة والموت... عصابة ضربتني... ومعتوه تحرّش بملاك... هل تريد المزيد...؟ هل تريد المزيد...؟

وبقي يعيد تلك الجملة مقهورا مرارا وتكرارا فصاح فيه عبد الله مفزوعا:

– ماذا هناك...؟ تكلم...

– فوق كل ذلك... لم نجد أبا يحمينا ويقف معنا...

– كان هاتفي مغلقا... كنت في عشاء عمل مع زملائي من الكلّيّة... آسف يا بني... لم أكن أعرف... هل أختك بخير الآن...؟

– وهل يهمّك هذا في شيء...؟ أنت لا تهتمّ... ولم تهتمّ أبدا...

أنت السّبب في كل هذا... أنت السّبب...

– كيف أكون السّبب... وأنا لم أكن موجودا...؟

– ببساطة... لأنك لم تكن موجودا.

طلب الرّجل من حليمة أن تدخل ودعا كريم أن يركب معه ويصحبه للذهاب إلى المصحة التي ترقد بها شيراز، لكن الشّاب رفض مرافقته وقال:

– لا أريد أن تكون بجانبي... وعلى كّل حال... يجب أن آخذ سيارتي.

– لكنني أودّ أن تكون أنت بجانبي عندما أدخل على أختك...

– لا عليك دكتور... لن يعترض طريقك أحد... ولن يمنعها عنك أحد... أنت قبل كل شيء والدها... والوالد لا يحتاج إلى وساطة ليكون بجانب أبنائه.

وانصرفا كلّ في سيّارته، وبعد ربع ساعة وصلا إلى المصحّة ودخلا من باب عريض بلّوري أوتوماتيكي، ومشيا في رواق قصير علّقت على جدرانه لوحات جميلة زاهية الألوان وممضاة في أسفلها من امرأة. لم يكن في قاعة الاستقبال أكثر من امرأتين تلبسان ثيابا جميلة وتحملان الكثير من الحلي جالستين في انتظار قدوم طبيب جراحة العظام ليكشف على ابن إحداهما والّذي كُسرت كاحله عندما نطّ من فوق سور منزلهم لأنه نسي مفاتيحه بالدّاخل ولم يكن هناك أحد ليفتح له بما أن عائلته كانت قد تحوّلت إلى حفل زفاف ابنة الجيران في قاعة أفراح خارج المدينة. كان عون الاستقبال شبه بشوش، استقبل عبد الله بشبه ابتسامة وشبه تحيّة ولم يتحرك من مقعده لأنه كان مشغولا بهاتفه الجوّال ومتظاهرا بأنه منهمك بتدوين بيانات المرضى على حاسوبه. أخذ أبو كريم المصعد حتى الطّابق الثاني أين كانت الجدران مزوقة بلوحات زيتية عريضة وجميلة تنشرح لرؤيتها الصدور، وكانت ممضاة بتوقيع نفس المرأة التي تحمل لقب عائلة صاحب المؤسسة. وهناك كانت ممرّضتان في مقتبل العمر وعلى قدر عال من الجمال والخفة والرشاقة، تجريان في كل الاتّجاهات وبين كل الغرف، وتحاولان القيام لوحديهما بعمل يحتاج أربع ممرّضات على الأقل بين تبديل ضمائد أو حفاضات للمرضى العجّز والمقعدين، وجلب كؤوس الماء، وإطفاء الأضواء أو إشعالها، والإجابة على الهاتف، والاتّصال بطبيب كل مريض عند الحاجة، والالتزام بتوجيهات الممرّضة القيمة، والأهم من ذلك الحفاظ على وظائفهما مع الابتسامة العريضة.

طرق الأستاذ الباب رقم ٢٠٣ وفتحه ليجد نفسه في غرفة واسعة توسّطها سريران طبّيان عريضان، تمدّدت نعيمة وملاك وخليل على الأول بينما كانت

شيراز تنام على الثاني وقد تدلدل من ذراعها أمصال أنابيب الدواء وغطّى قناع الأوكسيجين نصف وجهها السفلي. وكان أمام كل سرير كرسي كبير، جلس عبد الله على أحدهما. انتبهت إليه أمّ أولاده فانتصبت واقفة وهمّت بالخروج لعدم رغبتها في الحديث معه، لكنه استوقفها وسأل:

– هل هي بخير...؟ كيف حالها...؟

امتعضت المرأة لكنها أجابته:

– يلزمها الكثير من الراحة... الراحة النفسيّة بالأساس...

– هل تظنين أنه بإمكاني الحديث معها...؟

– طبعا... أظنّ ذلك... فأنت لا تتقن شيئا غير الحديث...

– وما عساي أفعل...؟

– أن تنتقي ما ستقول... من أجلها... وليس من أجلك ولو مرّة واحدة.

وخرجت نعيمة تبحث عن إحدى الممرّضات لتذكرها أن موعد جرعة الدواء قد حان، حينها ترك عبد الله كرسيّه وتقدّم من شيراز ببطء وانحنى عليها وقبّلها من جبينها وهمس إليها:

– آسف يا بنيتي... أنا آسف...

وهم بالانحناء على ملاك لتقبيلها ولكنها صدّته بيدها. استاء من ردة فعلها ولكنه آثر على نفسه أن يجبرها على ما لا رغبة لها به، وابتعد عنها خطوتين فتفاجأ بها تقول له مشيرة بإصبعها إلى خليل:

– هذا أيضا من صلبك... أو تراه فشل كأخواته في استرعاء انتباه واهتمام فخامتكم...؟

أراد أن يتكلم فاستبقته قائلة:

– إذا رحلت الآن... فلن يلومك أحد...

سكت الأب لحظات ثم اتجه إلى الباب وقال:

– ستجدونني دائما إلى جانبكم...

وخرج إلى مستقبله.

***

مرّت ساعة الآن منذ أن بدأت سندة اتّصالها بسامي تحكي له ما حصل لها مع كريم وكيف كان متعجرفا معها وإلى أيّ مدى ألحق بها الإهانة والإذلال أمام الجيران وأهالي الحيّ الّذين زادوا الطاق طاقين وأجبروها على الانسحاب تحت الشّتم والنّعوت المشينة. ولازالت تشكي وتبكي فصارحها الشّاب أنه رهن إشارتها وعلى أهبة من الاستعداد للقيام بأي شيء يرضيها ويشفي غليلها ويجعلها تنتقم ممن أسكب الدموع على خديها، كلّفه ذلك ما سيكلّفه... إلا المال[٢١]. أخبرها أنه مستعدّ للتضحيّة بكلية من كليتيه أو كارع من كوارعه أو ركبة من ركبتيه ليُسكت نار الغضب التي تأجّجت داخلها ثم قال لها :

– لا بد من تلقين كريم درسا قاسيا... درسا يعتبر منه ويفهم من خلاله أنك لست رخيصة ولست هيّنة... كي لا يتمادى... كي لا يعيد الكرة معك أو مع غيرك...

كي يدرك أنني هنا لحمايتك... وليفهم أن وراءك رجال...

يجب أن نضع خطة محبوكة...

– كيف ذلك...؟

– لا عليك... دعي الأمر لي...

لكن حبيبتي... و لكي تكون الأمور جليّة بيننا منذ البداية... عليك أن تعي شيئا مهمّا... أنا لا أستطيع المساهمة بالمال... هذا أقوى من مداركي...

٢١ انظر تقرير ص ٢٦٩

– وما حاجتك بالمال...؟

أكّد سامي على حبيبته ألّا تتعجّل وأن تترك له بعض الوقت ليرسم خطة الإيقاع بغريمها وأنه سيعاود الاتّصال بها للحديث بالتّفاصيل. وما إن أنهى معها المكالمة حتى طلب إسكندر يخبره أنه بحاجة إلى مساعدته للنّيل من كريم وتأديبه جرّاء فظاظته وسوء تصرّفه مع أصحابه.

***

بعد رحيل عبدالله من غرفة شيراز اجتمعت نعيمة مع الطاقم الطبي المشرف على علاج طفلتها الذي أكد لها أنّها تجاوزت مرحلة الخطر ولكنها تحتاج إلى المزيد من الهدوء النّفسي كي تستجمع قواها وتشفى على أحسن وجه. حينها طلبت الدّكتورة من زملائها أن يفحصوا ملاك ويتأكّدوا أنها بخير هي الأخرى لأنّ ما تعرّضت إليه قد يخلّف لها صدمة نفسيّة ورجّة عصبيّة لم تظهر عوارضها في الإبان وتخشى أن تترك في داخلها أثرا سيّئا وعميقا يصعب تجاوزه فيما بعد. وبكل رحابة صدر قام الأطباء بتلبية رغبة نعيمة وتكفّلوا بفحص ملاك على حدة والتحدث معها والتأكّد من سلامتها، ثم فعلوا نفس الشّيء مع خليل وأشاروا على والدته أن تُعيره اهتماما أوسع في الأيام المقبلة والمستقبل إجمالا بعرضه على أخصّائي نفساني ليساعده على تخطّي تلك الأزمة وما سبقها من إدمان على الأكل ومشاهدة التلفاز، ثم انتهز الحكماء مجيء كريم الّذي كان ينتظر رحيل أبيه من الغرفة وقاموا بالواجب الطّبي معه وتهدئة خاطره والتخفيف عنه والإشارة عليه باتباع علاج إن عسر عليه تعدّي ذلك الضغط النفسي.

كانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة، وكان الإجهاد والتعب قد نالا من نعيمة وأبنائها حتى أصبحوا لا يرغبون في شيء آخر سوى الرّاحة والنوم، لكن اللّيلة لن تنتهي عند ذلك الحدّ بما أن المحقّق سالم كان له رأي آخر. قرع باب الغرفة في تلك

الساعة وبعد أن استأذن من نعيمة دخل وقال لها ولأبنائها أنه يأسف لما حلّ بهم وأنّه انتظر أن تهدأ الأمور وتقلّ الحركة عندهم كي يأتي إليهم ويطرح عليهم بعض الأسئلة التي من شأنها أن تيسّر عليه الأبحاث والقبض على الجناة الّذين انتهكوا عرضهم وعنّفوهم. لكن كريم وخوفا من أن يوجّه الشبهات نحوه فيما يخص مريم أنكر معرفته بالمذنبين وكذلك فعلت نعيمة وملاك متعلّلين بأنهم كانوا يلبسون على رؤوسهم خوذات تخفي وجوههم وهويّتهم وتغيّر أصواتهم. وهنا اضطر سالم إلى الانصراف خائبا دون أن يتقدّم خطوة واحدة في التّحقيق.

***

في الغد ألحّت نعيمة على كريم أن يذهب إلى دروسه حتى لا يفوّت محاضرات سيكون في أمسّ الحاجة إليها قبل أن تداهمه فترة الامتحانات وتصعب عليه المراجعة في غياب والده الّذي اعتاد مساندته في مثل هذه الأمور.

وكانت رحلة مضنية تلك التي تكبّدها عند وصوله إلى الكلّيّة إذ التفّ به مئات الطّلبة والمعيدين يسألونه عن أحواله وأحوال عائلته ويواسونه فيما أصابه. انعزل عن النّاس فرأى ماجدة قادمة عليه فاستبشر مجيئها وفرح لعودتها إلى الكلّيّة بعد تغيّبها في اليومين الفارطين، وقال لها:

– أرجو ألا تأخذي على خاطرك منّي إذ لم أتّصل بك ولم أسأل عن حالك...

– لا عليك... أقدّر انشغالك بما أنت فيه...

– هل أنت بخير...؟ أراك مهمومة...

– لا عليك... مشاكل أسريّة عابرة...

– هل والدك بخير...؟

– أجل... إنه يبلّغك سلامه ويشدّ على يديك...

يقول لك أنك تستطيع الاعتماد عليه متى شئت...

– أنا ممتنّ إليه...

بالمناسبة... ما الّذي جعلك فعلا تتغيّبين...؟

– تفاقمت المشاكل بين والدي[٢٢] ووالدتي... فساءت نفسيّتي ولم أعد أرغب في أيّ شيء...

– والآن...؟

– أظنّ أن الهدوء قد عاد إلى البيت...

– وهذا ما جعلك تعودين اليوم...؟

– لا... ليس هذا كلّ ما في الأمر...

– ماذا هناك...؟

– عندما علمت بما أنت فيه... قرّرت أن آتي لأكون معك في محنتك...

– لا أعرف كيف أشكرك... أنت حقا... مختلفة... لكنّك رائعة...

ولمّا كان في المدرج شرد ذهنه ولم ينصت إلى المحاضرة ولم ينتبه إلى ما كان المعيد بصدد قوله، إذ كانت أفكاره تنهش رأسه ومشاعر الغلّ داخل قلبه تتصارع مع النّقمة على كلّ من أهانه بدءا بصلاح وعصابته الّذين مرّغوا نخوته في الوحل حين ضربوه وتحرّشوا بأخته ملاك، مرورا بما أقدمت عليه شيراز في لحظة ضعف لم تجد فيها من يُرشدها ويأخذ بيدِها، ووصولا إلى أبيه المستقيل من دوره في الإحاطة بعائلته وحمايتها من الانزلاق.

استأذن الشّاب من المدرّس كي يسمح له بمغادرة القاعة قبل نهاية الحصة متعلّلا بصداع قويّ منع عنه التركيز، وخرج متوجّها إلى مشربة الكلّيّة لاحتساء بعض القهوة آملا أن تُذهب الألم والهواجس من رأسه، وما هي إلا دقائق حتى قرع جرس راحة العاشرة فأقبل عليه المئات من الطّلبة، فخاف أن يتجاذبوا معه

٢٢ انظر تقرير ص ٢٧١

الحديث عن حادثة البارحة فيسترجع ما كان ينوي نسيانه، لذلك أخذ كأس القهوة معه وابتعد عنهم ومشى نحو حديقة وراء مبنى المدرج، ولكنه لم يهنأ بعزلته طويلا، فحين رفع رأسه عن الكأس وجد سامي واسكندر قادمان عليه، فابتسم إليهما مكرها، ولكنهما لم يبادلاه نفس الترحاب، بل وقفا بعيدا عنه يتهامسان في سرّهما وقد بان المكر على تقاسيم وجهيهما. ثم نظر وراءهما فرأى سندة بملامح غلبَ عليها التوتّر والارتياب وما يوحي بأنّها كانت تبكي. ظن كريم أنها تنتظر منه أن يذهب إليها للحديث بشأن ما بدر منه بالأمس، ولكنها أدارت وجهها عنه، فإذا بها أمام ماجدة تلقي عليها التحيّة وتسألها إن كانت بخير، إلّا أنها تجاهلتها وتجاوزتها ذاهبة إلى المشربة دون أن تجيب بحرف. لم تفهم ماجدة ما يحدث فتركتها في حال سبيلها. واتجهت نحو سامي واسكندر فرأتهما يتبادلان أشياء صغيرة لم تفهم ما هي ولكنها أدركت على الأقل أن الأوّل قد أعطى الثاني نقودا مقابل شيء دسّه في جيبه. دهشت المسكينة وجذب عقلها لما شهدت، فلو أن الأمر كان معكوسا لكان معقولا ومنطقيّا، لكن أن يعطي سامي لغيره فلسا، فذلك حتما من نسج خيالها. فركت عينيها وابتسمت وهمّت بالحديث إليهما فإذا بهما يتجاهلانها ويتجهان إلى كريم. وفي لحظة وبدون مقدّمات، انفجر سامي في وجه كريم يسبّه ويلومه ما فعل مساء الأمس بسندة، وقال له أن الفتاة جاءته بالمعونة والمؤازرة لكنه صدّها بكل وقاحة وأهانها أمام أهل الحيّ الّذين سخروا منها وتحاملوا عليها حتى طردوها بغصّتها. ورغم أن كريم دافع عن نفسه وعبّر عن أسفه لما صدر منه وعن استعداده أن يطلب العفو منها على الملأ إلّا أن سامي حمي أكثر وتمادى في كيل الشتائم إلى زميله ناعتا إياه بأسوأ النعوت وشامتا فيه ما حلّ به. لكن كريم لم يسكت، بل كايله بمثل شتائمه وردّ له الصّاع صاعين سبّا ولعنا، ووصفه بالبخيل وبالكلب المطيع لتلك الرعناء التي تظنّ أنها مركز العالم. واشتدّ التناحر بينهما حتى

التحما ببعضهما يسدّدان اللّكمات ويتبادلان الركلات لولا تدخّل إسكندر وماجدة لفكّهما عن بعضهما، حينها ابتعد كريم عن غريمه. وبالرغم من محاولات ماجدة في البقاء معه لتهدئته والتخفيف عنه إلا أنه خيّر الخروج نهائيا من الكلّيّة حتى لا يقع في مطبّ آخر قد يدفعه إلى حماقة لا علاج لها.

لم يعرف ما عليه أن يفعل وإلى أين المفرّ، هل يذهب إلى البيت الّذي أصبح سوداويّا وحزينا و دم شيراز لا يزال على أرضيّته؟ أم إلى المصحّة التي لن تكون أقلّ كآبة رغم حاجته الأكيدة إلى أمّه تربّت على كتفه وتعِده أنّ ما يحدث ليس أكثر من سحابة عابرة وأنّ القادم أفضل...؟ لكنّه خشي أن تنزعج أو تنفعل لتركه الدّرس، فخمّن أن يذهب إلى المطعم الّذي اعتاد ارتياده مع أصحابه، إلّا أنّ الوقت لا يزال مبكّرا ولم يبق له من الأصحاب إلّا القليل. لم يجد من ملاذ يهرب إليه أفضل من سيّارته الصّغيرة البيضاء والجديدة والرابضة تحت ظلال الأشجار أمام مبنى الكلّيّة، وبداخلها سيكون وحيدا منعزلا عن العالم مع بعض الموسيقى التي ستريحه من التفكير المضني.

كانت ماجدة في ذلك الوقت قد عادت مُكرهة إلى المدرج لتحضر بقيّة المحاضرات وقلبها مشغول بما يحدث مع كريم. جلست وتظاهرت بأنّها تتابع الدّرس ولكنّها كانت تكتب خفية إرسالية إلى عفاف التي كانت تجلس بعيدا عنها وإنما ملتصقة بإسكندر. فتحت عفاف هاتفها وقرأت:

- "سامي وكريم تشاجرا بحضور إسكندر". فأجابت
- "ليس لي علم بشيء".
- "تعاركا وتضاربا"
- "لماذا؟"
- "لا أدري. رأيت سامي يدسّ شيئا في جيب سترة كريم"

– "سأسأل إسكندر"

اتّكأت عفاف بدلال وحشمة على حبيب قلبها وسألته بلُطف عن سبب خصام صاحبيهما وما الّذي حشاه سامي في جيوب كريم فقال لها بكلّ تلقائية القنّب:

– حشيش

تحوّل احمرار الخجل الّذي عُرف به وجه عفاف حين تجالس إسكندر إلى صفرة الوجل وكادت تصرخ بأعلى صوتها ولكنها تمالكت نفسها وسألته ثانية:

– ولماذا يفعل ذلك...؟

– لأن سامي يريد أن يلقّن كريم درسا...

– لماذا...؟

– سندة أعطته نقودا كثيرة... تعرفين أنه بخيل... لأبيعه الحشيش... وطلبت منه أن يدسّه في جيب كريم لأنّه أهانها البارحة وصدّها على الملأ.

– وكيف وافقت على توريط صاحبك...؟

– أما رأيت كيف أهانني أنا أيضا يوم سحبت تبّانه من تحت سرواله...؟

– أنتم مجانين وعديمو المسؤولية... سينتهي الأمر بكريم في السجن.

رفعت عفاف يدها كي تستأذن من المحاضر للخروج من القاعة علّها تتصرّف بسرعة وتنبّه كريم قبل وقوعه في الفخ الّذي نصبه له أصحابه، فإذا بإسكندر يمسكها من يدها ويقول بكلّ زهو:

– ألا تريدين أن تعرفي البقية...؟

فقالت فازعة:

– وهل مازال في القصّة بقية...؟

– أجل... سندة بلّغت الشّرطة أن بحوزة كريم مخدّرات... ربّما كانوا بصدد إلقاء القبض عليه.

بدأت عفاف تتنطّط وتقفز في مقعدها غير قادرة على التّركيز وكلّ همّها أن تخرج للبحث عن كريم. انتبهت ماجدة وأصابها القلق لرؤيتها مصفرّة الوجه وكأنّ مصيبة حلّت بها فأشارت عليها أن تكتب لها إرسالية. ففعلت. فكاد يغمى على ماجدة بدورها حين قرأت الخبر ولكنّها لم تترك مجالا للتردّد والتباطء بل انتفضت من كرسيّها وصرخت بأعلى صوتها وكأن أحشاءها تتمزق من ألم فجائي. انتبه إليها المعيد فصرخ:

– ماذا هناك...؟ الهدوء وإلا طردتك من القاعة...

فقالت تترجّاه زاعمة التوجّع:

– رجاء سيّدي أن تأذن لي بالخروج... مغص حادّ سيقبض روحي...

– ومن أين جاء هذا الألم...؟ كنت بخير منذ لحظة...

– أمور يصعب الحديث فيها على الملأ يا أستاذ... ولكن موعدها الشهري قد حلّ بدون استئذان... هل تريد المزيد...؟

– حسن... حسن... انصرفي في هدوء...

لم يُنه الرّجل جملته حتى كانت ماجدة خارج المدرج تجري وتشقّ أروقة الكلّيّة بحثا عن كريم في المشربة ومنها إلى الحديقة الخلفيّة ثم إلى الحديقة الأماميّة ولكنّها لم تجد له أثرا. ركضت حينئذ إلى الشارع لترى إن كانت سيّارته الصّغيرة البيضاء والجديدة لا تزال في مربضها الاعتيادي فوجدته بداخلها وقد أسند رأسه إلى المقود يستمع إلى موسيقى صاخبة. جرت إليه وأخذت تضرب بلّور العربة ففجع لرؤيتها مرتبكة ومذهولة وهي تشير عليه بالخروج. فتح باب السيّارة وقال لها أنّه في قمّة الضّجر والاحتقان وأنّه لا يرغب في الحديث مع أي مخلوق حتى لا تنتهي الأمور بالعراك والشّجار، وترجّاها أن تتركه وشأنه لأنه نذير شؤم وجب الابتعاد عنه وتجنّب رفقته، لكنها ارتمت عليه وصاحت بكل جدّية:

– اخرج من هنا... أنت في ورطة...

فأجابها:

– أيّ ورطة...؟ اذهبي أرجوك... أنا بذاتي ورطة... ومن يعرفني يتورّط...

– قلت لك أن تترك السيّارة وتفرغ ما بجيوبك في الحال... ولست هنا لأمازحك...

ارتبك كريم من مستوى الجدّية والهلع الّذين كانت عليهما ماجدة التي عهدها رصينة وهادئة، وما كان له إلّا أن يفعل ما طلبت منه. خرج من السيّارة ووضع يديه بجيوبه فإذا به يتلمّس شيئا لم يعرفه. أخرجه ونظر إليه مستغربا، وسأل ماجدة:

– ما هذا... وكيف حطّ داخل بنطالي...؟

فلازال يتفحّصه حتى اختطفته ماجدة من بين أصابعه وقالت:

– سندة دفعت مالا إلى سامي كي يبتاع هذا الحشيش من إسكندر ويدسّه في ثنايا ثيابك... لقد بلّغت الشّرطة وهي في طريقها إلى هنا لإلقاء القبض عليك بتهمة تحوّز المخدرات.

كاد كريم ينفجر بكاء ولكنه لم يجد الوقت لذلك، إذ أقبل عليه صلاح مزمجرا ومهدّدا بتهشيم رأسه ورأس من يتشدّد له إذ كان ليلة البارحة وبعد أن غادر منزل عائلة عبدالله قد اتفق مع شركائه المنحرفين أن يبتزّوا المال من كريم. في الواقع لم يستحسن صلاح الفكرة في البداية ولكنّ ضغط أصحابه عليه باسم الرّجولة وبحقّ وقفتهم النبيلة معه جعله يرضخ لرغباتهم خوفا من انقلابهم عليه، لذلك ربض منذ الصّباح ينتظر أوّل فرصة يظهر فيها كريم لينقضّ عليه.

بدأ الشّابان في الشّجار وأمسك كل واحد بخناق الآخر ووسط السّب والشّتائم والألفاظ النابية بدأت اللّكمات تنهال من هنا وهناك لكنّ ماجدة تدخّلت بينهما

وبمعيّة صديقها دفعت صلاح بقوة فسقط أرضا. ارتمى عليه كريم وأحكم مسكه حتى شلّ حركته فانحنت عليه الفتاة تتفل عليه وتركله وصاحت في وجهه:

– أنت سافل وحقير... ونهايتك قد أوشكت...

فردّ صلاح:

– سأنال منك أيها اللّئيم... سأنال منك أيتها العاهرة... أنت لست رجلا ولست ندّا للرّجال... أو تحتمي وراء ناقصة يا ناقص...؟

فصاحت ماجدة:

– أصمت أيها الأرعن... أنت غبيّ... الشّرطة في طريقها إلى هنا...

– سنرى إن كانت الشّرطة ستأخذني أنا... أم ستأخذ حبيب قلبك أيتها الفاجرة...

لم يكمل الأزعر كلامه لأن أربعة أياد قويّة وخشنة انقضّت عليه وانتشلته من تحت خصميه. نظر الثلاثي حولهم فإذا بالأمني سالم بمعيّة أربعة أعوان شرطة يقبضون على الشّابين ويدفعون بهما إلى حائط قريب منهم ويلصقونهما به. سوّى المحقّق ربطة عنقه وكعادته مسح شاربه بأصابعه ثم قال والصّرامة على وجهه لا يتخلّلها وهن للمهادنة:

– يمكنك أن تخرس الآن أيها السّافل...

وأمر عونين أن يفتّشاه ويُخرجا ما بجيوبه، بينما تكفّل هو بتفتيش كريم الّذي ما انفكّ يصرخ ويعيد أن ذلك المخبول صلاح وعصابته هم من تحرّشوا به وبأخته وعنّفوهما البارحة.

أدخل سالم يده في جيوب ابن نعيمة فلم يجد بداخلها أكثر من حاملة بطاقات وبعض القطع النّقدية ومفتاح سيّارته وهاتفه الجوّال، لكن الشّرطي الآخر نادى عاليا:

– سيّدي... وجدنا هذه الأغراض عند صلاح.

ومدّ لفافة الحشيش إلى المحقّق مع هاتفين جوّالين وعلبة سجائر محشوّة هي أيضا حشيشا مع مبلغ ماليّ هام.. ترك سالم كريم في عهدة أحد الأعوان واتجه إلى صلاح يدفعه ويهمزه بقوة وسأله:

– من دون الدّخول في التّفاصيل... هل هذه الأشياء لك...؟

أجاب صلاح:

– نعم... لكن...

– قلت نعم...؟

– أجل... لكن...

– دون التّطرّق إلى التّفاصيل... كنا نراقب تحرّكاتك منذ فترة... والآن نقبض عليك متلبّسا... قائمة التّهم ستكون طويلة... مسك ومتاجرة المخدرات... عنف في الطريق العام... تحرش بحق أخت هذا الشّاب...

– لكنني لا أتاجر بالمخدرات... هذه اللّفافة ليست لي...

– ستقول ما لديك في التّحقيق...

– فليكن... ولكن عليك أن تقبض على كريم أيضا... ليقول ما لديه بشأن تلك الفتاة... مريم...

– لن أدخل في التّفاصيل... ولكن هذا الملف ليس من شأني... عُهد به إلى فرقة أخرى...

ثم أمر ثلاثة أعوان بتقييد صلاح ونقله في عربتهم الوظيفية بينما ركب هو والعون الرّابع مع كريم في سيّارته الخاصّة وتوجّه جميعهم إلى منطقة الأمن. وبعد ربع ساعة وفي غرفة بالطابق الثاني وقف صلاح مكلبشا وتحت حراسة أمنيّة مشدّدة بجانب طاولة صغيرة صفّفت عليها الأغراض التي كان يحملها في جيوبه.

كان هادئا وكأنه معتاد على مثل تلك المواقف ولكنه كان يتساءل عن مصدر اللفافة التي أخرجها الشّرطي من جيبه، هل سلّمه إياها أحد رفاقه منذ البارحة عندما كان مسطولا ونسي أمرها؟ إلّا أنه كان على ثقة أنه بقليل من الخبث وكثير من الضغط على كريم سيغادر المكان في أقرب وقت وبأقلّ الأضرار، وخمّن أن كلّ ما عليه قوله هو أنّ الأمور انطلقت من مجرد دعابة اتفق عليها مع غريمه ولكنّها أخذت منحى لم يحسب له حساب فحلّت الضغينة بينهما حتى أصبح كل منهما يتّهم الآخر ويكيد له لتوريطه، وأمّا إن ساءت الوضعية عمّا هي عليه فما من حلّ أمامه سوى تلفيق تهمة إلى ابن عبدالله وادّعاء أنه هو من زوّده بالحشيش، هذا وقد جلس سالم في الجهة الأخرى من الغرفة وراء حاسوبه يشغّله ليبدأ بتحرير محضر في حق المشبوه.

أما في الغرفة المجاورة فقد كان كريم مقيّد الأيدي يقف ملتصقا إلى الحائط الدّاخلي، وقد كان متوترا ومرعوبا من الوضع الّذي وجد فيه حاله، ولكنّه يحمد الله أن ماجدة قد تدخّلت وأظهرت من البسالة والشّجاعة ما يعجز عنه الرجال عندما أخذت القنّب من جيبه ودسّته في جيب خصمه عندما كانا يتشاجران. إلّا أنه كان في الوقت ذاته يتحسّر على رفاقه الّذين خسرهم إلى الأبد بسبب غرورهم وكراهيتهم له. لم تكن دعابة دون عواقب أو شجار أطفال ينسى بمجرد انتهائه... بل الأمر جلل و النوايا قذرة والنتيجة كادت تكون مأساوية.

كان العون الّذي قيّده قبل قليل أمام الكلّيّة يقف بجانبه مبحلقا في هاتفه الجوّال دون أن ينطق بكلمة، وكان مكتب عريض في وسط الغرفة تجمعت فوقه أكداس من الورق والملفّات وحاسوب وهاتفين قارّين، وقد علّق على الحائط خلفه إطاران كبيران يحمل أحدهما شعار البلاد وأما الثاني فقد كُتب فيه بخطّ عريض وجميل ميثاقا يوضّح علاقة الأمنيّ بالمواطن العادي. قرأ كريم تلك الأسطر ولم يفهم معناها لعدم قدرته على التركيز، ولكنه قال في قرار نفسه أن من وضع ذلك الميثاق

لا بدّ وأنه على قدر عال من المهنيّة، وأنه سيلتزم قطعا بتطبيقه في كنف احترام القانون، وبعيدا عن الإهانات والتعدي على الحقوق والكرامة.

فجأة فتح الباب بقوة فسارع العون إلى إطفاء هاتفه والاستقامة في وضعيّة التأهب إذ دخل رجل الأمن الّذي كان قد تكفّل بدل سالم بملفّ مريم وجلس وراء مكتبه تحت إطار الميثاق وتوجّه إلى الشّرطي بجمل مقتضبة حين قال:

– لم هو هنا...؟

أجابه:

– سيدي... لقد جاءتنا إخبارية تفيد بأنه يتحوّز كمّية كبيرة من الحشيش بغاية المتاجرة.

– هل وجدتم عنده شيئا...؟

– لا سيّدي.

– أخلوا سبيله في الحال.

ثم نهض من كرسيه وخرج إلى الغرفة الأخرى دون أن يعير أدنى اهتمام لكريم الّذي كان يشكره بصوت باح وخافت، ودخل على سالم وترك الباب مفتوحا وقال:

– شكرا زميل... سأتكفل بالأمر.

هلا تركت لي مكتبك قليلا...؟

توجّه سالم إلى الباب وقال دون أن يظهر امتعاضه أو يسوّي ربطة عنقه أو يمسح شاربه:

– طبعا سيدي... أنا رهن إشارتك إن احتجتني.

– شكرا.. أنا ممنون...

انتصب الأمني بجسمه الضخم أمام صلاح فبادره هذا الأخير قائلا:

– أنا مظلوم سيدي... أوقعوني في فخ... هذه الأشياء ليست لي...

نظر الرّجل إلى الطّاولة يعاين ما فوقها. ثم ذهب إليها وأخذ الهاتف الأول. أراد تشغيله فلم يستطع فمدّ به إلى المتّهم وقال:

– فك شفرته... وامحها...

أجابه صلاح متملّصا:

– هذا ليس هاتفي...

– للعلم فقط... أنا لا أعيد الكلام مرّتين.

فهم صلاح وبدون تلكّك أن هذا الرّجل حقّا لا يعيد الكلام وأن أوامره لا تردّ وأنّه من طينة فريدة لا يمكن التّلاعب معها، لذلك نفّذ ما أمر به. أخذ منه الأمني الهاتف الأوّل بيد وأعطاه الثاني بالأخرى وقال له:

– نفس العمليّة.

وكان له ما أراد ثم أخذ الهاتفين وجلس على طرف الطّاولة التي صفّفت عليها أغراض الموقوف وأخذ يفلي أدنى وأصغر جزئية من خبايا الجهازين. وبعد دقائق، وبعد أن وقع على ما لم يكن في حسبانه من إرساليات وفيديوهات وتطبيقات مقرصنة قال:

– سنختصر...

تعترف أنك وحدك من خطّط وضرب الفتاة مريم.

همّ صلاح بمقاطعة الرّجل ولكن نظرة الأخير إليه جمّدته:

– تعترف بمسك المخدّر... والتحرّش ببنت الأستاذ عبد الله...

وإلّا...

لفّقنا لك تهمة مسك وترويج أفلام إباحيّة... تهريب سلع محظورة...

قرصنة وحيازة برمجيات قصد المتاجرة أو المساومة من أجل الولوج إلى برامج

تأمين شركات وبنوك ومؤسسات وطنية... بهدف الاختلاس وتحويل تمويلات إلى تشكّلات إجراميّة عبر الدّول... وجماعات إرهابية تخطّط لقلب النّظام العام في البلاد... ولن يصعب علينا ربط نشاطاتك وتجارتك مع أناس انخرطت في أعمال إرهابيّة وتدميريّة للاقتصاد الوطني.

اصفرّ صلاح واخضر وكاد يتبوّل في سرواله ويقع من طوله. لكن الأمني لم يترك له المجال حين همزه وسأله:

– ما رأيك...؟

فأومأ له برأسه أنه موافق.

وضع المحقّق الهاتفين في جيبه واتجه إلى الباب وقال قبل أن ينصرف:

– سيحرّر محضر فيما نسب إليك من تهم... يمكنك الاستعانة بمحام... سنعيد إليك هواتفك فور إبادة محتوياتها.

دخل رجب على ابنته غرفتها بالمستشفى محمّلا بقفّة ضاع في قعرها بعض الخبز، وعلبة محكمة الإغلاق على قليل من الكسكسي بلحم الماعز، وكيس بلاستيكي به أربعة قوارير صغيرة من "الاختصاص اللبني" للشّرب بنكهة الفانيليا، وحبّتي برتقال طازج، ومنديل ملفوف على ملعقة وسكّين مع أربعة أكواب بلاستيكية رقيقة دُكّت في أسفل القفة. أبعد ما زاد فوق المنضدة المحاذية للسّرير وأخذ ينصب فوقها الأكل الّذي كان قد أعدّه بنفسه منذ الصّباح. فرحت الفتاة لرؤية أبيها وللهفته على خدمتها والاعتناء بها فاستقامت في جلستها وسألته عن أمها فقال:

– استيقظت منذ الفجر لتعدّ تورتة لذيذة بالشوكولاتة واللّوز ومعجون المشمش وأصرت أن تعطي منها لفيصل... الممرّض... وتشكره على عنايته بك...

أظنّها في حجرته الآن... لن تتأخر في المجيئ...

عليك أن تأكلي جيّدا يا صغيرتي... لا تنتظريها.

وبدأ يطعمها بيده ويمسح على شعرها ويقبّل يدها ويحفّزها على الصّمود كي تخرج من ذلك المكان في أقرب وقت داعيا الله أن يأخذ لها حقّها ممّن تسبّب لها بالأذيّة. ولما سألته مريم عن آخر أخبار الحي وأهله انطلق في سرد كل كبيرة وصغيرة جدّت مع الخضّار الّذي أخبره أن صابة البرتقال هذه السنة جيّدة لكن الأسعار ستبقى مرتفعة بسبب التصدير إلى الخارج... والبنّاء الّذي عوّضه في الحضيرة التي كان يشرف عليها والّذي كاد يفقد الحياة حين لدغته عقرب خرجت في وجهه عندما كان يغربل كومة رمل... وحكى لها واقعة سقوط ابن خالتها عن الدراجة عندما كان عائدا من عند بائع الدجاج بربع فروج وكيس بيض انكسر بأكمله... وكيف تقدّم شاب يعيش في ليبيا لطلب يد زميلتها الشّقراء التي ادّعت فيما سبق أنها ستتزوج من مغترب إفريقي يعمل في مجال البترول والّذي تبين أنه لا

يزال طالبا... وشكى لها انتشار النمل في خزانة المطبخ بسبب كيس سكّر مثقوب نسيت والدتها أنها دسّته منذ أشهر وراء أكياس المكرونة... وتذمّر من فوضى السّياقة ساعة خروج التلاميذ من مدارسهم وبسبب توقّف باعة الحلوى والكاكي أمامهم... وعبّر لها عن رغبته في الذهاب عند الحلاق لتهذيب مظهره قبل رجوعها إلى المنزل... وقال لها أنه في عتمة اللّيلة الماضية كان قد وقع حين تعثّر في عتبة باب المستودع الّذي كُسر مصباحه في الصائفة الفارطة حين أعاره إلى الجيران مجّانا يوم زفاف ابنهم كي يستعمله الطباخ الّذي عيّنوه بالمناسبة لإعداد الطعام في طناجره وقدوره الكبيرة ولم يكلّفوا خاطرهم بإرسال صحن من الكسكسي أو قطعة لحم أو تغيير المصباح المكسور... وصارحها بعدم ارتياحه إلى ترك ابنه طه وحيدا بالمنزل... خوفا على الياغرت... وما إلى ذلك حتى وصل به الحديث عمّا يتداوله أهل الحيّ بشأن المنحرفين وأخبارهم والفاسدين وإنجازاتهم وقال لها منشرحا:

– لقد ألقوا القبض على الشّاب الّذي قام بضربك...

استغربت مريم فسألته:

– كيف ذلك يا أبي...؟ ومن هو...؟

– شابّ منحرف وفاسد... يروّج المخدّرات عند الطّلبة ويعاكس البنات ويتحرّش بهنّ... يبدو أنه صاحب سوابق ومفتّش عنه من طرف الشّرطة منذ مدّة.

– ومن أين لك بالخبر...؟

– فتاة من حيّنا تدرس بالكلّيّة الموجودة على الطّريق الحزامية... واكبت عملية إيقافه متلبّسا وهو بصدد تعنيف طالب... زميل لها... يبدو والله أعلم أنه ابن الدّكتورة نعيمة... وقد حكت ما واكبت بين صديقاتها في الحي... وهكذا دواليك... حتى صار الخبر منتشرا...

– هل أنت متأكّد مما تقول يا أبي...؟

– أجل... عرفت أيضا أن المنحرف قد تحرّش بابنة الدّكتورة وعنّفها... كما عنّف بمعيّة عصابة كاملة جميع أفراد عائلتها...

رغم أني كنت متحاملا عليها بسبب تصرّفها الأخير معنا... إلا أنني متعاطف معها... المسكينة... لا تستحق كل ما يحدث معها...

– وما الّذي حدث معها يا أبي...؟

– حاولت ابنتها الصغرى الانتحار وقت هجوم المجرمين على عائلتها... وهي الآن تحت العناية المشدّدة في مصحّة خاصّة...

– هل أنت جادّ يا أبي...؟

– أجل يا عزيزتي... الخبر على كل لسان... حتى هنا... سمعتهم يحكون نفس الشّيء.

استاءت مريم وبان على وجهها القلق والانزعاج لحال الدّكتورة وكمّ المصائب التي انصبّت عليها مرّة واحدة، وشعرت بتعاطف مع والدة الشّخص الّذي بعث بها إلى المستشفى وإن كان بالوكالة. لم يسمح لها قلبها بالشّماتة أو التشفّي ولم يسعها حبس دمعاتها الحزينة حتى لفت تعكّر مزاجها انتباه والدها فسألها ما بها فأجابت:

– أبي... يجب أن أتحدّث إلى الدّكتورة نعيمة...

استغرب الأب وسأل مستفسرا:

– وما الّذي تريدينه منها يا بنيّتي...؟ سمعت الموظفين هنا يقولون أنها موقوفة عن العمل وأنها استغلّت موقعها للاختلاس وسرقة معدات القسم... يبدو أنها انتهازيّة وغير صالحة...

– قلت لك يجب أن أقابلها وأتحدّث إليها... أرجوك يا أبي أن تجدها... الأمر في غاية الأهميّة...

في مكتبه بالطّابق الأوّل من إدارة الكلّيّة فتح الدّكتور حسين الباب ليستقبل زميله عبد الله ودعاه بالإشارة إلى الجلوس في كرسيّ نُصب على يمينه، بينما ذهب هو ليجلس خلف مكتبه على كرسي فاخر ودوار علقت فوقه لوحة زيتية رسم فيها وجهه، كان قد أهداه إياها طالب بمناسبة تخرّجه وابتعاده عن الكلّيّة كعربون امتنان وتعبير عن شكره للعميد الّذي كان قدوة للشاب في مشواره الدراسي. كما برزت له في ركن الحجرة صورة شمسية في إطار ذهبيّ نُصب فوق منضدة صغيرة، ويظهر الدّكتور حسين في تلك الصّورة محاطا بزوجته من جهة وابنته وابنه من جهة أخرى، صورة أُخذت أيام طفولة أولاده التي لم يكن حاضرا فيها كفاية ما جعلهما يستأنسان غيابه وانشغاله عنهما بالدّراسة والتدريس والبحوث والبعثات التربوية، حتى كبرا وتخرّجا فاختارت الفتاة بعد الزواج الهجرة إلى كندا، بينما خيّر الشّاب الانتقال إلى ألمانيا هربا من ضغط أبيه الّذي أراد إجباره الارتباط بابنة رئيس الحزب الّذي ينشط فيه.

اتجه عبد الله بقبعته الداكنة متخايلا إلى أريكة عريضة في الجهة المقابلة للمكتب وابتسم قائلا:

– أفضّل الجلوس هنا...

امتعض د. حسين وقبل أن تلامس أردافه المقعد خرج من وراء مكتبه وقال مجاملا:

– كما تريد يا عزيزي... الجلوس هناك أريح.

بدأ الحديث بينهما بشأن الجوّ العام والمهنة والامتحانات وجداول الأوقات حتى وصل بهما إلى ما يشغل بال الإطار التربوي بأكمله منذ أشهر وربّما أكثر: الانتخابات ومنصب العمادة، وعبّر د. حسين عن رغبته الملحّة في تمديد سنوات

العمل كي لا يذهب إلى التقاعد مبكّرا متعلّلا بأنه يشرف على أطروحات عديدة ويؤطّرها ولازال يشتغل عليها مع عدد من الطّلبة فإن انقطع عنها فإنهم سيضطرون لإعادة أشواط طويلة ومضنية من أعمالهم مع مشرفين آخرين، وسيسبّب هذا الارتباك تعسّفا على حقوقهم وحينها ستلحق الكلّيّة فضيحة مدوية، وأضاف:

– أنت صديق مميّز بالنسبة لي... لذلك أصارحك أنني لست مستعدا لهاته المرحلة من حياتي... لطالما أنكرت حتمية التقاعد... خاصّة الآن وقد ابتعد عني أبنائي... أحسب أنني لن أجد أفضل من الوظيفة لملء الوقت...

فأجابه عبد الله بلطف:

– ولكنّك ستتفرّغ كلّيا إلى النّشاط السّياسي صلب الحزب... وهذا كفيل بأن يأخذ منك جلّ وقتك... وقد يمنع عنك العودة إلى بيتك في آخر اليوم... أو يحرمك من النّوم ليلا...

أظنّ أن الوقت قد حان كي تمرّر المشعل... أليس كذلك...؟

– أحببت أن أعوّل على مساندتك لي... ولكنّك أكّدت لي أنّك على رأس قائمة من يريدونني أن أتنحّى عن العمادة...

– تتنحّى..؟ هل هذا ما قلت...؟ هل فعلا أنت من سيتنحّى...؟

– أجل... هذا ما سيكون... لن يشغر الكرسي إلّا إن أنا تنحّيت عنه...

– لا أظنّ الأمور تسير على هاته الشاكلة... مرحلتك انتهت وولّت... وبهذا يكون المنصب لمن يقع انتخابه... أما أنت فلن تتنحّى عن أي شيء.

– تظنّ أنني سأترك الجمل بما حمل بهذه السهولة...

كنت أحبّذ أن تلعب دور الدّاعم والسّند للكفاءة الأحقّ باستكمال مشروع تربويّ وبيداغوجي لم تتحقّق بعد جلّ أهدافه... لكنّني أصبحت على يقين أنك أوّل المعرقلين لمصلحة الكلّيّة والطّلبة والمعيدين...

– أنا لا أعرقل شيئا د. حسين، بل أفكّر في الأمور من منظورك أنت.... لذلك أعلمك... أنني... أنا أيضا أرى في شخصي الكفاءة المهنيّة والفكريّة اللّازمة للجلوس على ذاك المقعد... وأرجّح أن مسيرة تجاوزت العشرين سنة بين جدران هذا المبنى لهي أفضل شفيع لي كي أكون عميدا وصاحب مشروع ورؤية مستقبليّة واستشرافية ستخدم الصالح الوطني والإنساني بإذن الله ولن تنحصر في مجال ضيّق كالّذي ترنو إليه.

– لكنّك لست ندّا لي... ولن تتمكّن من إزاحتي...

– دع عنك ذلك... منذ دقائق فقط... منعتك من أن تجلس على كرسيّك... في القريب العاجل سأضعك خارج المكتب.

– أنت واهم أيها الحقير... تظن أن أعرابيّا... أسود البشرة... لا يُعرف له أصل... نازح... سيتمكّن من مضاهاة أسياده... أو نسيت من تكون أنت أيها الدنيء...؟ ومن أكون أنا...؟

– ومن تكون أيها المغرور...؟

– سيّد من أسيادك... أشراف البلاد وقومها... نحن خيرة ناسها وعلوة شأنها... نحن صفوة البشر وقدوة المجتمع... نحن أرباب أقداركم ومن يحدّد أدواركم... ننتقي منكم من يناسبنا ونحذف من يقف في طريقنا...

أمّا أنت... فلا شيء... مجرّد أيقونة عابرة بلا غد... أنت زائل لا محالة والبقاء للأرقى...

كان يجدر بك أن تهتمّ بسمعتك وأبنائك وعائلتك... أن تستر فضيحتك التي اجترها كل من يعرفك... تعاشر عاهرة في الحرام وتظن أنك أهل لترأس هذا الحرم...؟

– هذا ليس من شأنك... وإن كنت قد انحدرت لهذا المستوى السّاقط، فدعني

أخبرك أن الجميع هنا على علم بمغامراتك الجنسيّة مع فتيات في عمر الزهور... بمساومتك إياهن للنيل من شرفهن مقابل عدم إسقاطهن في الامتحانات... التي كنت ولازلت تتاجر فيها وتجني من ورائها أموالا طائلة... حتى أن الحزب الّذي تنشط فيه عازم على إقصائك منه لسواد سيرتك.

– كيف لك بهذا أيها الحقير...؟ هذا هراء وكذب وتجني... أنت متمرّد وكذاب...

– كما يتحدّث النّاس عنّي فإنهم يتحدّثون عنك أكثر... و درءا للفضائح وإكراما لما قدّمت من أعمال مهنية جليلة ارتأينا التّكتم إلى أن تخرج على شرف التقاعد... أيها الشريف...

– ومن تكونون أنتم...؟ من أنتم...؟

– أنا وكل الزّملاء...

– متمردون ومنافقون مثلك... ليسوا أفضل منك في شيء... مراد النازح... مثلك... ليس أفضل منك... لا أحد يعرف له أهلا أو مسقط رأس... دخيل على الأشراف... سليط اللسان... يتكلم من إذاعة إلى أخرى ويُكثر من المقالات ليتّهم زملاءه بقلة الإنتاج الأدبي وعدم الانخراط في بناء ثقافة وهوية وطنية متينة... لكنه أخرق... هو أيضا لا يتردّد في ابتزاز الطّلبة وأوليائهم النافذين.

وحليمة... عشيقتك...؟

ووصال...؟ من أين أتت... وما أصلها...؟ هل هي من الأشراف...؟ هل زوجها من الأشراف...؟

أعرفكم جميعا...

لستم أكفّاء لخلافتي...

– تتحدث عن الخلافة...؟ لعمري أنك جننت يا د. حسين.

اتجه العميد إلى الباب يفتحه وهو يصرخ بعُلو صوته:

– أخرج من هنا... لا أريد أن أرى وجهك القبيح... العمادة لي أنا... شئتم أم أبيتم... أيها الأغراب... كلّكم أغراب وكلّكم نزوح... سأعمل على سحقكم والتخلّص من رائحة التبن العالقة بثيابكم...

وفتح الباب ليجد الدّكتورة وصال ومعيدين آخرين يقفون أمامه واجمين ومذهولين لما سمعت آذانهم رغم أنوفهم. تقدّمت المرأة خطوة من رئيسها المباشر ونظرت إليه باحتقار وقالت :

– سيزيدنا رحيلك طُهرا وشرفا أيها النّجس.

لم يستسغ سالم طريقة تعامل زميله معه في البداية في قضية مريم ومن بعدها في ملفّ كريم وصلاح، ولكنه لم يكن قادرا على عدم مجاراته والانصياع إلى أوامره، فالرّجل ينتمي إلى فرقة أمنيّة خاصّة قلّما تتعرّض إلى المهادنة أو النّقاش أو التعطيل. تُلزم الأوامر والتراتيب جميعَ الهياكل بتسهيل عملها وتقديم العون اللّازم إليها دون طرح أسئلة أو تشكّ مهما كانت المسائل معقّدة، وإن أشار ذلك الرّجل أنّ الأمر منتهي بشأن ما أُوكل إليه، فإن الملفّ يُقفل في ساعته وتاريخه والويل لمن ينبش الملفّات المغلقة من بعده.

لكن كبرياء سالم لم يكن من هذا الرأي، لذلك غادر منطقة الأمن وبقي يترنح لوقت في الشارع يحيّي كلّ من يعترضه ويتفرّج على المترجّلين والعربات وفوضى السّياقة حتى توقّفت أمامه سيّارة الأجرة الّتي كانت قد أقلّت منذ أيام عائلة نعيمة من أمام بيتها. ركب الضّابط فبادره السائق بالتحية وقال:

– لقد ذهب إلى المصحة التي ترقد بها أخته...

– إذن إلى هناك وبسرعة...

كان كريم قد وصل إلى المصحة الاستشفائية الخاصّة وصعد إلى الغرفة ٢٠٣ ودخل على عائلته فلم يجد بها شيئا قد تغيّر. شيراز تنام على سريرها تحت مفعول المهدّئات بينما تمددت والدتها على السّرير المجاور محتضنة ملاك بين ذراعيها بقوة حتى لا تقع أرضا. بالمقابل جلس خليل على أحد الكرسيّين الكبيرين بعد أن وجّهه إلى التلفاز يشاهد برامج الأطفال ويأكل رقاقات البطاطس المقرمشة والمشبّعة بالدهون والأملاح.

ذهب كريم إلى أخيه ليداعبه ولكن الطّفل نهره. ثم اتّجه إلى والدته وطبع قبلة على جبينها ففتحت عينيها وابتسمت ولكنّها سرعان ما انقبضت لما رأت على وجه

ابنها من وهن وتعب وحزن. أرادت أن تسأله عمّا به فأشار إليها بأنه لا يرغب في الحديث إلى حين. ثم وضع يده على كتف ملاك يهزّها بلطف كي تستفيق فلم تجبه، فناداها فغمغمت:

– ماذا هناك...؟

فقال بلطف:

– أعذريني أختي... لكن...

– ماذا تريد...؟

– هلّا...؟

– ماذا يجري...؟ توقظني وتبقى ساكتا... كم أنت فظّ...

– أرجوك أختي...

فتحت ملاك عينيها جيّدا وفركتهما ثم استقامت قليلا، وتثاءبت ونظرت في وجه أخيها فتوتّرت لما رأت عليه من حزن وانشغال، فسألته:

– كريم...؟ ماذا يجري...؟ هل أنت بخير...؟

فقال والعبرة تخنقه:

– لا تقلقي... أنا بخير...

كنت أريد... وسكت مرة أخرى.

– ماذا...؟ ماذا تريد...؟

– هلّا تركتي لي مكانك بعض الوقت...؟

– هل أنت جاد...؟

– أجل... أحتاج إلى حضن أمي في الحال... أرجوك...

دهشت الفتاة ولكنها قدّرت حاجة أخيها فنهضت من الفراش وربّتت على كتفه، فارتمى بين يدي والدته يقبّلهما ويحتضنها بقوّة وسلّم نفسه للبكاء دون قيود.

انتبه خليل لأخيه وحزّ في نفسه أن يراه على تلك الحال فذهب إليه يطبطب عليه وقال له:

– لا تبكي أخي... أرجوك ألّا تبكي...

أنت الآن رجل البيت.

توقّف كريم عن البكاء ليس نزولا عند رغبة أخيه وإنّما بسبب هاتف والدته الّذي لم يكفّ عن الرنين فاضطرت لأخذ المكالمة التي كانت من فيصل الممرّض. وبعد السّلام والتحيّة والسّؤال عن الأحوال وبعد أن تمنّى لها أن تتخطّى ما هي فيه بسلام، قال لها:

– في الحقيقة دكتورة... أنا أتّصل بك بناء على طلب من والدة مريم... لأن الفتاة أخبرت والدها أنها تريد رؤيتك لأمر في غاية الأهمية... لذلك أَعلَم الرّجل زوجته... التي جاءت تطلب مني أن أطلبك على الهاتف...

إلّا أن نعيمة لم تكن ترغب في ترك أبنائها وهم في أمس الحاجة إليها، فأجابت فيصل أنها ستحاول زيارتها بعد يومين أو ثلاثة، فقال:

– تقول رشيدة... عفوا... أقصد السّيدة رشيدة والدة مريم... أن زوجها قال لها... أن مريم طلبت حضورك اليوم... أو بالأحرى... الآن... يبدو أن الأمر لا يتحمّل الانتظار... الفتاة تتوسّل إليك منذ الصّباح...

– أرجوك فيصل... أخبرها أنني لست مستعدّة لتقبّل مصيبة أخرى فوق ما حلّ بي من مصائب... لذلك عليها أن تنتظر حتى تتعافى ابنتي... عندها سأرى ما أستطيع فعله.

– عذرا سيّدتي الكريمة... مريم تقف أمامي وتلحّ عليك بالمجيئ... كما تقول لك أنها هي أيضا لم تتعاف بعد... ولن يكتب لها الشفاء إلّا بمجيئك...

سمع كريم ما دار من حوار بين والدته وفيصل فاستحثّها أن تقف وقال لها:

– بلّغيه أنّك في طريقك إليها... هذه المرّة سآتي معك.

اندهشت نعيمة وأمسكت بيده لتمنعه لكنه ابتسم وقال:

– لا عليك يا أمي... سيكون كل شيء على ما يرام. ثم توجّه إلى ملاك وقال لها: هل ستكونون بخير إذا تركناكم هنا لبعض الوقت...؟

فأجابته:

– لا عليك أخي... يمكنكم الذهاب... نحن بخير.

وبعد ربع ساعة كان الشّاب وأمّه في سيّارته البيضاء الصّغيرة والجديدة في طريقهما إلى مريم. انتهز الفرصة ليفضفض همّه ويروي ما بدر من أصحابه سامي واسكندر بتخطيط من سندة، وعبّر عن امتنانه لموقف عفاف، والأهم من ذلك بسالة ماجدة وشجاعتها وعدم ترددها في الوقوف بجانبه رغم خطورة ما فعلت. وقصّ على والدته ما حدث مع صلاح وسالم وما دار في قسم الشّرطة بالتفصيل. بكت نعيمة في البداية لما سمعت ولكنّها شعرت كأن ضيقا انزاح عن أطفالها وأن الانفراج آت لا محالة فقالت:

– المهم أنك بخير... أن جميع أبنائي سالمين وبخير...

ثم ها هي السيّارة تواصل طريقها حتى وصلت إلى المستشفى دون أن يتفطن راكباها أنها كانت متبوعة طوال الطريق بتاكسي المحقّق سالم. وبعد دقائق معدودات كانت الطّبيبة تقف مع كريم أمام مريم. كانت الفتاة بانتظارها على أحرّ من الجمر. جلست على حافة السّرير بينما كان رجب يقف إلى جانبها داعيا لها بالشفاء والسكينة. كان الارتباك جليّا على الجميع وبان التردّد على وجه البنية، والحيرة على وجه نعيمة والخزي على محيّا ولدها الّذي لم يجد الشجاعة الكافية كي يرفع عينيه في عيني ضحيّته التي بادرت بالتحيّة لكسر جدار الصمت المنتصب بينها وبين ضيوفها. تنفّس الجميع وانخفض معدّل الحيطة والرهبة حتى سألت

مريم :

– هل صحيح ما يُحكى بشأن طفلتيك... وتعرّضهما إلى العنف...؟

– أجل... هذا صحيح... أرجو ألا تكوني قد دعوتني هنا كي تشمتي بي...؟

– أبدا دكتورة... أنا الأفضل موقعا كي أدرك قسوة ما مرّ عليهما... فكيف أشمت فيهما أو في غيرهما...

– لماذا أردت رؤيتي إذن...؟

وهنا قاطعها كريم فجأة وقال بكل حرقة وأسف:

– أرجو أن تسامحيني... لقد كنت جبانا ووقحا... أنانيّا وغير مسؤول... ما دبّرته كان صبيانيّا ولم أحسب عواقبه... أنا مستعد لتحمّل مسؤوليّتي كاملة... المهم أن تسامحيني... الندم يكاد يقتلني... أرجوك أن تسامحيني...

لم أكن أرغب في كل هذا...

نهض رجب من مكانه وهمّ بالانقضاض على الشّاب وسبّه لكن مريم أمسكته ومنعته قائلة:

– أبي... لا داعي لذلك... أقدّر أنه لم يرغب في هذه النّتيجة... ولكنني أتوسّم أن يكون قد فهم الدّرس جيّدا.

تمنّت نعيمة لو أن الأرض تبتلعها من شدة الخزي والحرج ولكنّ كلام مريم بعث في نفسها راحة كبيرة، فسألت ابنها :

– لماذا فعلت ذلك يا بنيّ...؟ ما علاقتك بمريم... وكيف تقاطعت سبلكما حتى تصل بينكما الأمور إلى هذه النّقطة وهذه العواقب...؟

تردّد في الإجابة ولكنّ ثقل الصّمت كان فوق كل تحمّل، فقال:

– لأنها لا تمشي فوق الرصيف... في كل مرة أمرّ بسيارتي في حيّها حين أكون في طريقي إلى الكلّيّة أجدها أمامي مع زميلاتها... على المعبّد... تاركات الرصيف

لتعطّلن حركة المرور...

نبّهت عليهن بدل المرّة ألفا... ولكنها الوحيدة التي كانت تتعنّت في معاندتي وتعتو في سبّي وشتمي...

ظنّت أنني أعاكسها في البداية... لكنها اكتشفت أنني أحمق، متكبّر ومتعال... وشيئا فشيئا... تعكّرت الأمور...

استعنت بأحدهم ليشدّ لها قرصة أذن... ولكنّني لم أكن أعرف أنه مجرم ومجنون...

والبقية... تعرفونها جيّدا...

لم يستطع رجب منع نفسه من الضحك لما رأى أنه سخف منقطع النظير ثم قال:

– فعلت ما فعلت... من أجل الرّصيف...؟

أحقّا ما سمعت... الرّصيف...؟

هزّ كريم رأسه بنعم وبقي يهزه ويبكي مكرّرا:

– سامحيني رجاء... سامحوني جميعكم...

فقال رجب بكل حقد:

– أمثالك في مصحة المجانين...

– بل أمثالي لديهم أرصفة...

أدركت مريم أن الحوار بين والده وابن الطّبيبة قد ينقلب في لحظة ويخرج عن مساره السلمي فقاطعتهما وقالت لنعيمة:

– الأهمّ من ذلك الآن أنني دعوتك لأعطيك حقّا لك عندي، وما كان لي أن أكتمه عنك بسبب نقمتي على كريم. والنتيجة... طُردت من عملك وطالتك الفضائح والمهانة...

استغربت المرأة فسألتها:

– وما دخلك أنت بما حدث معي...؟

– أنا أعرف الحقيقة ومنعتها عنك... والآن حان الوقت كي تخرج إلى النور وتعدّل الموازين.

أريد تبرئتك وردّ اعتبارك أمام الجميع...

وحتّى لا يهضم حقك من جديد، علينا أن نتوجّه فورا إلى مكتب مدير المستشفى.

وبالفعل ودون تردّد خرج الرّباعي إلى المدير والفرحة لا تسعهم. شعرت نعيمة كما لو كانت طفلة صغيرة في انتظار هديّة العيد أو كما لو أنها تولد من جديد رامية وراء ظهرها مصائب زعزعت عائلتها وكيان أطفالها، لا يسعها أن تصدّق أن مريم عفت عن كريم ولا تنوي تتبّعه، وغدت تتساءل من تكون تلك الفتاة النحيلة بكسورها وخدوشها وآلامها وأوجاعها، ومن أي طينة عجنت هاته الغريبة التي وجدت نفسها تتّبع خطاها الثقيلة كي تُعيد إليها ما ضاع من كرامتها وتُداوي ما جرح من كبريائها.

ومشى كريم يتخايل ويتمايل بكل عزّة ونخوة وكأنه استردّ أمانة ضاعت منه منذ فترة. وهبته مريم السّموحة وتغاضت عمّا فعل بها عندما رأت وقدّرت بشاعة ما حلّ به وبعائلته من مآس سيصعب نسيانها. أيقن أن الفرصة حانت كي يستعيد رشده ويعدّل من ذاته وربّما ينسى الرّصيف... أدرك معنى الصداقة وأبعادها وانقشع الحجاب عمّن كانوا يتجمّلون من صورته ويتباهون بزينته. اكتشف براءة عفاف وصلابة ماجدة وقوّة مواقفها وعدم رضوخها وانقيادها وراء السّطحية الجارفة. منذ اليوم ستكون لتلك الفتاة مكانة خاصّة في قلبه.

بالنسبة لرجب كانت الأمور والمشاعر مختلطة. كان يرغب في القصاص ممّن

أجرم في حقّ فلذة كبده ولكنه احترم رأيها. سيلزمه الوقت كي يقدّر عفوها وموقفها. ما فعلته جعل عيناه تدمعان فخرا وانبهارا، وأحسّ في تلك اللحظة أن طفلته قد اكتملت واعتلت عرشا رسمه لها يوم ولادتها وتمنّى أن يراها متربّعة فوقه كأسمى مخلوق بين الإنسانية قاطبة. تجاوزت الإهانة والضرب والتنكيل بجسدها وذاتها وتمريغ كرامتها وأنوثتها في التّراب. تجاوزت احتقار صلاح لها وتعالي كريم عليها. اليوم تغلّبت بأخلاقها الرّفيعة على ضعفهم وجريهم وراء غرائزهم ونفوسهم الحاقدة. إنها بروحها الطاهرة وقلبها الصافي وصبرها وحسن تربيتها وثقتها بشخصيّتها قد اعتلت ذلك العرش. لم تنتظر هديّة أو منة من أحد. لم تنتظر أن يُنصفها القانون أو أن يلهث الأمنيون وراء حقها. الطريق إلى ذلك المبتغى لا يزال طويلا.

عبر الرباعي ممشى ضيّقا أوصلهم إلى رصيف زيّنت الأعشاب والأزهار أطرافه، ومنه إلى مكتب طلي بابه باللّون الأزرق اللازوردي العتيق، واكتظ أمامه مواطنون جاؤوا لتصريف شؤون عالقة بين شكاوى وملفّات ضائعة وفاتورات لم تستخلص. تقدّم كريم بين النّاس ينبّههم أن يبتعدوا عن طريقهم كي يفسحوا المجال أمام مريم فلا يصطدم بها أحد ويحيّر أوجاعها، لكن صوت المحقّق سالم ناداهم من الخلف:

– لو سمحتم... دكتورة نعيمة... كريم...

استدارت الطّبيبة وابنها فانقبضا لرؤيته وأدركا أنه لم يكفّ عن تتبّعهم. لحق بهم الشّرطي واستغرب تواجدهما مع مريم وأبيها. سوّى ربطة عنقه مرارا وتكرارا ومسح شاربه بأنامله أكثر من مرّة وأراد أن يسأل فبادرته مريم بسرعة:

– سيّدي المحقّق... من حسن حظنا أنك هنا...

فقال لها:

– حقا...؟ هل لي أن أفهم... تفاصيل ما يجري...؟
– أوّلا أريد أن أوضّح شيئا... أنا لا أوجّه إلى كريم أي تهمة...
– ولكنّك قلت يوم مجيئك إلى هنا أنك تتهمينه...؟
– ربّما قلت ذلك تحت تأثير الصّدمة... والآلام... لم أكن متوازنة آنذاك...
– فليكن... وثانيا...؟
– ثانيا وقد جئت إلينا... وحتى لا تعود أدراجك فارغ اليدين... فإني أطلب منك أن تأخذ لنا طريقا كي نجتمع بمدير المشفى وأن تشهد على ما سأدلي به من حقائق بالبراهين لتبرئة السّيدة نعيمة من تهمة السرقة والاختلاس .

أظنّ أن تواجدك معنا سيجبر الإدارة أن تتوخّى التّدابير اللّازمة في حقّ المذنبين الحقيقيّين وأن تعيد الاعتبار إلى الدّكتورة، على الملأ ودون تهاون أو تلاعب.

لم يمض أكثر من يوم حتى كان د. حسين جالسا في مكتب وزيره المباشر الّذي دعاه بسبب شكاية حرّرت في حقّه وأمضاها غالبية الإطار التربوي في الكلّيّة عبّروا فيها عن استيائهم من تصرّفه الّذي ألحق ضررا معنويا عميقا عند المربّين وضررا أخلاقيا بسمعة المنشأة العلمية العريقة، التي طالما دافعت عن تكافئ الفرص وتكافئ منظوريها في إطار المساواة ومناهضة النّعرة والتّفرقة على أساس الجهويات والقطع مع التمييز بشتى أنواعه. وأبلغه أنه في صورة عدم اتخاذ إجراءات ردعية وتأديبيّة عاجلة فإن الأمر سيُحال إلى القضاء للإنصاف وطلب العدل، و في تلك الحال سيجد العميد نفسه أعزل للإجابة على كلّ ما سينسب إليه من تهم. لذلك وبعد نقاش طويل ومطوّل، وللأمانة أيضا، بعد تدخّل مجموعة من الأشراف والشّرفاء ممن دأبوا على الوقوف في صفّ الرّجل وأمثاله، خوفا من أن يحُسم الخلاف لحساب أولئك النازحين والأغراب فيخسر شقّ الدّكتور هيبته وهيمنته إلى الأبد، ولكي لا يُحسب الانتصار لأضداده السّمر، فقد تقرّر أوّلا إحالته فوريا على شرف المهنة، وثانيا وكي تلجم الأفواه التي قد تنعته بالجبان الهارب من حلبة النزاع فيلحق السوء بسمعته وسمعة من يسند ظهره والمنظومة التربوية قاطبة فقد أوكلت الوزارة للسّيد حسين رئاسة بعثة تعاونية في بلدان الخليج للإشراف على مختبر عربي في اللّغة والعلوم.

المهمّ أن الشّريف قبِل المهمّة الجديدة بكل لهفة معبّرا عن فخره وامتنانه إلى الوزارة إذ مكّنته من فرصة فريدة من نوعها ليشرّف تونس على المستوى العربي الموسّع وليكون خير ممثّل للجامعة التونسيّة إجمالا. وأطنب في شكر الوزير لعلمه أن مثل هاته المهام والبعثات تدرّ على أصحابها أموالا كثيرة دون احتساب المحاضرات والتدخّلات الإذاعيّة والتلفزيونيّة وقت المسامرات التثقيفيّة في

اللّيالي الرّمضانية على شرف حمرة الشاشية والجبة الخمرية وحول أطباق القطايف والكنافة والمحلبية.

في تلك اللّحظة التي تسلّم فيها العميد المُزاح مهامّه الجديدة بتكلفة مباشرة من الوزير كان د. عبد الله في الطابق الثاني من مبنى منطقة الأمن وبالتّحديد في مكتب الأمني الّذي التقاه منذ أيّام فيما تعلق بملفّ ابنه كريم والفتاة مريم... أي نفس الأمني الّذي تكفّل بملفّ صلاح أيضا... وطبعا الأمني ذاته الّذي وعد ذلك المجرم بإبادة محتوى هواتفه بعد إنهاء التّحقيق والأبحاث معه.

جلس الأستاذ بقبّعته الدّاكنة يحتسي قهوة منتظرا أن ينهي مضيّفه مكالمة شغلته منذ دقائق على الهاتف القار. وضع الضّابط السّماعة ومضى يرحّب من جديد بالدّكتور ويتبادل معه المجاملات عن اللباس والشّياكة والبوتيكات التي اعتاد كل واحد منهما التبضّع منها والعواصم الأجنبيّة التي زاراها ووجدا فيها ضالّتهما من الملابس والسّاعات والقبّعات التي تواكب الموضة وتناسب أذواقهما. ثم اتكأ الشّرطي بمرفقيه على مكتبه وابتسم وقال بصوته الأجش:

– الحديث معك لطيف أستاذي الكريم...

فأجابه عبد الله مُثنيا:

– أشكرك جزيل الشّكر... أنت أيضا سيّدي... لا يُملّ أبدا من الحديث معك.

تراجع الضّابط إلى الوراء وتمعّن لحظة في وجه الرّجل وكأنه يستعد لإبلاغه بأمر جلل وقال:

– بفضل عمليّات التقصّي ومجهودات الفرق الخاصّة، تمكنّا من القبض على المجرم الّذي عنّف الفتاة التي ادعت على ابن حضرتك... وتوصّلنا إلى أنه هو نفسه من اعتدى على حرمة بيتك...

المهمّ أن هذا الشّخص قد اعترف بمسؤوليّته كاملة فيما نُسب إليه... لذا أريدك

أن تطمئن... لن يكون هناك تبعات بشأن كريم...

ولكنّنا وجدنا بحوزة المذنب مخدّرات وبرمجيّات إعلاميّة محظورة... وأشياء أخرى... لا داعي لذكرها... ولكنّها ستختفي عندما يحين الوقت المناسب لذلك...

فأجاب عبد الله:

– أتفهّم قصدك وخصائص عملك...

– كنت على الهاتف مع مدير مكتب وزيركم... وأعلمني أن سيادته قد أسند مهمّة جديدة إلى الدّكتور حسين بالخليج... وبُناء عليه فقد استقال الرّجل من عضويّة الحزب السّياسي الّذي كان من مؤسّسيه منذ ما يزيد عن الخمس سنوات.

– هنيئا له بالبعثة... لا شكّ أنه سيكون في مستوى المسؤولية الموكلة إليه... كفاءة الدّكتور حسين لا غبار عليها ولا تشكيك فيها...

– تُعجبني رحابة صدرك...

وبناء عليه... أحيطك علما أن ذات الحزب... وفي نطاق احترام مرجعيّاته الفكريّة... وطبقا للأعراف المعمول بها وإثر قيامه بمراجعات نقديّة... ولإعادة بناء وتمتين هياكله... وبما أنّ سياسة الدّولة ومنهجها يقتضيان تواجد تعدّدية حزبية جدّية يعوَّل على انخراطها في المنظومة الديموقراطية والمناسبات الانتخابيّة المصيريّة... كي تفرض مناخا سياسيا متوازنا... يتصدّى لكلّ الانزلاقات الاجتماعية التي تحرّض عليها تشكّلات مشبوهة ومدعومة من طرف جهات أجنبيّة لا تحبّ لهذا البلد العزيز إلّا الخراب والتدهور الاقتصادي والفساد الفكري...

إذن... لهذه الأسباب وأكثر... ومن بعد... دعنا نقول... انسحاب د. حسين... فإن الحزب في حاجة إلى كفاءتك في صلبه... فما رأيك سيد عبد الله...؟

– كل ما أطمح إليه هو عمادة الكلّيّة... ولكنّك تذهب بي إلى السّياسة

والأحزاب...؟

ضحك الأمني ثم قال بمودّة:

– دع عنك ذلك دكتور... أنت أكبر من أن تنحصر جهودك بين جدران الكلّيّة...

حان الوقت ليكون إشعاعك أوسع وأكبر...

ابتسم عبد الله وقال:

– وما المهام التي سيوكلها الحزب لي...؟

تلألأت عينا ممثّل السلطة وقال:

– الرئاسة سيدي... رئاسة الحزب...

تقارير

(١) استفيد لنا أن عبد الله حين كان طالبا بكلّيّة الآداب التي أصبح لاحقا يشتغل معيدا بها، كان يغازل ويراود كل فتيات الجامعة. وقد كان رخما، غليظا، ثقيل الظل إلّا أنّه كان أيضا شاعرا محنّكا، ساحرا بكلماته العذبة وجذابا بطلاقة لسانه وبلاغته وحسن مجاذبته الحديث مع كل من دبّ وهبّ.

كان متملّقا منافقا مغالطا ومراوغا... يستطيع التقرّب من الطّلبة بحسن أسلوبه ودماثة منطقه، ومن معلّميه بثقافته وعمق اطلاعه وغزارة معرفته. تمكّن رغم بساطة مظهره وما كان يراه فيه الآدميون من قبح خلقة أن يظفر بمكانة متألّقة في مجالس الطّلبة وخاصّة الطّالبات، وندوات الأساتذة والمحاضرين من أرباب العلم بجامعته. بالمقابل اكتسب نصيبا كبيرا من الكراهيّة والاحتقار. ممّن؟ من جهة، من أولئك الّذين حرمهم من أن يكونوا فرسانا في أعين فتيات سحرن قلوبهم في طور، ثم دسن عليهم عندما انصعن وراء سحر كلامه ووعوده في طور آخر. ومن جهة أخرى من الّذين وقَفَ هذا الأفّاق حجرة عثرة أمام نجاحهم، وحوّل وجهة الدّرس عندهم إلى ما لم يحسبوا له حسابا من تغيير شعبة، أو تغيير جامعة أو في أقصى الحالات محاولة انتحار. أما أكثر من كان يكنّ البغض والضغينة لعبد الله فهن الفتيات اللواتي عبث بهنّ ولعب بقلوبهنّ وعواطفهنّ الملتهبة وظلّل بهنّ وجعلهنّ يتفنّنن في كيد الحيل للإيقاع ببعضهنّ البعض عندما يفشلن في النيل منه مباشرة.

لكن استفيد لنا أن قلة ذات يده كانت عدوه الأكبر. إذ ينتمي الرجل إلى عائلة ريفية بسيطة وقليلة الموارد، فوالده عامل يومي منكوب لم يفلح في إقناع عبد الله بالانقطاع عن التعليم كي يعينه في تكبّد الشّقاء والفقر سويّة. لم يأبه الابن

الفتيّ لمطلب والده، بل زاده الإحساس بالنّقص وقلّة الحيلة إصرارا وعزيمة على الاجتهاد في طلب العلم والتميّز حتى يقتلع أرفع المناصب.

لم يعرف طموحه حدودا أمام عجزه على مجاراة زملائه الميسورين في نمط حياتهم وإكثارهم من النفقات في ملذاتهم ونزواتهم من غير حساب. حتى وجد الحلّ كي يرضي نهمه ونهم من عاشرهنّ. وجد الحلّ كي يضاهي حليمة ولا يكتفي برمي الورود وإلقاء الشعر ونضم القصائد... كي يكون ملء عينيها الجميلتين... كي ينفق دون حساب في الجولات والرحلات... كي لا يحرمها الفسحات والمآدب وقاعات السينما والمسارح والمتاحف والتظاهرات والهدايا بموجب أو من دونه... وجد السبيل كي يرفع من موارده دون شقاء أو تعب... كان الحلّ سهلا ممتنعا لا حرج فيه.

الزواج من غيرها... من صاحبة الدّخل القارّ... من التي ظنّت أنه اختارها دون فتيات جيلها... تلك التي انخدعت أكثر من غيرها عندما باح لها أنها سلبت قلبه وعقله ومداركه... من التي تفنن في سلب إرادتها وحجب النور عن بصيرتها كي لا ترى منه النفاق والانتهازية...

بل في واقع الأمر وإحقاقا للحق من التي أبت أن تفوّت فرصة زواج لم تكن لها في الحسبان. فتاة قضت معظم سنين عمرها تدرس وتجتهد حتى أصبحت يائسة من الارتباط يوما بمن هو أهل بمستواها العلمي... والاجتماعي خاصّة. فلقد استفيد لنا أن الشّباب من أندادها لم يقبلوا بعد على فكرة الاقتران، حتى يتخرّجوا وينعموا ولو لفترة بشيء من الحرية قبل أن يطبق عليهم فخ الزّوجية، وإن حدث ذلك فالشرط الأساسي لاكتمال نصاب ذلك المشروع أن يكون من فتاة جميلة حسناء تصغرهم بخمس أو ست سنوات كأدنى تقدير، وهذا شرط افتقرت إليه نعيمة، ولم يكن فيمن يكبرها بتلك السنوات قد انقاد نحو بساطتها و بخل الطبيعة

عليها بنعمة الجمال.

أقنعها عبد الله أن الطّب لا يكتمل إلا بالشاعرية... فصارت تقنعه بأن الآداب لا تستوي عيوبها بدون تشخيص وتطبيب جيد. باح لها أنه وُلد ليكتمل بها... فأجابته أنها قد تنعدم الوجود من دونه. قال أنه يرى فيها الكمال... فقالت له أنه أجمل الرّجال. أقسم لها أغلظ الأيمان أنه متيّم بها رغم السنوات التي تكبره بهنّ... فجعلت راتبها رهن إشارته وحسن إدارته إلى حين يتخرج ويتوظف ويصبح ذا دخل خاص. وانطلقت ترسم الأحلام وتبدّد الأوهام وتعاند من ينتقده أو يلومها فرط انصياعها الأعمى وراءه. تزوّجت منه وأمّنت السيّارة و البيت وجهازه عندما كان يدرس ويثابر ويجتهد كي يفوز لنفسه، كي يفوز على الآخرين، كي يبدّد ماضيه وينتصر على أبيه، وفقر أبيه، وعالم أبيه البسيط والمنهزم وعديم الطموح. وكان له النّجاح في نهاية المطاف. كلّل بالفوز وبِرضا معلّميه عليه، حتى تم إدماجه صلب هيكل التعليم والجامعة و المجالس العلمية. وأصبح المعيد، ثم الأستاذ ثم الدّكتور. وصار يبحث لنفسه وسط أعماله ودراساته وأبحاثه عن صفة تتفوّق على صفة الدّكتور التي باتت تبعث في نفسه الازدراء والاشمئزاز لأنها ارتبطت لفترة مهمّة من مسيرته بوَليّة نعمته، الدّكتورة نعيمة رغم ما كرّست من نفيس لخدمته وصون كرامته. فيما مضى كانت نعيمة تشتغل ليلا نهارا كي تؤمّن التوازن الضروري لراحة الأستاذ المعنوية وخاصّة المادّية. لم تجرؤ يوما قبيل تخرّجه أن تلوم عليه نقص ماله أو عدم قدرته على التكفّل بأبسط المصاريف الأساسيّة في البيت. و بالمقابل لم يبخل يوما عليها بكلامه، وغزله وعذب مديحه لها . بل يكثر من الشّكر والامتنان وعبارات الإخلاص والوفاء والحبّ. ما عسى كلّ هذا قد يكلّفه؟ لا شيء. كلّ ما في الأمر أنه شخص يحسن الكلام، وُلد هذا الرّجل ونشأ ليتكلم، وهذا العمل لا يكلّفه شيئا. لا يكلّفه مالا... لا يكلّفه مجهودا ولا عرقا... والأهم

من هذا أن الكلام عند هذا الرّجل لا يكلّفه مشاعرا نابعة من القلب. عبد الله لا ولم يحبّ يوما زوجته. إنها مجرد لعبة أو معادلة بسيطة، يقول ما يجب ليحدث ما يريد، إن قال لزوجته أنه يحبّها ويُكثر من حديث الهيام والغرام كانت له الطّاعة وراحة البال وهناء العيش. وإن لم يفعل... تلك الفرضية مستحيلة. فالرّجل كثير الكلام بلا مبالاة، لا يعنيه إن أزعج ذلك غيره، فهو يرى أن من يتكلّم، أو بالأحرى من يحتكر الحديث كان له ما يبتغي وتنازل له النّاس عن حقّهم في إبداء الرأي أو المخالفة أو الاختلاف. وأصبح هو المقرّر بلا منازع.

كان ذلك بمثابة التمرين، فإن تمكّن من ذلك في البيت، سهُل عليه فعله في العمل... وهكذا دواليك. المهمّ أن عبد الله لم يحبّ يوما أحدا. لم يحبّ نعيمة، ولكنه أحبّ الزواج منها وما آلت إليه من منفعة من وراء ذلك. امتلأ جيبه مالا وانتشى لرؤية الغيرة في عيون الشّباب الّذين كانوا لا يكنّون له سوى الاحتقار. تغيّرت هيأته وتحسّن مظهره و هندامه. ارتفع شأنه من شأن قرينته الدّكتورة صاحبة الصّيت الحسن والسّمعة العالية. وليهنأ أكثر بمقامه الجديد جعل لنفسه عشيقة تملأ عليه وقته الفضفاض عندما تكون زوجته تعمل ليلا... ومن أفضل من حليمة عشيقة؟ فتاة هادئة، مسالمة ورومانسية، والأهم من كلّ هذا أنها في غاية الجمال. كان طلبة الجامعة مستنكرين ومستغربين لشأن تلك الحسناء التي رفست قلوب الشّباب، وسلّمت مفاتيح قلبها لذاك المتعجرف القبيح الّذي تفوّق على أقرانه في الدّراسة والمغازلة حتى شق طريقا إلى القمة. استفيد لنا أيضا أنه يوجد من بين الّذين رفضتهم حليمة من قام بمحاولة انتحار بائسة... ومنهم من هجر صفوف الدّرس حتى طُرد من الكلّيّة... ومنهم أيضا من اعتدى على عبد الله بالعنف فكان له السجن. والسّؤال الّذي يطرح نفسه بقوة هو: ما الّذي منع عبد الله من الزواج بحليمة؟

لا شيء.

ما من سبب حال دونه والاقتران شرعا وقانونا من فتاة كانت طوابير الرجال تقف أمامها عبر السّنوات تطلب ودّها وترتقب أن تكون رهن إشارتها. عبد الله وكما سبق الذّكر لم يحبّ يوما أحدا... ولا حتى حليمة. كان كل مبتغاه ألا تكون لأحد غيره، فارتآها لنفسه، رهينة. هكذا يفكّر. حين رأى أنها تحت أنظار الشّباب ومركز اهتمامهم، قرّر لإدراكه مدى كرههم له أن يحرمهم منها و يمزّق قلوبهم عندما يدركون أنه هو من فاز بودّها. كان يعيش سباقا مع الآخرين، وهم عديدون، وكان ينتشي لرؤية حبيبته متعلقة به وبوعوده الواهية واللامتناهية ويقول لنفسه ما عسى أولئك الشّباب يظنّون به وقد تغلب عليهم؟ بل علام تراهم يقدمون إذا بلغهم أنه لا يحبّها؟ لأنه فعلا لا يحبها... ولكنّه قرر أن تكون رهن إشارته وسجينة وعوده الزائفة بأنها ستكون يوما ما شريكة حياته... لم يكن من الصعب عليه إبقاؤها على تلك الحال حين احتال على إخلاصها، وكسب ثقتها، وبدّد مشقّة طول انتظارها بالأوهام والخزعبلات والكذب.

(للتفضّل بالإحاطة)

(٢) استفيد لنا أنّ ضحكة مبتكرة مستحدثة ومبتدعة قد أَلِف الشّباب تبادلها والإطناب في تكريرها على صفحات التواصل الاجتماعي عند نجاحهم في إنجازات لا تخطر على بال أحد... كتمريرة كرة ثلجية بضربة رأسية خلفية من خلال ثقب إبرة... أو إسقاط جرو من سطح عمارة شاهقة ليقع في قعر طنجرة مليئة بصلصة المكرونة الملتهبة... أو دحرجة عين بقرة عبر سلالم مطاطية وقوالب بلّورية وأنهج مقطوعة وطرقات متشابكة لتتجاوز سيّارات وأرصفة وأناس وغابات وينتهي بها المطاف عبر سلّة مهملات نظيفة وضعت داخل جيب حارس يقف وسط فناء بقسم الجوازات أو ما شابه... المهم أنها ضحكة لا يتوانى الشّباب

في إتيانها بتكلّف وجرأة كالفاحشة متمرّدين بها على كل أنواع الضحك. وإن كان التبسّم أدنى درجات الضحك والإهزاق أقصاها فإنّ ضحكة الشّباب تلك كانت وحيدة على سلّمها الخاص بها، معبّأة بالتهكّم والسخرية والتنمّر والنرجسية والمغالاة، ومشحونة بالجعجعة والمعمعة والطعطعة والولولة وما إلى ذلك من أصوات رهيبة مريبة ومفزعة.

(للتفضّل بالإحاطة)

(٣) استفيد لنا أن عبد الله كان في طفولته لا ينعم من خدمات محفظة المدرسة إلا بعد أن تكون قد اهترأت لسنوات عديدة عند أخيه الأكبر، وعندما تحلّ بين يديه فإنها تكون عبئا عليه لأنه سيكون مجبرا على المحافظة عليها بما أنها ستؤول لا محالة من بعده إلى أخته الصغرى. أنه لم يكن يعرف من البروتينات إلّا البيض، وفي أحسن الأحوال مرّتين في الأسبوع. وإذا ظفر بقطعة لحم خروف في عيد الأضحى فلأنّها صدقة من أحد الجيران. أنه لم يعرف الغلال إلّا في الصور. أن ملابسه من سوق الروبابيكيا ولم يكن له فيها حقّ الاختيار، بل وضع ما تفرزه له والدته، وأنه إذا أبدى امتعاضه من وضع سروال فضفاض يفوت قياسه بدرجتين أو ثلاثة، تحايلت المسكينة على ذلك بوضع سلك في حزام السّروال وأقنعته أنها حيلة كي يستطيع لعب الرياضة به دون أن يعوق حركاته. أما الحذاء فقديم ومرمّم من عند الإسكافي، والحلاقة مرّة كل ستّة أشهر إلا إذا اضطره معلّم المدرسة إلى أكثر من ذلك، وليس بالبيت أي آلة كهرو منزلية، لا ثلاجة ولا تلفاز. ذات يوم ظن أن أحوال عائلته انفرجت بعض الشّيء حين ابتاع والده بابور غاز، لكنّه اكتشف أنّه فعل ذلك اضطرارا حتى يريح زوجته من دخان التنور وما سبّب لها من تسمّمات وأمراض صدريّة كلفته باهضا بين أطباء وأدوية. أنه استأنس العار الّذي كان يتقلّده كلّما دخل على البقّال يطلب منه أن يبيعه مائة غرام من مسحوق غسيل

الأدباش أو مائتي غرام من معجون الطّماطم المركّزة، وتراه في ذلك الآن يجهد نفسه ألا ينظر يمينا أو شمالا حتى لا تقع عيناه على الحلوى والمصّاصات والبسكويت الّذين لم تجمعه بهم صداقة طفوليّة متينة. وعندما اشتدّ عوده قليلا أصبح "رجل أعمال موسمية" بين جمع الزيتون في عطلة الشتاء أو الدّهن والطّلاء في الصيف، وإذا ضاقت به الدنيا يشتغل لحسابه تاجرا مختصا في قطف وبيع التّين الشوكي، تجارة مربحة لكنها لا تخلو من الأشواك وأوجاعها وضربات الشمس وأمراضها.

استفيد لنا أيضا أن المآزق عند عبد الله كانت "مأزقية". أي أنها كثيرة العدد و خانقة الأنفاس منذ الصّباح، أي لحظة يفتح عينيه ليذهب إلى المدرسة ببطن خاو وشعر أشعث وفم أبخر، حتى اللّيل، حين يعيد إغماضهما علّه يهنؤ إلى النّوم وأحلامه الوردية والانتقامية من حال نفسه وعائلته البائسة. كان يحبّ أن ينام ويهنأ كي يتسنّى له عدم سماع تنهيدات ووحاوح والديه في كُحلة اللّيل في تلك الغرفة التي آوت ستّة أنفار متلاصقين "رأسا بذنب".

كان عبدالله يكره والده لأنه فقير ومعدوم، وزاد كرهه له عندما سأل ذات يوم أحد رفاقه في مبيت المعهد الثانوي عما تراها تكون تلك الأصوات التي يُصدرها والداه ليلا، فأخبره أنها أصوات المتعة والاغتلام أثناء الجماع بين زوجين. سُخِط الفتى وسأل رفيقه كيف لوالده أن يتمتّع رغم الضّنك والمعاناة فواساه بأن المتزوجين يفعلون ذلك لينجبوا الأطفال. لم يستوعب كيف لأبيه أن يُقدم على ذلك الكمّ الهائل من المحاولات البائسة لإنجاب أطفال آخرين ليرمي بهم في عالم البؤس والخصاصة في الوقت الّذي لم يف فيه بحاجيات أبنائه الأوائل؟ تساءل إن كان سيخذل الأوائل ليلتفت إلى الجدد؟ وإذا كان من سيأتون إلى الدّنيا بعد تلك اللّذة والمتعة سيكون حظهم أفضل من الأوائل؟ استنتج أن والده لم يعرف طريق تلك اللذة في محاولاته السابقة لإنجابه هو وأخواته. لكن الفتى تريّث لفترة

قام خلالها ببحث وسط ما توفّر له من مراجع حتى اهتدى إلى فكّ شفرة ظاهرة والده الغريب والّذي نعته منذ ذلك الحين بالسّادي المازوشي. وأصبح يلتهم الكتب والعلوم ويكتشف الأوصاف والتصنيفات... وتسنّى له بعد ذلك أن يكتشف طبيعة شخصيّات الّذين يحيطون به... وبات يوزّع النّعوت عليهم وينتشي لذلك... وبالمقابل تنطفئ مشاعره تجاههم حدّ الكره في بعض الأحيان. فكيف له أن يحبّ أبا أصبح يراه من زاوية معرفيّة جديدة ساديا، أو أما مازوشية... وهذا الصاحب الّذي أناره بأشياء كان يجهلها... لا بد وأنه فعل ذلك من باب التفاخر والتباهي والتعالي عليه كي يستنقصه ويستدني قدره... ما من شك أن ذلك الرفيق يحبّ نفسه ويراها مثالية لا ندّ لها... إذن فهو نرجسي... وكذلك اهتدى إلى وصف أخيه الأكبر بالانبطاحي القانت، وأخته بالخاضعة والمكتئبة، وهكذا دواليك مع بقية عائلته والجيران والخلان والفتيات والزّملاء وطالت قائمة تصنيفات كل من يحيطه بين من يعاني من اضطراب الشّخصية المرتابة... أو الذهان... أو انفصام الشّخصية بأنواعه... إلخ...

وبالرغم من هذا وغيره من المآزق العائلية وخاصّة الماليّة، لم يخطر بباله يوما أن يهجر المدرسة وما عساها تقدّمه له من فرص ستكون تذكرة عبور بين عالمي الفقر والنجاح. فوسط معاناته اليومية اهتدى إلى فكرة بسيطة أصبحت فيما بعد عقيدة لا تقبل الزعزعة، وهي أن الأعمال اليدويّة والجسديّة مضنية، وتتطلب مجهودات جبارة وإمكانيات بدنية متواصلة... بالمقابل لا تدرّ على صاحبها الكثير من المال... بينما الأعمال الفكرية والذهنية لا يلزمها جهد مبالغ فيه، إنما مادة رمادية جيّدة وفي حالة استنفار متواصل لاستيعاب المعلومات اللازمة حول شخصيات مخاطبيه... وصناعة فكريّة بلا حدود، ومقابل ذلك، إن هو أحسن توجيه منتوجه نحو من هم متعطشون إلى ذلك حدّ الإدمان، فالأموال والأرباح ستكون يسيرة ووفيرة.

(للتفضّل بالإحاطة)

(٤) استفيد لنا أن خليل جاء ثمرة عمليّة مصالحة بين الدّكتورة وزوجها المحترم حين اكتشفت خيانته لها وقرّرت أن تنفصل عنه، لكن الرّجل وحرصا منه على ألّا تدنّس سمعته التي جاهد لعشرات السنين كي تبقى نقيّة ناصعة وتفتح له الطريق أمام النجاح العلمي والعملي أقنعها ببراءته من أي تهمة وحتمية أن تواصل معه المشوار المقدّر، وأن تغضّ النّظر عن أي تصرّف تراه مهينا لها وهاضما لحقّها، وأن تأخذ بعين الاعتبار حرصه على عدم جرحها وتقديره لتضحياتها معه وتفانيها في الحفاظ على بيتها وشرفها. ووعدها أن تغدو كما كانت سيّدة البيت وسيّدة قلبه مهما كانت الأوضاع ومهما حدث من تغيّرات ومهما راودته رغبات وشهوات، وطلب منها أن يكون صدرها رحبا وقلبها عطوفا وعقلها كبيرا، وأن تنسى ما حصل لأنه وحسب كلماته لم يحصل شيء سوى نزوة عابرة وحادث أعزل ليس من شأنه أن يهدم الحبّ الّذي يكنّه لها والتي حظيت به دونا عن بنات حواء... المهم أن عبد الله أغدق عليها بأحلى التعابير وألطفها عن حبّه لها حارصا كل الحرص على ألا يتلفّظ فمه بأصغر كلمة اعتذار لأنه لا يحسن أن يخطئ فلا يحسن أن يعتذر ولو كان على رقبته. وبعد الهدايا والتلطّف والغزل والإغراءات جاء خليل دون سابق إنذار واستقبلاه على مضض ودون ترحاب ليذكّرهما كلّما وقعت أعينهما عليه سبب قدومه في حياتهما. كل ما في الأمر أن الأستاذ كان يتردّد في خوض مسيرة طالما حرّضه محيطه ووسطه الاجتماعي المرموق أن ينطلق فيها حاضيا بالتشجيع والدعم اللازمين، لذلك كان شديد الحرص على تلميع صورته وعدم المساس بها بدءا بالتوازن العائلي ومرورا بالمظهر والشياكة وحبّه المزعوم لجميع أفراد عائلته وآخرهم خليل.

(للتفضّل بالإحاطة)

(٥) استفيد لنا أن ذلك الشّاب قال مؤخّرا لملاك أنّ الأوان قد آن كي تأخذ علاقتهما شكلا حميميّا عميقا يجسّد مستوى المشاعر التي تربطهما... وأنّ الحبّ قد يموت إذا لم يستهلك وأنّ الحلّ في المرور إلى السّرعة القصوى. استفيد لنا أن ملاك لا تزال تجترّ جمله الأخيرة:

– Je veux qu'on passe à la vitesse supérieure

– Quand je te vois j'ai des palpitations dans le cœur et des fourmis dans le pantalon

– Je veux pécho

– Te me fais grave bander

لا أحد يشكّك في رقّة الفتى عندما يخاطبها بلغة موليير كي لا يجرحها أو تظن فيه سوء نية وخبثا إن عبّر لها عما يخالجه بلغة لا يعرفها. كانت حتما ستصدّه لو أنه قال لها مثلا:

– أريد أن أنكحك... أريد أن أفرع بكارتك...

– أريد أن أضاجعك

– لقد مللت الاستمناء بيدي وحان الوقت أن تبرهني لي عن مدى حبّك لي.

– علينا أن نمارس الحبّ وإلا فإنك ستخسرينني إلى الأبد.

استفيد لنا أنّ ملاك ترى الفكرة مثيرة وقابلة للنقاش... فهي تحبّه وتهوى الأرض التي تدوسها قدماه، لكنها ليست متأكدة أنها تريد أن تفعل ذلك قبل الزّواج. فالزّواج يعني الكثير بالنسبة لها وما سيضفي عليها من توازن وتميّز بين بنات جيلها وصديقاتها وقريباتها... إذ ستحبّ نظرة الغيرة والحسد في أعينهنّ إن سبقتهنّ في ذلك المضمار. الصبيّة تحبّ الزّواج وتحترمه حتى التّقديس لما رأته وعاشته بين من تراهما أفضل ممثّلين لتلك الرّابطة المباركة... هما مثال ندر وجوده

واستقامته... مثال جعل الحاسدين أكثر من المهلّلين به، أستاذ الأدب ودكتورة الطّب الّذين عرفا كيف يحافظان على بيتهما وسمعتهما وأطفالهما ونجاحهم بين أندادهم. المهمّ أنه استفيد لنا أن فكرة ممارسة ملاك الحبّ أو ربّما الجنس مع صديقها مطروحة، لكنّها لم تتبلور بما يكفي في ذهنها كي تُذهب الشّكوك من قلبها وتُسكت مئات الأسئلة التي شغلت ذهنها صباحا مساء: ربّما كانت نيّته التّلاعب بي ثم تركي بعد نيل مراده...؟ أو ربّما كان صادقا...؟ لكن الأمر صعب... قد يؤلمني... أو يهينني...؟ أو ربّما كان عنيفا...؟ وماذا إن أصبح يطلب مني ذلك كل يوم...؟ ماذا لو أصبحت أنا من يطلب ذلك كلّ يوم...؟ أين سنفعل ذلك...؟ هنا...؟ معنى هذا أنني سأنزع عني ملابسي أمامه...؟ يا ويلي... مستحيل... ربّما بعد مرّات عديدة... ليس قبل عشر مرات على الأقل... ما الّذي أعجبه عندي...؟ إنه قطعا مخادع... كيف يعجب شاب وسيم مثله بفتاة ورثت عن أبيها سمرة بشرته وعن أمها أنفا معقوفا...؟ إذا لم أعطه نفسي... سيبحث عن غيري... في الحقيقة هو ليس وسيما للغاية... من قال عكس ذلك...؟ لكنّه يستحقّ أن أتشبث به... مستحيل... علينا أن ننتظر حتى الزواج... ولكنه لم يطلب يدي بعد... يبوح لي بحبّه كلما رآني... ولم يصرّح لي يوما أنه ينوي الارتباط بي...

ربّما كان خجولا... أجل هو كذلك... وهذا ما يعجبني فيه...

(للتفضّل بالإحاطة)

(٦) استفيد لنا أن لشيراز قدرة مدهشة على مخاطبة أولئك الأصدقاء مهما كانت لُغتهم. فإذا تعلّق الأمر بتلك الشّخصيات المدمّرة من عالم مارفال والتي توحي جزافا أنها بصدد إنقاذ العالم والإنسانيّة قاطبة فإن اللّغة الإنجليزية ستكون في الموعد وستلعب شيراز معهم دورا مهمّا في عملية الإنقاذ تلك، وستقول لهم أنها ستتكفّل بالمهام الصعبة وستقاتل الأشرار وتقتلهم شرّ قتلة حتى وإن تطلب

الأمر منها أن تتغلّب على مشاعرها المرهفة ومبادئها التي لا تتزعزع باستعمال قنابل وأسلحة فتّاكة من شأنها أن تحصد أرواح الأبرياء الّذين سيكونون حتما أضرارا جانبية لكنهم قطعا سعداء في جنة الخلد، هانئين فيها وراضين بما سيكتبه الله لأبنائهم من حياة متوازنة ملؤها المودّة و التحابب بين المجتمعات الإنسانية عموما... و إذا كان للمشهد صلة بالأنيمي اليابانية فإن اللّغة لن تكون عائقا أمام الفتاة التي قضت مئات السّاعات تشاهد تلك المسلسلات حتى أنها لم تكتف فقط بحفظ اللغة اليابانية، وإنما تبلورت وتغيّرت وتبدّلت حتى استنسخت نفسها عن إحدى الشّخصيات المهمّة في أطوار حكايات خيالية تحملها من كوكب إلى آخر وتضفي عليها قوّة خارقة تمكّنها من استجلاب الموتى من أبطال الساموراي الخالدين وتستحوذ على قوّتهم الأسطوريّة لتحارب جيش التنّين الأحمر في مجرّة الشمس اللّيلية التي تنزف شكولاتة زرقاء مُصدرة شعاعا ليزريا غطّى بحار الصحراء الإسفنجية... إلخ... إلخ...

استفيد لنا أن نعيمة سألتها ذات مرّة كي يطمئنّ فؤادها عن ماهيّة تلك الشّخصيّات التي ألفت أن تصاحبهم وتخاطبهم سرّا فأجابت شيراز والدتها ألّا تقلق لأنّ الأمر لا يتعدّى التّقليد المجرّد، كي تنمّي طاقاتها الخطابية واللّغوية والتواصلية بما أنها تطمح أن تصبح محامية فذّة لذلك عليها أن تتدرّب على تقمّص دور المنقذ والمدافع عن الضعفاء مهما كان أصلهم وموطنهم وإن كان متولّدا عن تمخّض أبعد كوكب في مجرّة البراكين الملوخية القديمة التي اخترقت حائط الزّمن والصوت بقوّة الفيڤا المحشيّة بعد امتصاصها لسهام العقل المائية من صاحبة السلطة على مملكة النار الثلجية... إلخ... إلخ... إلخ...

(للتفضّل بالإحاطة)

(٧) استفيد لنا أن خليل في الفترة الأخيرة وبسبب ازدياد وزنه وبطء حركته قد

أصبح حارس مرمى فريقه بعد أن كان مهاجمه الأول.

استفيد لنا أيضا أنه في كل مرّة يكُمل فيها تناول وجبة الغداء مع عائلته إلّا ونهض من كرسيّه يتكسّل ويتمطّط ثم يغادر الطّاولة في غفلة من والديه متظاهرا بأنه ذاهب إلى بيت الراحة إلّا أنه يتّجه إلى المطبخ ليفتح الثلاجة ويأخذ منها أصابع شكولاتة يُخفيها بحكمة في جيوبه ثمّ يركض إلى غرفته عاقدا العزم على أكلها في المساء بعد دوام المدرسة وإن استعصى عليه الأمر فليلا، أما إن استحال عليه ذلك تماما ولم تكن الفرصة سانحة البتة فالحلّ في أن يستيقظ من نومه عند الثانية أو الثالثة صباحا حين يكون كل أفراد عائلته في سبات عميق لينعم بالشكولاتة في هدوء تام مثلما اعتاد أن يفعل مرتين أو أكثر في الأسبوع. لكن بقيت تواجه خليل مشكلة واحدة وهو يعمل على إيجاد مخرج لها في أقرب الأوقات ألا وهي غلاف الشكولاتة وما سبقه من غلاف حلوى وعلكة وقوارير بلاستيكية أفرغها مما كانت تحتويه في الليالي الماضية من عصائر ومشروبات غازية، وأصبحت تأخذ مكانا كبيرا في محفظته التي أصبح من الصعب إغلاقها بحكمة وقد يفتضح أمره خاصّة وأن بعض أدواته تلوثت وتشوهت بقطرات عصير تسربت إليها.

استفيد لنا أنه حاول مرارا وتكرارا التخلص منها في المرحاض إلا أنها كانت في كل مرة يسحب فيها السيفون تطفو فوق سطح الماء ولا تذهب إلى المجاري فيتأزم وضعه ويصعب عليه ما يتبع.

(للتفضّل بالإحاطة)

(٨) استفيد لنا أن الدّكتور عبدالله كان منذ سنة قد أمسك بأسامة، أحد طلّابه في الصّف الثالث متلبّسا بسرقة أوراق الامتحانات من درج مكتبه. لم يفزع الأستاذ ولم يقم بأي إجراء تأديبي، إنما طلب من الشّاب أن يبعث وراء والده ويطلبه للالتحاق بهما كي يجدوا سويّة حلّا مرضيا دون شوشرة أو فضائح أو خسائر لا

تحمد عقباها. وعندما جاء الرّجل إلى مكتب الأستاذ وقدّم نفسه، استقبله الدّكتور بكل حفاوة وترحاب وتجاذب معه أطراف الحديث في شتّى المواضيع حتى تعالت ضحكاتهم وقهقهاتهم بينما كان أسامة يقف بجانب الباب مستغربا من موقف معلّمه، وغير مستبشر لما ستؤول إليه الأمور عندما سيتطرق إلى موضوع سرقة الامتحانات مع والده، رجل الأمن الرفيع المستوى، الّذي انتهى في ذلك اللّقاء بالسّؤال:

– والآن دكتورنا المفدّى... ماذا تقترح إزاء موضوع أسامة...؟

فكانت إجابة عبد الله مفاجأة مفحمة للأمني ونجله معا:

– أي موضوع... سيدي وتاج رأسي...؟ لعلمك... أنا اليوم في منتهى السعادة لأنني تعرّفت أخيرا على سيادتك... لطالما سمعت عنك كل ما يُثلج القلب ويطيّب الخاطر من نزاهة واستقامة... أسامة بمثابة ابني... لا عليك يا بنيّ... لعلمك... لن أغيّر ورقة الامتحان شريطة أن تعدني بأنّك ستحتفظ بها لنفسك كي تكون لك أفضل العلامات في نهاية السّنة... واجبنا عبر الامتحان أن نختبر إمكانيّات الطالب... لكن واجبنا الأهم... هو تجاه المجموعة الوطنية عندما نصطفي خيرة من سيحمل المشعل مستقبلا ولا نترك المجال فسيحا بلا رقيب كي يرتع فيه من ليسوا أهلا لذلك...

وسارت الأمور كما أرادها الثالوث.

(للتفضّل بالإحاطة)

(٩) استفيد لنا أن إسكندر يعيش في أسرة غاب عنها مؤسّساها لانشغالهما في أعمالهما وما أغدقت به عليهما من أرباح طائلة. إذ تخصّص والداه في التّجارة الحرّة وهذا الميدان يتطلّب منهما تكريسا كاملا لأوقاتهما وجهودهما دون ادّخار. ومن قال تجارة قال بالأساس عملاء وأصحاب ووكلاء ومعارف شتّى. ولكي

يظفر التّاجر بأولويات على حساب الغير من المنافسين، وحتى يتسنّى له احتكار السّوق وما سيجنيه من تدفّق كبير لسيول الأموال، فإن الأمر لا يخلو من التحيّز والمحاباة ولم لا، التكرّم والعطاء بلا حدود والإغداق بالهدايا والرّشاوى لكل من بيده مفاتيح مصالحهم. والطريق في مثل تلك الأنشطة لا تخلو من العلاقات المشبوهة والحميميّات المحضورة. ولأن النّعمة زادت وجاءت من حيث لا تنضب نعمه، ولأن منسوب المحرّم مرتفع عن غير نيّة، فإن والدا إسكندر، وللتّكفير عن السّيئات وإنضابها، لم يبخلا يوما في تعديل ميزان الحسنات بمدّ يد العون إلى فقراء محتاجين وإلى يتامى محرومين أو في أفضل الأحوال بالمساهمة في بناء مسجد يضمن لهما بيتا في الجنة، أو بتمويل جمعية خيرية تتكفّل بغسل الذنوب عنهما. أما في ما يخص ولدهما فإنّهما لم يجدا حرجا في الإكثار من الملاطفة والتّدليل والمداهنة، دون أن يُنكرا وعيهما بأنّهما مقصّران في التّواجد الفعلي في حياته اليومية وما يتخلّلها من مشاكل في الدراسة وصعوبات في الاندماج بين الشّباب والحيرة العاطفية مع بنات حواء، كل هذا وأكثر جعل الوالدين السعيدين يختاران أسهل الحلول وهي إكثار الإنفاق على فلذة كبدهما وعلى ملذّاته بدون حساب دون مراعاة هشاشته النفسية وتربّص الأشرار به وبماله.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١٠) استفيد لنا أن عون الأمن الشّاب كان في تلك اللّيلة يقف بمفترق طرقات فاستجلبت انتباهه سيارة لطيفة بان من لوح أرقامها أنها جديدة وحديثة. والّذي استرعى اهتمامه أكثر كان تلك المرأة الجميلة الحسناء الجالسة وراء مقودها. أوقفها وألقى عليها التّحية بكل حفاوة وترحاب وكأنه يعرفها منذ عهد وتجاذب معها أطراف الحديث في مواضيع شتى دون أن ينظر في رخصة سياقتها أو أوراق السيّارة، بل اكتفى بالإمعان في بطاقة هويّتها وعنوانها ومهنتها، ومضى في البداية

يحدّثها عن نفسه وميولاته وهواياته، ثم عرّج على مهنته وخصائصها من رتبة اجتماعية يهابها النّاس وتنجذب إليها بنات حواء بشكل ملفت للرّيبة (على حدّ تعابيره) جعلتهنّ لا يتردّدن في أخذ رقم هاتفه ليكلّمنه أحيانا في أوقات غير اعتيادية آلت إلى إحراجه أمام والدته التي ما انفكت تدعو له بالهداية وبنيل مراده في الدنيا قبل منام عينها، وبالذات ابنة الحلال التي ستصونه وتسهر على راحته. وفي كل مرّة كان يجيبها أن مراده صعب، وأنه لن يقدم يوما على الارتباط بإحدى تلك الفتيات الخفيفات الوصوليات، وأن قلبه لن يخفق سوى لامرأة جميلة كاملة الأوصاف، رصينة وذات مستوى اجتماعي يليق بهيبته ومقامه، مؤكدا أن الإنسان لن يحيا أكثر من مرة، لذا عليه أن يعيش تلك الحياة مع الزّوجة التي سيرتاح إليها فؤاده وإلا فالموت أهون. استفيد لنا أنّ السيدة كانت واجمة وراء مقود سيّارتها الجديدة تهاوده وتجاريه في الكلام خشية أن يحرّر في حقّها خطيّة هو قادر على اختلاقها من عدم رغم اقتناعها التّام أنها في وضعية سليمة ونظامية لا غبار عليها. استفيد لنا أن العون وفي نهاية ذلك الموعد ترك السّيدة تكُمل طريقها بعد أن أخذ رقم هاتفها وموقعها في جميع وسائل التواصل الافتراضية وعهدا عليها أنها ستصبح صديقته وأنها لن تبخل عليه بالإجابة إذا ما اتّصل بها، وألا تتردّد في الاتّصال به في أي وقت يحلو لها وألا تهتم بفرضية إحراج والدته من عدمها. ومرّة تلو مرّة، ومكالمة تلو أخرى، أصبح الشّاب يعتبر نفسه أقرب المقرّبين إلى تلك المرأة، فيُكثر من مهاتفتها والشكوى إليها عُسرَ ما يتكبّده في مهنته، وضنك ظروفه المادية، ونيّته تغيير حياته تغييرا جذريا ووضعها على المسار الّذي يليق به وبآماله، ويبوح لها أن الحلّ الوحيد لذلك هو الزواج من امرأة ميسورة حتى وإن كانت تكبُره سنّا. وحين عهدت مجاراته "خشية من الخطايا" (إما ببطاقة شحن هاتف أو بعلبة شوكولاتة أو قسائم طعام من وظيفتها)، ومصارحته أن لا ريب في أنه

حتما ومن دون أي شك أو نزاع، فتى أحلام ألف فتاة وفتاة، وعندما تُذكّره أن ما بيدها حيلة لأجله لأنها متزوّجة وأم لبنتين صغيرتين تضنى لأجلهما وفي سبيل عدم التأخر في دفع معاليم دراستهما الباهظة في إحدى المدارس الخاصّة، يستدرك بكل رشاقة ولياقة، ويلوم عليها ضيق بصيرتها وفهمها المنحرف لمصارحته إيّاها بما لم يجرؤ على البوح به لأغلى رفيق من أترابه لأنه يعتبرها بمثابة أخت له، ويؤكد عليها أن من واجب الأخت الغيورة أن تسعى في إيجاد امرأة من وسطها أو وسط زوجها الاجتماعي والمهني تناسب مطامح أخيها ومشاريعه كي لا يفني سنوات عمره في وظيفة مضنية بين الدوريّات والأخطار الدّاهمة والانصياع إلى الأوامر دون أن يجني له ذلك دخلا ماليا يشفي الغليل.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١١) استفيد لنا أن رجال الأمن أو "الحراسة" في المستشفيات والإدارات كانوا في الماضي أشبه بموظفين من الدرجة الدنيا. أي أنهم يدمجون في مواقع عملهم عبر شركات خاصّة تنتقيهم من بين الشّباب الهادئ والمسالم والّذين لا يعرفون طريقا إلى المشاكل كالطّلبة في المراحل النّهائية من دراساتهم الجامعية والّذين صعبت عليهم تكاليف الكراء والأكل والشّرب والملبس وبالأخص تحضيرات دكتوراه التخرّج أو ماجستير دروس معمّقة... كما استفيد لنا أن تلك الشركات تنتهج هاته المواصفات في اختيار وكلائها حتى يسهل عليها استغلالهم أفحش استغلال، كتشغيلهم اثني عشر ساعة أو أكثر في اليوم نظرا لاحتساب ساعات العمل كمعيار تحفيزي لرفع مدخول آخر الشهر، أو تعيينهم في أماكن بعيدة عن مقرات سكناهم كي يضطرّوا بصورة غير مباشرة إلى العمل كامل ساعات اليوم دون أن يهدروا الوقت والمال بين وسائل النّقل ومطبّاتها، وبالتالي يصعب على هؤلاء العملة أن تتوفّر فرصة التقائهم بزملائهم كي يشتكوا حال بعضهم إلى بعض، كما يستحيل

عليهم تكوين نقابة تدافع عن استحقاقاتهم المهنية من جهة، وتتسبب من جهة أخرى في صداع لمشغّليهم، بل يكتفون بالرّضوخ إلى الاحتقار من طرف الموظفين في أماكن العمل حين يكلّفونهم بجلب القهوة والشاي والسندويتشات وحمل أغراض السكرتيرة وغسل سيارة المدير مقابل بضع مئات من الملّيمات، زد على ذلك ما يقترفه تجاههم المواطنون الوافدون على تلك الأماكن من تطاول و سب وبصاق وصفعات ولكمات وركلات ترجيحية.

استفيد لنا أنّ الأمور اختلفت اليوم اختلافا كليا، ولأن منسوب العنف قد ارتفع كطوفان غير مفرمل فإن شركات الحراسة أصبحت تنتدب أعوانها داخل قاعات رياضة كمال الأجسام والملاكمة والفنون القتالية والتشريحيّة والصّورة لا تحتاج إلى أي وصف.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١٢) استفيد لنا أن رجب ليس حالة شاذة أو فريدة، فمعظم الآباء يخذلون عادة أبناءهم ولا يفون بوعودهم إليهم. كما استفيد لنا أن الآباء نادرا ما يقطعون عهودا على أنفسهم مع أبنائهم. كل ما يفعلونه هو فرض تربيتهم عليهم وفرض الطّاعة إليهم وفرض النجاح والنتائج المدرسية المبهرة... والرياضية التعيسة... والفنية البليدة... والمهنية المهينة... والارتباطات الزوجية المريبة... في محاولات لا تنتهي لاسترداد أنفسهم عبر أبنائهم، مَثلهم في ذلك كمثل طالب لم يحالفه الحظ للنجاح في الدورة الرئيسية من مناظرة آخر السنة وليس أمامه غير فرصة وحيدة للتّدارك في دورة ما قبل الصيف للإسعاف. ونادرا أن يرى أحد (ما عدا في أفلام وقصص الكفّار الدرامية) شخصا يقطع وعدا لابنه ويفي به. بل ألف النّاس أن يروا آباء تطالب أبناءها بالانضباط والاعتدال وعدم الحياد عن سراطها الخاصّة والابتعاد عن الأهواء في انتظار العائد على الاستثمار والأرباح المرجوة على المدى

البعيد. والطرق في الإقناع عديدة بين عمليات محاسباتية ومواعظ دينية وقوى ردعية وتهديدات بعمليات استئصالية يرضخ الطفل بعد أغلبها ولا يسعه إلا الانصياع وراء ما سطّره له والداه في انتظار أن تتاح له الفرصة للقيام بما يرغب فيه لذات نفسه في الحصص الإضافية مع فريقه المستقبلي.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١٣) استفيد لنا أن حسيبة سيدة جميلة وذات أنوثة صارخة، عرفت كيف تحافظ عليها وعلى نظارة وجهها خاصّة منذ أن تطلّقت منذ ما يزيد على السبع سنوات. كان زوجها السابق قد تورّط في تجارة أفلسته وبعثت به إلى السجن بسبب صكوك بنكية من دون رصيد، فما كان من أهلها إلا أن أقنعوها (إجبارا وتهديدا) بالطّلاق منه كي لا تربط مصيرها ومصير عائلتها الموسّعة بخرّيج سجون سيطالهم بسببه ما طاله من تشويه سمعة وسداد أفق في إعادة بناء مستقبل مهني وأسري سليم. لم تكن للمرأة حيلة أمام إصرار أخوالها وأعمامها على ذلك، وصمت أبيها وأمها الّذين لم يقويا على مواجهة أخواتهم مكتفيين بتذكيرها أن الله لطف وستر إذ حرمها نعمة الإنجاب ولم ترزق من طليقها أطفالا كان سيلبسهم العار والخزي. وظلت على تلك الحال بعد أن كانت أبسط تفاصيل ما جدّ معها عند القاصي قبل الداني مما جعل الرّجال من عمرها ينفرون طلب الزواج منها خوفا من أن يحرموا من زينة الحياة، تاركين المجال أوّلا أمام من كبروها بعشرات السنين يتودّدون إليها ويطلبون القرب منها للتمتع بجمالها دون الخوف من إنجاب أطفال وهم على مشارف نهاية العمر التي تستوجب عناية ممرّضة لن يرفض أحد أن تكون بالمجان... وثانيا أمام المتحرّشين الّذين سال لعابهم أمام جمالها وسوّلت لهم أنفسهم أن تلك السّيدة المطلّقة غير قادرة على مقاومة إغواءهم لها وإن اضطرهم الأمر إلى تشويه سيرتها لإرضاخها إليهم وإلى شهواتهم ونزواتهم الدنيئة عنوة.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١٤) استفيد لنا أن رشيدة ليست كغيرها من بنات جنسها. سيدة قاسية متسلطة وحقودة. عندما تقدّم إليها رجب منذ عشرين سنة يطلب يدها للاقتران به، كانت فتاة جميلة، لطيفة وطيّبة. كانت غاية في الجمال وككل بنات جيلها كانت تحلم بالزواج من الرّجل المغوار الّذي سينتشلها من براثن الفقر وسُلطة الأب الّذي لم تعرف منه سوى القسوة والبطش والعجرفة. استفيد لنا أن والدها كان لا يتردّد في إهانتها وذلّها بموجب أو من دونه ويتمتّع بضربها كلّما دخل البيت مترنّحا سكرانا مخروم الجيب مفلسا، بل ويجبرها على العمل كمنظّفة في بيوت أشخاص أبدعوا في احترام ذاتها البشرية وصون كرامتها وأنوثتها، كي تجلب له المال لشراء ما يلزمه من الخمر الّذي أدمن على شربه بتعلّة أن الله ابتلاه بفتاتين لا رجاء منهما بدل أن يرزقه صبيّا أو اثنين يعينانه على همّ الحياة وفقرها الخانق. كلّ ما كان يهوّن عليها بؤسها وشقاءها أنها كانت تتقاسمهما مع والدتها وأختها الصغرى على أمل الخروج يوما من سجن أبيها الّذي أحكم إيصاده أمام الرجال حتى لا يقطعوا عليه باب الرّزق الّذي كان يدرّ عليه ما يحتاجه لنزواته.

يئست من الزواج ونفرها الرّجال لما لحق سمعتها من سوء، لكن قلبها بات متلهفا إلى النجاة والهروب عند أي رجل آخر غير والدها، و إن نقص شأنه أو قلّ ماله عزاؤها في ذلك أن يتسنّى لها بناء بيت نظيف نقي هانئ، طوبة بعد طوبة رغم أنف ذلك الدّيوث القوّاد. وبعد ممات والدها طرق رجب بابها، وكان في ذلك الوقت وبالرغم من قصر قامته جلّابا ومرغوبا من بنات حيّه وبنات الحي الّذي كانت تسكنه رشيدة وبنات الثلاثة أحياء المجاورة لحي رشيدة وحتى بنات الأحياء المتاخمة لمطار الولاية المجاورة لولايتهم جمعاء. كيف لا والرّجل يعيش في إيطاليا وقد اعتاد زيارة بلده كل صيف بثياب جديدة جميلة زاهية الألوان، وسيارة

حتى وإن لم تكن فاخرة إلا أنها كانت في كل مرّة تختلف عن سابقاتها وتبدو جديدة بين نديداتها من اللاتي يجُبن طرقات بلادنا على مدار السنة. ذات مرة جلب معه سيارة نظيفة رياضية بسقف مكشوف تطاولت من خلاله رؤوس أصحابه بابتساماتهم المؤقتّة الغرور، والّذين اعتادوا الالتفاف من حوله علّ شأنهم يعلو لفترة في الحي وبين بناته وأبنائه، شُغلهم الشاغل في ذلك العهد تأمين التواصل الاجتماعي لرجب وتخفيف مرار الغربة عنه. وبدوره لم يكن الرّجل يتخاذل عن مكافأة صنيع أصحابه بجلب ما استطاع من هدايا تتمثل بالأساس في شوكولاتة وحلوى وفستق وخاصّة السجائر المبسّمة ومعسّل النارجيلة وبعض قوارير الخمر الفاخر الّذي اعتادوا احتساءه بعيدا عن الأنظار، وسط حقول الزيتون أو تحت قنطرة نائية أو وراء منزل عجوز طرشاء تعيش وحيدة لا رأي ولا حول ولا قوة لها كي تطردهم وتنهاهم عن إزعاجها وتقويض منامها.

المهم أن والدة رجب أقنعت ابنها أن يكفّ عن إهدار نقوده يمينا وشمالا في ملذاته وعلى أصحابه البائسين وأن يبدأ فعليا في جمع المال لبناء بيت وتأثيثه وإدخال البهجة على قلبها بالزواج وإنجاب الأطفال كي يهنأ بالها وتطمئن عليه وعلى مستقبله مردّدة في كل مرة:

– لن يرتاح قلبي قبل أن أراك عريسا في بيتك بين زوجة ترعاك وأطفال يملؤون البيت فرحة. المال والبنون زينة الحياة. ألا يكفي أنك تحرمني منك طوال السنة...؟ إياك أن تحرمني من أبنائك... أنا من سيربيهم ويسهر على راحتهم...

فيجيبها:

– لقد فعلت ذلك معي في الماضي وانظري إلى النتيجة... أما ابني... فسأكون أنا الوحيد مسؤولا على تربيته...

و بالفعل، إذ بعد النّصح والتّشجيع من هنا وهناك... وبعد التثبيط والإهماد

بالمقابل، تقدّم رجب يطلب يد رشيدة. أعجبها ومال إليه قلبها، وأمتعها بحكاياته ومغامراته وجولاته في بلاد السباقيتي والبرمجيانو، وخبّرها قصصا ضحكت لجلّها وبكت لما تبقّى لتواسيه هولات الغربة وسقمها. وأصبحت علاقتهما وطيدة ومتينة وكثرت لقاءاتهما وزاد الودّ بينهما. لم يكن حبّا، وإنما أينعت بوادر تحابب وتعاطف كل مع هموم ووهنات الآخر. وكي تهرب من الإجابة عن سؤال طالما راوغته بادرته هي بطرحه عليه حتى تعرف سبب تأخره في الزواج بالرّغم من أنه ميسور وحاله توحي أنه في وضع يسمح له بذلك ويجعل البنات يتهافتن عليه لنيل قربه، فأخبرها عندئذ أن الأمر ليس كما يبدو، وأن وضعه في إيطاليا ليس بالمتوازن والمستقر، وأنه يمرّ مرارا بفترات بطالة تدفع به وقت الضيق إلى التشرد في الشوارع. حتى أنه قبل ثلاث سنوات وجد نفسه في خصاصة لم يعرف مثلها من قبل، كادت تقتله جوعا وبردا إلى أن أصبح من دون مأوى إذ تعذّر عليه دفع حصّته في إيجار غرفة حقيرة في نزل قذر اشترك مع مغتربين آخرين في تأجيرها. ومما زاد الطين بلة آنذاك أنّه أصبح مطاردا من طرف قوات الأمن التي لا تعرف التهاون في صيد المهاجرين اللا نظاميين كي ترحّلهم بالقوّة إلى بلدانهم، وقد أرهقه خوفه آنذاك من فضيحة العودة خائبا إلى تونس، وعسُر عليه حفظ ماء وجهه بين خلانه من الشماتة والغيرة والحسد. ولمّا خشي أن تسبّب خيبته نكسة عند والدته، وبسبب تدنّي حالته الصّحية جرّاء سوء تغذيته ونومه في البرد داخل سيارات مهجورة، اضطر إلى اتباع منهج أكثر ذلّا ومهانة لكسب قوته والخروج من المآزق التي وصل إليها. استفيد لنا أنّ رجب لم يصرّح إلى رشيدة بالحقيقة وقال لها أنه اتجه إلى تجارة المخدرات التي جنى منها المال الكثير وسنتي سجن كسرت همّته وزعزعت عزيمته وجعلته لا يفكّر في الرجوع إلى مسقط رأسه والارتباط بامرأة تحمل اسمه الملطّخ. الحقيقة أن رجب لم يدخل السجن يوما ولم يلمس المخدرات ولو بأنملة أصبع. صحيح أنه

يدخّن كثيرا وله ميل خاص وولع بالخمر، إلا أنه كان يخاف المخدّرات ويهابها حدّ الهوس لما رآه من مصائب حلّت بأصحابه في الغربة أدناها السّجن وأتعسها الموت وأقساها الاختطاف والتعذيب والقتل من طرف عصابات ترويج تلك السّموم. استفيد لنا أنّ رجب التجأ إلى بيع نفسه حتى امتهن الدعارة. كان في بادئ الأمر يقدّم خدماته الجنسية إلى بنات حوّاء الميسورات واللاتي تَقدّم العمر بأزواجهن فأصبحن محرومات من لذّة الجسد مع رجالهن المترهّلين. ثم تطوّرت الخدمات إلى تلبية رغبات أولئك الرّجال المترهّلين بعينهم، حتى إذا ما ذاع صيت ذلك العربي الأصيل ذو القضيب الفولاذي المتين الّذي لا يعرف الانتكاس أصبح زبائنه من المثليّين والمومسات والشواذ بالطوابير والعدّاد يسجّل والمداخيل تزيد يوما بعد يوم. استفيد لنا أن رجب لم يبُح إلى مخلوق بشيء من هذا، بل ادّعى أن أشخاصا ورّطوه رغما عنه في تجارة الممنوعات والأدوية المخدرة وتواطؤوا عليه لسذاجته وقصر حوله حتى زجّوا به في السجن متحمّلا المسؤولية وحيدا دون محام يدافع عنه ويثبت براءته.

لم تجد رشيدة في ماضي رجب ما يجعلها تنفره أو تخجل به. السجن للرّجال و ياما في السّجن مظلومين. لذلك قبلته واعتبرت أن لا شيء يعيبه مادام قادرا على سترها وصون كرامتها وإخراجها من تعاسة ما كان قد فرضه عليها والدها. أرشدها ذكاؤها أنّها بزواجها من رجب ستكون أسعد امرأة في الحي ولم لا في المدينة، إذ سينقلها إلى إيطاليا وسيخرجها من الجحيم إلى حياة أنعم وأرقى. ولم تر من ناحيتها بُدّا في أن تُخفيَ عنه حقيقة ما تعرّضت إليه من مضايقات وتحرّش من طرف أولئك الّذين دفع بها والدها إلى العمل عندهم في بيوتهم أو في مكاتبهم كي يجني المال من وراءها. قالت له أنها كانت تعيش عذابا مضاعفا بين فظاعة والدها الديوث وقبح ما يقترفه مشغّلوها غير قادرة على صدّهم وحفظ شيء من كرامتها

الممرغة في الوحل. أحبّ رجب رشيدة وتعاطف معها وأيقن أنه سيكون الفارس الّذي سيستأصلها من ذلك المستنقع الّذي نبع من الفقر وسخط الخصاصة. تزوّجا وذهبا معا إلى إيطاليا وتبادلا الحبّ والحنان وكانا سعيدين بتلك النقلة التي قلبت حياتهما رأسا على عقب.

استفيد لنا أن رجب أصبح سيّدا ورجلا في بيته، يعود إليه بعد عناء اليوم ليجده مرتّبا مهيّأ و مريحا، يهنأ فيه بجانب زوجة تصونه وتسهر على إرضائه وتدللّه وتبعث فيه القوة والفخر والطمأنينة. بالمقابل عُتقت رشيدة ونالت حرّيتها وباتت على رأس مملكة لا يشاركها فيها أحد... نسيت والدها وكادت تنسى ما فعله بها. انتعشت أحوالها وانكبّ اهتمامها على التبضّع كامل السنة كما يفعل جلّ المغتربين لتعود إلى تونس مرّة أو مرّتين في السّنة وتتباهى بما هي فيه من عيش كريم وزواج محترم، وتنطلق في بيع ما اقتنته على امتداد السنة من بضاعة بأضعاف أضعاف ما تكلّفت عليها.

ومرّت الأشهر والسّنوات وكسبت بدل البيت اثنين وبدل السيّارة عشرين، فكلما ملّت من واحدة غيّرتها في غضون أشهر لتجني من وراءها ربحا لا يستهان به، وكلّما اقترب موعد العودة إلى أرض البلد استبدلتها بأخرى أكبر لتتباهى بها أكثر، وأفسح لتتّسع إلى سلع أكثر وتزدهر تجارتها أكثر فأكثر. وكانت كلما انتهت عطلة الصيف وحان وقت الرجوع إلى إيطاليا باعت تلك العربة الفاخرة بمبلغ باهض تودعه عند خالها عبد الحق الّذي لم تكن تثق في أحد غيره كي يقف على أشغال بناء منزلها الجديد، وفوّضت له كل التفويض لينوبها في شراء لوازم البناء وتكليف العمّال ومحاسبتهم.

ثم ها هي فوق قمّة هرم السّعادة يوم استفاقت تشكو صداعا حادّا وضعفا وغثيانا وأعراضا أخرى سرعان ما استنتجت من خلالها أنها حامل وأنها ستصبح

أما. أدركت أخيرا أنه سيتسنّى لها أن تدلّل من سيحمل اسمها وينياديها أمي، ولم تصدّق أنها ستسهر على راحة ذلك المخلوق الّذي سيخرج من أحشائها وستثأر لنفسها من أبيها الّذي هتك عرضها واغتصب براءتها. أقسمت في ذلك اليوم أن تكون أفضل منه مع من سيجري في عروقه دمها وألا تحرمه من شيء ما حيَت. وجاءت مريم إلى الدنيا وفرحت رشيدة كثيرا، وكم كانت فرحتها كبيرة لأنها رزقت مولودا من جنسها. رأت نفسها في تلك المخلوقة الصّغيرة التي ستتمتّع بالحياة وبحبّ الأم وعطفها وحنانها. أقسمت أنها ستحميها من كلّ ما قد يهينها أو ينقّص من شأنها... ستغمرها بالهدايا والملابس والحليّ... ستزيّن غرفتها بالأصفر والوردي والبرتقالي مثل غرف الأميرات... ستخصّص لها مصروفا يوميّا عندما تكبر... ودفتر ادّخار في المصرف... وستلبسها من المحلّات الراقية أجمل الثياب الجديدة... وستأخذها في فسح نهاية كل أسبوع... و إلى المطاعم أين ستأكل حتى التخمة وتترك للنادل بقشيشا يجعله خادما مطيعا... ستسجّلها في أفضل المدارس أين المعلّمون ملتزمون وأكفّاء بحكم ما يتقاضونه من مراتب منتفخة بما تدرّه عليهم دروس التقوية الخصوصية... ستدخلها نادي مسرح ونادي موسيقى ونادي رسم أو نحت... كي تصبح مرهفة الأحاسيس ولم لا فنانة ذات صولات وجولات في المهرجانات وحفلات الزفاف... ونادي تقوية الذكاء كي لا يستهين أحد بها... ونادي رياضة كي تتقن السباحة أو الرقص أو فنون القتال حتى تكون قوية وحرة... ستجهّزها بأغلى الحليّ والمواعين والأقمشة المطرّزة والمستوردة من الهند... وبكل ما تستحقه عندما تصبح في سن الزواج حتى لا يتقدم لطلب يدها من هو ليس أهلا بها... والأهم من ذلك أنها ستقصّ عليها قصصا طريفة ولطيفة عن عائلتها ونسبها وعن جدّها الّذي كان رجلا غير كل الرّجال، أحبّ ابنته وعلّمها وأوصاها أن تقتدي به في تربية وحبّ أبنائها... ستقول لها أنّه كان

محترما، ذو هيبة وأخلاق، أنه رمز الشّهامة والرجولة، أنه لم يعرف غير السّراط المستقيم، كان يقيم صلاته في حينها، ولم يترك فرضا إلا وأدّاه في خشوع وتقوى، يكره الخطيئة ولا يرتكب ذنوبا يُلام عليها، أنه ربّاها على الورع والاستقامة وعمل الخير ونصرة الضعيف ونبذ المنكر والابتعاد عن التسوّل والفحشاء والبغاء وبيع الهوى والمتاجرة بعرضه أو عرض أهل بيته.

استفيد لنا أن أعواما مضت لم تعرف فيها رشيدة وعائلتها غير السعادة والضحك والألفة، حول لطف وظرف وجمال مريم التي أدخلت على المرأة بهجة لم تعرفها من قبل، ورضا نفس لم يخطر ببالها يوما أن قلبها المجروح قد يسع عُشره. وكانت مشاعرها تزداد يوما بعد يوم تجاه رجب الّذي كان يكرّس وقته للعمل ولإسعادها وتخصيص رعاية كاملة ومودة خالصة لابنته، فكان لا يدّخر جهدا في الاعتناء بها وملاطفتها واللّعب معها والوقوف على كلّ كبيرة وصغيرة من شأنها أن تقرّبه من فلذة كبده كتسريح شعرها أو مسح حذاءها، مرورا بالنزهات كلما سنحت الفرصة في شوارع الحي، أو في المنتزهات أين يحلو لها الجري والقفز مع أطفال من سنها. وكانت رشيدة ممتنة لزوجها ولكل ما يبديه من عناية تجاهها وتجاه ابنتها شاكرة الله أن حظّ مريم بأب مثل رجب يكاد ينسيها ما كان عليه حظها بوالدها.

لكن الأمور أبت إلا أن تنقلب في غفلة. كان يوما يصعب محوه من الذاكرة. رجب وزوجته ومريم يتجوّلون في السوق الأسبوعي في صبيحة ذلك الأحد. دخلت المرأة وابنتها إلى خلفية سيارة بائع ملابس أطفال كي تجرّب لها فستانا زهري اللّون بعيدا عن الأنظار وبرد الربيع المهادن، ولما كان الأب في انتظارهما يترنّح بين الباعة وسلعهم اقترب منه رجل كان في فترة سابقة زبونا سخيّا معه مقابل خدمات جنسيّة جليلة. أراد التملّص منه دون جدوى، فالحريف القديم والبليد أصرّ على

والد مريم أن يمكّنه من نفسه ولو لمرّة واحدة إكراما للأيام الخوالي وواعدا إياه المال من جهة ومكافأته من جهة أخرى بجلب طابور من الزبائن الكرماء والّذين هم في أمس الحاجة إلى التّرفيه عن أنفسهم مع من نُعت فيما مضى ببطل الأبطال بل أيروس إله الحبّ والجنس والمتعة الجسدية. كان كلّ ذلك على مرأى ومسمع رشيدة التي كانت تقف وراء الرّجلين ممسكة بيدٍ معصم طفلتها وبالأخرى بدل الفستان ستّة أو أكثر أرادت أن تأخذ فيهم رأي زوجها وتستسمحه لشرائهم جملة دون تفصيل.

نزل الخبر على قلب المرأة كالسكين يقسمه نصفين، ولم تستوعب ثناياه وإنما أدركت أن التّعيس لا يسعُه النجاة من تعاسته إلّا إلى ما هو أتعس. تراءى لها شريط ما سبق من حياتها وما تعرّضت إليه من استغلال وهتك عرض وفاحشة، تهيّأ لها أنها بصدد إعادة ذلك الشريط مرّة أخرى وإنما بسرعة يصعب تصديقها... عشرات السنين تُختصر في بضع لحظات... تدفّقت مرارة كالحنظل في أحشاءها وعروقها وتملّكها غضب ما كان لركبتيها حمله فخرّت أرضا. تهيأ لها في تلك اللحظة أنها قد تكره رجب... فهي لم تشعر بعد أنّها تكرهه... وإنما بان لها جليّا أنها حالما تتمالك نفسها وتستعيد توازنها ستشرع في كُرهه إلى ما لا نهاية له... وأنها قد تحبّ أن تكرهه... بل إنها ستتمتّع بكرهه و سيعجبها ذلك أيما إعجاب... وأنها ستنتقم منه لنفسها ومن مصائب الدنيا التي عاشرتها وأبت مفارقتها... ستنتقم من والد ابنتها وستستشف أن ينتقم منه كل من له نيّة الانتقام من غريم ما في ربوع الكون ودخائله. رأت أنّ ذنب رجب عظيم حتى أنه ليس من العدل أن تتكفل بمفردها بالانتقام منه... سيكون من واجبها أن تسلّط العالم ومن فيه من مظلومين ومقهورين كي تستعين بهم في الانتقام من رجلها، ليس بذنب الدّعارة فحسب وإنما بذنب إخفاء ذلك عنها... بل وقطعا بذنب أنه خال لها نظيفا نقيّا عفيفا

ومغايرا لما عرفت عن الرّجال من قبله وأوّلهم والدها، فإذا به منقوع في الوحل والقذارة بمحض إرادته حتى النخاع. استعادت رشيدة توازنها وألقت بالفساتين أرضا أمام وجوم رجب حين تفطن أنها واكبت ما حدث وأصبحت على دراية بما أخفاه عنها وظن أنه مدفون دون رجعة. ساد الصمت حتى كاد يخنقهما لولا صوت الرّجل الّذي فجّر تلك القنبلة بنهمه الجنسي يقول بوقاحة المهووسين أنه يجب عليه الانصراف وأنه لن يتأخر في الاتّصال به في قادم الأيام كي ينهيا ما ابتدآ.

ابتعدت أم مريم عن قرينها وابنتها التي صُدمت بمنظر تلك الفساتين الجميلة ملقاة في التراب وهي التي كانت تقيسها وتنوي العودة بها إلى البيت كي تطبقها وتلفّها بعناية في حقيبة السّفر التي ستأخذها معها حين تسافر إلى تونس في غضون شهرين، لم تفهم البنية ما يجري ولكنها أدركت أنها لن تظفر بالثياب الجديدة.

ركضت رشيدة تشق متاهة السوق وروّاده الحائرين بين ما عُرض أمامهم وما افتقرت إليه جيوبهم، والباعة بأصواتهم العالية والمزعجة منذ بزوغ الشّمس وبضائعهم المكدّسة والمختلطة الألوان، واتجهت مسرعة إلى سيّارتها وقد تملّكها غثيان سيطر على إرادتها، ليس بسبب روائح تلك الفطائر الإسفنجية المقليّة من أيادي رجل أصيل غمراسن، والتي ألفت أن تأكل منها واحدة كلّما حلّت بالسّوق وأخرى كلما شارفت على مغادرته، وإنما بسبب وجوه العباد المتلاصقين والتي خُيّل لها أنها انقلبت لتتشابه كلّها مع وجه أبيها. وأصبحت لا ترى سواه وكأنه تضاعف مئات المرّات بعدد المارّة والمرّات التي أهانها بها ومرّغ فيها كرامتها بالوحل. استفاقت تلك المغبونة فجأة وبدون مقدّمات كي تسترجع ما كان داخل قلبها وعقلها من غليان وسُخط. خُيّل لها أن كل النّاس بنفس الوجه القبيح الّذي لم تفلح في مسح ملامحه من وجدانها، كلّهم يتآزرون ضدّها ويتآمرون عليها كي يشمَتوا بها ويسخَروا منها. اصطفّ المئات ممن استنسخت وجوههم وجه أبيها

يضحكون ويتهامسون عليها ويفتضحون أمرها وشأن رجب الّذي حطّم كل ما بنَت من أجل أن تنتصر على معذّبها وقاهِرها. لم تعبأ إلى صوت زوجها يناديها بصوت متعثّر وحنجرة جافة، ولم تُعر اهتماما إلى ما انتاب مريم من إحباط عندما رأت فساتينها أرضا. انطلقت رشيدة "ما قبل ممات والدها" تتمتم وتغمغم بكلام لن يفهمه أحد غيرها ولن يعرف نواياه غيرها. عاودها الإحساس بأنها ستحبّ أن ترى رجب ذليلا ومكسور الهمّة، وأنّها ستحب إيذاءه وتعذيبه والانتقام منه، وستتفنن في جعله يدفع الثمن عن نفسه وعن والدها.

وبدل أن تنطبع ذكرى ذلك اليوم بشراء الفستان، أصبح تاريخ بداية العصيان، وانقلبت حياة رشيدة رأسا على عقب، وتعكّر صفو عائلتها إذ أصبح حقدها على رجب بلا حدود. وأصبحت لا تكنّ إليه غير الاحتقار، وتتفنّن في التعبير عن كرهها له وكيد المكائد ضده رغم ما أبداه من رضوخ وأسف وما قدّمه من آلاف الاعتذارات ومئات الهدايا. استفيد لنا أن أبا مريم هدّد أم مريم بالطلاق، فهدّدته بدورها بحرمانه من ابنته حتى مماته، وعندما سألها عن سبب تمسّكها بالرّابط الزّوجي بينهما قالت أنها ستبقي عائلتها على تلك الحال حتى لا يشمت أحد فيها ويعايرها بالفشل ويحمّلها ذنبا لم تقترفه، لعلمها أن البشر لا يرون في الطّلاق إلا هدما للأسرة مأتاه عيب من المرأة وتهاون منها في صون ما منّ الله به عليها من زوج وبنت وعيشة تُحسد عليها في تونس وخارجها. كان رجب يتراجع أحيانا ويستسلم لإرادة رشيدة وتضييقها عليه وخنق أنفاسه بالسّب واللّعن والإهانة، لكنّه حين ينفذ صبره ويضيق ذرعا من تصرّفاتها، يعاود التهديد باشتكائها إلى السّلطات الإيطالية علّها تساعده على الانفصال منها وتسفيرها وافتكاك الحضانة منها، فالمرأة تفتقر لأبسط الموارد كي تفي بحاجاتها وحاجيات مريم من بعده. وأصبحت المرأة العدو اللّدود لزوجها وماتت مشاعرها تجاه مريم لا لشيء إلا

لأنها من صلب ذلك الغشّاش الزّائف الرّخيص الّذي أجهض عملية انتقامها من والدها كما لو كانت تحت أنظار هذا الأخير ورقابته وسخريته.

ولما زاد منسوب الكره والغلّ عندها، قرّرت العودة إلى مسقط رأسها والعيش بين من تبقىّ من أقاربها وفي بيتها الّذي كانت قد أوكلت إلى خالها عبد الحقّ عهدة القيام على بنائه وفق ما أمْلته عليه من توصيات ومواصفات وطبقا للتصاميم الهندسية، وبما كانت تبعث إليه من أموال ونقود وصكوك. لكنها فوجئت بثالث أسياد الرجال يطعنها من الخلف. استفيد لنا أن الرّجل قرّر بمعيّة زوجته المصون أن يسرق الأموال لصالحه ويُنفق جلّها في احتياجاته اليومية وملذّاته الخاصّة، فهو عاطل من الطّراز الممتاز ممن يترفّعون عن الأعمال المضنية والمرهقة على أمل أن يصبح يوما ذا أملاك وأطيان يظنّ أن معتوها ما قد يمنّ بها عليه لأنه أولى وأجدر من غيره بها. ثم ها هو يدلّس حجّة ملكية بيت ابنة أخته ويستحوذ عليه وينطلق في بناء مسكن على مقاسه ومقاس عائلته الصّغيرة لعَزمه أن يستوطن بذلك البيت ويستحوذ عليه لصالحه.

وجدت رشيدة نفسها في المحاكم والمخافر وأقسام الشّرطة ومكاتب المحامين والخبراء يستنزفون منها ما أمامها وما وراءها في القضايا والرشاوى. وكانت تلك المحنة الجديدة فرصة جعلتها تتقرّب من جديد من زوجها، وفي إحدى المحاولات البائسة للصّلح أتى طه أخا لمريم ونتيجة غير مرغوبة لتأليف القلوب. وأمام كلفة القضايا ومصاريفها المجحفة، وتفاقم المشاكل من كلّ جانب اضطرت رشيدة لبيع البيت الثاني لتتحمّل كلفة افتكاك الأوّل من خالها. وعادت من ثمة إلى تونس وإلى مشارف الفقر والكدح والشقاء، وأصبحت تكره رجب إلى درجة أنها لم تعد تعي أنها تكرهه، محمّلة إياه كل مشاكل العالم حتى أنها اتهمته بأنه تواطأ مع خالها كي تصل بهم الحال إلى ما هي عليه. وانطفأ بريق المرأة بين أناسها وأندادها،

وانطفأ النجاح والتميّز ولم تعد تتفوّق على قريناتها في شيء. زال المال وزالت صفة المهاجرة والفخر والأبهة، وكلّما سألها أحد عن سبب عودتها إلى أرض الوطن بينما غيرها يستميت حتى يهجرها تقول أن زوجها طُرد من مصنع الفولاذ الّذي كان يعمل به، والّذي وقع نقله إلى الصين أين اليد العاملة أقلّ كلفة بكثير مما هي عليه بإيطاليا. وإذا ألح عليها أحد مستفسرا عن عدم تمسّكهم بالبقاء هناك والبحث عن شغل آخر تتفنّن المرأة في ارتداء زيّ محلّل سياسي محنّك يشرح طبيعة التغيّرات الجيوسياسية والاقتصادية بالاتحاد الأوروبي والتي تولّدت عندها موجة بطالة خانقة عادت بالضّرر الأكبر على المهاجرين وسط تنامي النّزعة العنصرية التي ضيّقت الخناق عليهم ودفعت بهم إلى الرجوع إلى ربوع الوطن وأرضه الدافئة وأناسه الطيبين.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١٥) استفيد لنا أن رشيدة لم تنفصل عن رجب بسبب البيت الّذي ظلّ ملكا له وعلى ذمّته رغم ادعائها أمام النّاس أنه لها دون غيرها، مقابل أن يدفن سرّ ماضيه في بلاد الموزاريلا.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١٦) استفيد لنا أن البرباشة يبدؤون عملهم قبل طلوع الشّمس وقد لا ينهوه إلّا في ساعات اللّيل المتأخرة. ليس الأمر في علاقة بالّدورة الاقتصادية النهارية أو بالعادات الغذائيّة لسائر البشر، أو بجدول أوقات وأدبيات إخراج القاذورات من البيوت، بل له في الغالب علاقة بجدول أوقات هؤلاء البرباشة بذاتهم. فمنهم من هم تلاميذ أو طلبة علم، وآخرون من أصحاب المهن الحرّة ذات الإيرادات البخيلة، ومنهم المتقاعدون المعدومون ومن التغطية الاجتماعية محرومون، ومنهم أيضا ربّات بيوت لا يسعهنّ الوقت بين شؤون المنزل ومراجعة

دروس الأبناء ومشاغل المطبخ حتى اضطررن إلى الخروج ليلا لفرز القمامة. كما أن التسابق والتلاحق والمنافسة قد تصبح شرسة بين أهل نفس الكار، واليوم ضيّق وساعاته معدودات، لذا فالغلبة لمن يسبق. المهم أن وتيرة عمل البرباشة ليس من شأن الدّولة الرّاعية والسّاهرة على راحة المواطنين. لم تكن الدولة وراء إحداث هذا القطاع وإنما وراء استغلاله والرّكوب على مزاياه، لما يقدّمه من فرز وتخفيض من كمّ النفايات الهائل في مجتمع استهلاكي بامتياز، وإعادة إدماج ورسكلة لبعض المواد دون أن تضطلع أي دور مباشر في التوازن الإيكولوجي والبيئي، ودون التفكير في تحفيز هؤلاء المكافحين على النهوض بقطاعهم وتأطيره وحمايتهم من الأمراض وهتك الأعراض والمخاطر والاستغلال والتحرّش الجنسي والنفساني الّذي قد يتعرّضون إليه من أناس نصّبوا أنفسهم وسائط بين هؤلاء المنقّبين ومصانع الرّسكلة. الدولة في راحة تامة حيال هؤلاء، ليست من يشغّلهم، لذا فهي في غنى عن دفع الجرايات وتأمين التّغطية الاجتماعية والمعاشات والمنح والأعياد والسيّارات الإدارية ووصولات الوقود والانتدابات والترقيات والرحلات... الدّولة ذكية ونبيهة، إذ لا ترى هؤلاء ولا تستثمر فيهم كي لا تتكفّل بهم وتدّخر نفقات وأرباح تمتلئ بها خزينتها عاملة برأي ومبدأ الأم تيريزا حين قالت "هناك شيء جميل جدًا في رؤية الفقراء يقبلون مصيرهم في المعاناة مثل المسيح... العالم يكسب الكثير من معاناتهم". قد يبدو من البديهي ألا ترى الدولة هؤلاء، لكن من الغريب والعجيب بل ومن المحيّر ألا تهتمّ لما يجول داخل أذهانهم. قد يُمضي الفرد من هؤلاء أسبوعا أو أكثر دون الحديث مع كائن اجتماعي من الآدميين، قد يمرّ أمام الخلق دون أن يلقي تحيّة أو سلاما، قد يلتقط أشياء يرميها أناس مهذّبون ومتحضّرون أرضا دون أن توجّه إليهم كلمة شكر أو عبارة مساندة.

استفيد لنا أنه لم يخطر ببال أحد ولو للحظة أن أناسا مثل هؤلاء، ممن يمضون

أيامهم ولياليهم في العمل بلا هوادة أو انقطاع ودون حديث أو كثرة غلبة قد يكون لديهم أفكار... وربّما خواطر... أو أحلام. أو ربّما كانت لديهم مشاريع ينوون تحقيقها... يقضون اليوم بساعاته في التفكير والتمحيص والتخمين لإيجاد الحلول والسّبل والوسائل للخروج ممّا هم فيه من خصاصة وفقر، والعبور إلى ضفة المهذّبين والمتحضّرين لكي ينعموا بدورهم بنعمة الحديث والمغالاة ولم لا بالنشوة واكتمال ثم ارتقاء إنسانيّتهم ومواطنتهم عند إلقاء الفضلات والقاذورات أرضا. لم يخطر ببال أحد أن مثل هؤلاء النّاس لهم الوقت الكافي كي يفكّروا ويعيدوا التّفكير ويتروّوا فيه، وأن ما أعطوه لأنفسهم من وقت وفرص كي تتخمر تلك الأفكار في رؤوسهم قد تؤدّي بهم إلى حلّ... أو حلول... أو أي نتيجة مجدية ونافعة ومفيدة لهم ولغيرهم. ربّما كانت مشاريع تتطلب جمع المال فتراهم لا يتوانون عن إشراك كل قريب وحبيب في تلك المهنة المهينة كي يتسنّى لهم ادخار ما يلزمهم.

بالمقابل استفيد لنا أنّ أناسا مسقطين في وظائف وعلى مسؤوليّات يُحسدون عليها... يبلون بلاء حسنا في الفساد والهدم وإفلاس الموارد وتجفيف المنابع، لا لشيء إلّا لأنهم لا يفكّرون وليس لهم القدرة على إعمال أدمغتهم وذكائهم في بلورة حلول سويّة وسليمة. ما كان ضرّهم لو أنهم التفتوا إلى أحد أولئك البرباشة ولو طمعا أو جشعا (وليس من باب الإنسانية والشفقة) في إيجاد أو حتى افتكاك فكرته التي قد تعود عليه وعليهم بالربح والرّخاء. لكن ذلك من المثاليّات، والعمليّون من المفسدين لا يهتمّون إلّا بأولئك المهيمنين على النت والمدّعين بأنهم مؤثّرون ليرصدوا لهم الأموال والميزانيات والمستشهرين وفُرص النّجاح والمساحات الإعلامية... للتعريف بأنفسهم، ومنتوجاتهم الهلامية، ووقاحة أغلبهم، ودناءة بعضهم في التنمر والنرجسية المَرضية والتكبّر وفرض سُخطِ ما يدافعون عنه.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١٧) استفيد لنا أن مراد تعوّد الحضور والمشاركة في عدّة برامج تلفزيونية جدّية تبثّ بصورة عامة قبل نشرة الأخبار الرّئيسية المتبوعة عادة ببرنامج البرايم تايم، والّذي هو بالأساس موعد للتفاهة والدناءة الإعلامية والهزل المركب، والضّحك المشروط، والفكاهة المتصنّعة والمتكلّفة والآراء السّاخطة بين ضيوف ومعدّي البرنامج، كلّ أتفه من غيره... تجدهم اليوم في تلك القناة يسبّون ويسخرون من نظرائهم بقناة ثانية، حتى إذا ما اقترحت عليهم تلك القناة دخلا أرفع مما تدفعه الأولى، نقلوا عزالهم وحطّوا بها لينطلقوا في السخرية وسبّ من كانوا في القناة الأولى. والهدف من هاته البرامج...؟ أغلب الظّن أنها من دون أي هدف أو مرام أو منفعة تُرجى لمشاهديها. المنتفعون الوحيدون هم صانعوا تلك الدّرر لا غير. وإن تعالت أصوات تنادي بحذفها والارتقاء بمستوى محتوياتها سينصبّ عليها وابل من السّب من المدافعين عن السّطحية البنّاءة والتي أصبحت تمسك بزمام الأمور في توجيه الرأي العام والسّيطرة عليه ومخادعته وتغييبه عن كُنه مشاكله حتى لا يبحث لها عن حلول، ويستأنس في تلك الفقرات ما يُنسيه عمق ما تتطرق له البرامج الجدّية التي تناقش أمورا حياتية تهمّ الكائن البشري من قريب ومن بعيد، كالتي يشارك فيها الأستاذ مراد وأمثاله، يلعنون ويسبّون هم بدورهم من كان سببا في ما آلت إليه حياة التونسيين منذ فترة. وطبعا لا يفوتهم هم أيضا طلب المال أو أتعابا من قناة إلى أخرى حتى يصطفّوا وراء هذا اللّوبي أو ذاك أو يبيّضوا صورة تلك المؤسّسة أو يلمّعوا سيرة ذلك المسؤول... يُقسمون في كل مرّة أنهم يفعلون ذلك طواعية ولخدمة الوطن من دون مقابل مادي أو معنوي ومن دون تضارب مصالح.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١٨) استفيد لنا أن د. إلهام ليست في وضعية مالية حرجة ولا هم يحزنون.

كلّ ما في الأمر أن ما تجنيه هي وشريك حياتها نقدا لم يعرف يوما طريقا إلى البنوك، لذلك فإن القروض التي تحصّلا عليها على حساب جرايتها الضعيفة – هي وزوجها أستاذ الرياضيّات بكلّيّة العلوم – لم يفيا بالحاجة لإنهاء بناء المنزل. أو بالأحرى لن يتكافآ مع حجم المصاريف التي أُنفقت وستنفق في تشييد ذلك الصّرح العالي. فما كان من أصحابه، المواطنون الأبرار، إلا أن عطّلا الأشغال حتى لا يقعا في المساءلة الجبائية وضرورة تبرير مصادر التمويل والتي كانت في معظمها نقدا وكانت تنفق على هوادة وبكل تؤدة وروّية كي لا تستفز الأنظار والفضول والأسئلة.

(للتفضّل بالإحاطة)

(١٩) استفيد لنا أن والدة عفاف امرأة طيّبة حنونة هادئة ومستكينة، تعمل طول النهار على ألا ينقص بيتها شيء من النظافة والعناية والأكل الطيّب. تبدأ يومها منذ الفجر فتراها تكنس وتمسح وتغسل وتشطف، ثم تطبخ وتقلي وتشوي وتشكشك... دون تذمر أو وجع أو آهات. وبين الواجب والآخر تستغلّ الوقت لمشاهدة مسلسلات يغلب على قِصصها البهرج والتباهي والإبهار من ممثلين شبّان جذبت وسامتهم بنات حوّاء وسحرتها ففتنتها حتى أسرتها. وأصبحت المرأة كآلاف الأخريات ممن لا يقوين على ترك شاشاتهن بضيوفهن الأكارم، يتابعن حركاتهم وتحرّكاتهم، أصواتهم ونبرات أصواتهم، كلماتهم وهمساتهم، أقوالهم وأفعالهم وحتى ردود أفعالهم، وصَولاتهم وجَولاتهم، وسِحر قوامهم ومِشيتهم، وجلوسهم ووقوفهم، وقعادهم وقيامهم، وجريهم ولهيثهم، وضرباتهم ولكماتهم، وحنانهم وشرّهم، وسبابهم وحلو كلامهم وكل ما يصدر من أجسادهم وأفواههم وأعينهم وجفونهم وخدودهم وذقونهم وعرض أكتافهم وتجاويف بطونهم، وهزّة خصورهم، وتسريحة شعورهم، ولمعان شفاههم، ونقاء

حواجبهم، وتدويرة لحياتهم وشياكة ملابسهم وطقطقة أحذيتهم... والأهم منهم وممّا سلف صاحباتهم أو من يلعبن دور خطيباتهم أو زوجاتهم أو طليقاتهم وحتى أمّهاتهم أو خالاتهم وجارات عمّاتهم أو غريماتهم أو حارقات قلوبهم ومفرغات جيوبهم أو الراكبات على ظهورهم والطامعات في أموالهم أو منفقات نقودهم والمختلسات لثرواتهم وميراثهم وجراياتهم أو مسروقاتهم والمتحوّزات على رشواتهم واللّاعبات بأقدارهم وكرامتهم وخاربات بيوتهم وعائلاتهم أو خاطفات أولادهم والمتربّصات ببناتهم وموهماتهم بأنهن منقذاتهم أو الأفضل في حياتهم وحتى بعد مماتهم وكارمات سمعتهم وصائنات عزّهم وعرضهم ومحفّزات بطولاتهم ومانعات شقائهم وفنائهم والشرور عنهم...

إلّا أن والدة عفاف لا تهتم بكلّ هذا وهؤلاء بالدّرجة الأولى. لقد استفيد لنا أنها عاطفية بعض الشّيء، ولذلك تخصّص وقتا لا بأس به في مشاهدة المسلسلات التي تستمدّ منها أفكارا ومشورة مجانية تستعين بها لتدخل تغييرات على حياتها الرّوتينية المقيتة مع زوجها "العادي" و"القديم".

في فترة من الفترات اتّخذت المرأة قرارات واعدة واتّبعت توجّهات جديدة في تعاملاتها الزّوجية كأن أكثرت من الماكياج والمساحيق والعطورات والزينة والذهاب إلى صالونات الحلاقة والتجميل وشراء الملابس الجديدة من "الروبابيكيا" والمكمّلات الغذائية عبر قنوات البيع والشراء التليفزيونية... لكن مجهوداتها لم تؤت أكلها ولم تمسّ مشاعر بعلها العتيق، وإنما عادت عليها بالإفلاس والتّداين ورهن حليّها في سوق المصوغ.

استفيد لنا أيضا أنّها كانت تطمح إلى إثارة الرّجل وإغوائه حتى يتسنى لها إقناعه بالذهاب في خروجة وإن تكن مرّة في الشّهر إلى مطعم لطيف أو مقهى ظريف... أو بقضاء نهاية أسبوع في نزل شيك في الحمامات أو طبرقة... ولم لا

بعطلة ممتعة في الجنوب التونسي بين الصحاري وكثبانها، وتحت أشجار النخيل وتمورها الأسطورة. لكن سيّد بيتها وربّه لم يكن يبالي بما تفعله زوجته وما ترنو إليه. بل كان أب الروتينية وصانعها. لا يحيد عن عاداته اليومية كلّفه ذلك ما كلّفه. أو لعلّ الأمور عنده قد دخلت مرحلة الأوتوماتيكية واللّا وعي. فمساره اليومي على امتداد الأسبوع والشّهر والسّنة لا يتغيّر ولا يتحوّر: عمل... فبيت... فمقهى... ثم فراش النوم للنوم، غير مبال بستّ الحسن والدّلال وما قامت به منذ أنهت غسل الصحون والمواعين من مشط شعر وفرش أسنان ومضغ علكة خالية من السكر وبنكهة النعناع، وغرغرة حلق وتنقية إبط وما إلى ذلك، ومسح العرق وكرد الأيدي كي تنتزع منها رائحة البصل أو الثوم العنيدة والمتخفية تحت رائحة ماء الجفال الحارق والمرطّب للبشرة الحسّاسة. ما إن يضع الرّجل رأسه على المخدة حتى يغوص في النوم في غضون لحظات، ويطلق عنان الشخير ولا يُعير اهتماما لمحاولات زوجته إغداق جوّ من الرومانسية كساعة وضعت شموعا صغيرة في غرفة النوم، أو عندما فرشت الأرضية بأوراق الورود، أو حين شغلت موسيقى عاطفية هادئة.

أدركت أم العيال أنها أصبحت شفافة وغير مرئيّة بالمرّة، فأصابها الحزن واكتأبت، وأحسّت أن استعطافها للحنان وشيء من الانتباه وكلّ ما أقدمت عليه من مجهودات لصيانة ما يربطها بأبي العيال قد ذهّا وأنقص من شأنها وإنسانيتها عنده. ولّت أيام العشق والهيام وحبّ الصبا.

وكان لهذا الاستنتاج الأثر العميق والسيء في نفسية الزّوجة الصّالحة والعاطفية. ورأت نفسها رخيصة، مضمحلّة وضئيلة في دنيا زوجها وقلبه وعقله. وأصبحت مستاءة إلى حد الإحباط والاكتئاب. والّذي حزّ في داخلها أكثر من أي شيء آخر أنها احتفظت بذلك لنفسها ولم تصارح به أي مخلوق على وجه الأرض. أصبحت

كثيرة الحزن وإنما في صمت، و من دون أن ينتبه إلى ذلك قريب أو بعيد. وأكثرت من السكوت والانطواء والعزلة، وزادت من ساعات الوقوف في المطبخ، ولكن هذه المرّة ليس لتدليل زوجها وإنما لتتفاداه ولتتجنّبه وتهرب من رفقته. وطالت فترات مكوثها في البيت وجلوسها أمام التلفاز، واختارت ما يدرّ عليها ذلك الجهاز من المسلسلات خير ونيس. ونما بداخلها شعور جديد تجاه من يتقاسم معها الفراش وغطاءه. ولم تعد ترى فيه ذلك الشّاب اللّطيف الّذي تقدّم إلى خطبتها منذ أكثر من عشرين سنة وفرحت أن تهبه نفسها وأن تتقاسم معه الحلو والمرّ إلى آخر حياتها. أصبحت ترى فيه الغريب الّذي عزف عنها ونفرها وأدخلها خانة الزّوجات المنسيّات والفاقدات لكل قيمة أنثوية أو حتى إنسانية... خانة تكون فيها الزّوجة الخادمة والطبّاخة والمنظّفة والمعينة، وعند ذهاب رجلها إلى العمل أو المقهى تصبح الحارسة على البيت والأطفال والشرف والكرامة والسمعة، والمتعهّدة بالأمان والأمن والنظافة واحترام شروط السلامة البيئية والعائلية والنفسية والاجتماعية... أصبحت تلتهم المسلسلات الواحد تلو الآخر وتعيشها بكل جوارحها وبكل تشكّلات نفسيّتها المهتزّة والجريحة... ولا تطفئ التلفاز إلا بعد منتصف اللّيل حتى إذا دخلت سريرها وجدت فيه زوجها يغطّ في سباته العميق، ناسيا أنه تركها تسهر وحيدة، وغير مدرك تقصيره في أبسط المستلزمات والواجبات التي من شأنها أن تُنعش علاقة زوجية في مرحلة الاحتضار. وإذا ما دخلت المرأة الفراش أدارت ظهرها إلى ظهره حتى لا تصلها رائحة فمه الأبخر الّذي لم يعرف معجون الأسنان إليه طريقا منذ أعوام عديدة، ثم ترصّ الغطاء بينها وبينه كي لا تلمسه، وحتى إذا ما أكثر من الضرط لا ينوبها من نتانته إلا القليل. لذلك وبناء على ما تقدّم كانت المرأة تحرص على ألّا يشاركها في التلفاز أحد، وتتعنّت في طرد أبنائها من غرفة الجلوس كي تخلد إلى إدمانها المفرط في مشاهدة

الدّراما الخيالية التي أنستها واقعها الدّرامي.

(للتفضّل بالإحاطة)

(٢٠) استفيد لنا أن والد سندة هو واحد من بين آلاف... أو بالأحرى ملايين الأعضاء من جيل قرّر أن يدلّل أبناءه دون قيد أو شروط. في صغره كان يعاقَب ويضرَب في البيت من طرف والده أو والدته رحمها الله وسامحها على ذلك، وفي القسم من طرف المعلّم الأوّل ومن بعده الثاني والثالث وحتى العاشر... فالضّرب في صغره كان وسيلة بيداغوجية وتربوية تثقيفية وردعية، ذات أبعاد سيكولوجية واجتماعية، وترفيهية للمدرّس إن لزم الأمر، تساعد على شحذ شخصية ونفسية المتلقي للضرب... والضارب على حدّ السواء.

كان ذلك الرّجل كسائر أعضاء جيله على نفس الرأي والكلمة والأحلام والمشاريع، ومن أهم تلك المشاريع أنه كان ينوي في كبره أن يردّ الصّاع صاعين لكل من رفع يده أو رجله أو ركبته أو نعله في وجهه يوما ما. كان ينوي أن يردّ على العنف بالعنف، وأن يلقّن درسا لوالده ومعلّميه ومعلّماته على مدى أعوام الدراسة كي يبلغهم أن طريقتهم وأسلوبهم هما الأسوأ لتربية الأطفال. لكنّه امتصّ ذلك العنف واختزنه وديعة في غياهب ذاكرته ونفسيته، وأصبح ما أصبح عليه بقدرة قادر آلاف وملايين من البشر (أعضاء ذلك الجيل) من فكر تقدميّ وتطوّر إيديولوجي ورحابة صدر وبُعد بصيرة في التأقلم مع جيل جديد وُلِد من صُلبه. وحلف والد سندة، كما حلف الملايين الآخرون، ألا يلجأ إلى الضرب وأن يجرّم العنف ويبجّل الحوار ويفرضه لأنه أرقى وأكثر ثقافة من الّذين خلّفوه.

لكن كلّما خيّبت ابنته ظنّه بها بتصرّف دون المرجوّ، أو مردود دون المرغوب، كان يبحث في غياهب نفسه الغارقة عن ذكريات كان فيها بطلا هماما لم يقهره الضرب ولم تثن عزائمه الفلقة. كان يسترجع حكايات يتباهى بها ويتفنّن في قصّها

على عائلته وأمام أعضاء جيله، ويقول أن تلك التربية لم تضع هدرا وإنما أنتجت جيلا ذهبيا لن يعاوَد إنتاجه مرة أخرى. ويفتخر بأن الضرب قد أعطى أكله في صنع رجال ليسوا كالرجال ونساء أفضل من الرجال، بأنّه درس بالريشة والحبر في الماضي، وأنه يواكب الانترنت وسفاسفها في الحاضر، وأنه سيعمل على حماية جيل اليوم من نفسه قبل نهاية العمر... تراه آنذاك يتوعّد بعلو صوته ويهدّد بأنه سيلجأ إلى الضرب وأنه قادر على ذلك وأكثر كالسحل والطعن واقتلاع العين والأذن، وبتر الأعضاء والكيّ والدفن والقتل إن لزم الأمر بمدفع رشاش (كان رآه ذات يوم في أحد أفلام الأكشن ولطالما كان يحلم ولازال بامتلاكه وإن كان صدفة ولو تيسّر لبضع دقائق لكي يفعل به رغم العواقب ما يشاء أن يفعله كل من شابهه في المصير والأحلام). ولكنه لا يرفع إصبعا واحدا في وجه طفلته، وإن اكتفى بسحب مصروفها اليومي أو تقليص مصروفها الشهري فسيُحسب له ذلك بطولة تُنقش في كتب التاريخ إلى جانب الاثني عشر عملا خارقا لهرقل.

(للتفضّل بالإحاطة)

(٢١) استفيد لنا أن سامي ابن لجزّار معروف بالمدينة... رجل لطيف خلوق وبشوش مع الجيران والزبائن وكل أهل الحي. رجل مجتهد وصبور، يعمل كامل اليوم وكل يوم... حتى أيام الأحد وأيام العطل المدرسية... وخاصّة الأيام التي تسبق عيد الفطر أو ليلة القدر... أو ليلة النصف من رمضان أو ما قبلها... وعاشوراء... ورأس السّنة الهجرية وما يحيط بها... والإدارية والمسيحية... والمولد النبوي... ومواسم الأعراس والخطوبات والسّان فالونتاين... والبابا نوال وعيد الجلاء والاستقلال... ومناسبات النّجاح في الإعدادية أو الثانوية... وإخفاق الفريق "العدوّ" في إحراز البطولة أو الكأس... واقتلاع التعادل مع الفريق "العدوّ"... أو اقتلاع وظيفة... أو اقتلاع ضرس مريض... أو الحصول على تأشيرة

للذهاب إلى ألمانيا... والتمكّن من الحرقة عبر سربيا... والطلاق والانعتاق... وحفلات اكتشاف جنس الجنين في بطن أمّه... والحجّ والعمرة... والعمرة الثانية... والثالثة... واعتناق الحجاب... أو نزعه... وبسبب الأمراض... وعند الشفاء والتعافي منها... وغير ذلك من المناسبات الخاصّة والعامة. محلّه نظيف عصريّ بثلّاجة كبيرة معقّمة وأدوات متطوّرة لقطع اللّحم وكسر رؤوس الخرفان وعظام العجول وتحضير المقانق وغيرها. يبيع كل يوم عادي من الأسبوع ما يزيد عن الستة خرفان ونصف عجل وما شاء الرّحمان من المنبار والكرشة والمقانق. ولكن عندما يدخل عليه الزبائن لا يجدون عنده أكثر من فخذ ماعز وقطعة صغيرة من لحم بقري وجلد حمل صغير معلّق أمام دكانه وكأن البيع والشراء عنده نادران وشحيحان.

تراه يتذمّر من ضنك العيش، ويردّد أن العين بصيرة واليد قصيرة وقد قلّ عمله وشحّ ماله حتى ضاقت حاله وعسرت ودفعته إلى التداين. ولذلك لا يقصّر في التشكّي صُبحة وعشيّة عند الخضّار والفحّام والبقّال والعطّار والحجّام والحلّاق والبنّاء والطّبيب والممرّض وبائع المرطّبات وبائع المصوغ... ومحتكر السّماد... وبائع البذور... وبائع الجرّارات... وبائع آلة الحصاد... ومندوب الإرشاد الفلاحي وصاحب مخازن التبريد... ومدير معرض المعدّات الفلاحية... والعرّاف... والمعزّم... وحتى إمام الخمس... وجميع مسدي الخدمات كي يساعدوه ويهوّنوا عليه بأن يتغاضوا عن أخذ النقود منه مقابل ما يُعطوه أو يبيعوه. وكان يجمع حصيلة يوم عمل ويخبّئها كلّ ليلة تحت وسادته، وفي نهاية الأسبوع تحت حاشية مضجعه، وفي موفّى العام في حفرة أو بئر أو تحت بالوعة صرف صحي... وإن لزم الأمر في دبره... ما عدا البنوك خشية أن يفتضح أمره وتعرف ثروته وتضيع امتيازاته فتلتفّ به النفوس الحاسدة والطّامعة ويخسر ما اجتهد

أعواما في حرمان نفسه منه، ويجلب أعين الجباية ومشاكلها رغم أنه معلوم أن الجزار في بلادنا ليس مطالبا سنويا لدى الضرائب بأكثر من حفنة نقود من حصيلة درج الدكان في نهاية يوم اثنين شحيح بموجب حالة طوارئ وحظر تجول.

ودأب على تربية أبنائه على هذا الهوس والشّح، فلا يعطيهم مصروفا ولا يشتري لهم جديدا، بل يعلّمهم التّلاعب والشّحاذة وابتذاذ المال من الأصحاب وأخذه مغالبة وشطارة وفهلويّة.

وذات ليلة من ليالي رمضان تعرّض منزل الجزار إلى السّرقة عندما كان يصلّي التراويح في المسجد القريب من بيته. اختلس اللّصوص حليّ أم سامي الّذي قدّرته المرأة أمام الشّرطة بمائة ألف دينار بينما ادعى الرّجل أن قيمته لا تتجاوز الأربعين ألفا. ومضى يضلّل أعوان الأمن ويتلاعب بهم ويمدّهم بمعلومات خاطئة حتى لا يستمدّوا بأسئلتهم له ما قد يوصلهم إلى مخبأ تحويشة العمر السّري فيفتضح أمره في الدّاخل والخارج وعلى المستوى المحلي والوطني، واكتفى بالبكاء والعويل داعيا الله أن يعوّض خسارته بالصّحة له ولذويه وبوقوف جيرانه حوله أكثر من ذي قبل.

المهم أن الأسباب تعدّدت وتكاثرت، فتجلّت أمام سامي حقيقة لا غبار عليها، وهي أن والده البخيل لن ينعم عليه بشيء مما لديه ولن يأخذه معه في أعماله قبل مماته فلن يربح منه شيئا قبل وقت طويل، ومن جهة أخرى وبما أن ميدان عمل والده لن يسمح له بمخالطة بنات حواء وأوّلهن سندة، بنت حيّه والعابثة بقلبه منذ الطفولة، فقد ارتأى الشاب ألا يضيع على نفسه الفرصة في التقرب منها لذلك ابتعد عن اللحوم والشحوم وزفر الليّة ولحق بحبيبته في مدارج الكلّيّة.

(للتفضّل بالإحاطة)

(٢٢) استفيد لنا أن ماجدة هي ابنة الدّكتور يسري.

واستفيد لنا أيضا أن د. يسري عاطفي.

كما استفيد لنا أنه عرف كيف يخفي ذلك منذ زمن بعيد.

كان فيما كان أيام الجامعة يمنّي النّفس بأن يحيا الحبّ في أجمل وأبدع تجلّياته مع التي سيختارها قلبه. انجذب في البداية إلى فتاة ونشأت بينهما علاقة لطيفة لم تدم أكثر من شهور لأنه تبيّن، حسب ما تعتقد محبوبته، أنه لا يصلح بها زوجا أو أبا لأطفالها. اهتدت الصبيّة آنذاك، وقياسا بسلّم ضوابطها الأخلاقية، إلى أن يسري يتموقع في الدرجات السفلى بسبب ابتعاده عن المناسك الدينية. كان ذلك في أولى سنوات الدراسة العليا حين كان لا يطمع في أكثر من صداقة وحبّ بريء بعيدا كلّ البعد عن الانخراط عبثا وقبل الأوان بدهر في مشروع الزواج. قالت له تلك الشّابة وبكلّ جدّية وثقة في النفس:

– لست مستعدة أن أكون بعد عمر طويل في الجنة بينما والد أطفالي في جهنّم يصلى نارا ذات لهب.

ثم تعرّف على ثانية لم تزد مدة علاقته بها عن الأولى. كانت بمواعدته تطمع إلى تلميع صورتها في محيطها علّها تغيظ حبيبها الأوّل والّذي هجرها من أجل منافِسة تفوقها حلاوة ونظارة.

ثم ثالثة أرادها أن تكون من نصيبه فصدّته بلباقة، أو ربّما بلبكة، مستنقصة مؤهّلاته المادّية.

وكانت النتيجة أن تمكّن منه الهمّ وضاقت نفسه وتجبّست وشارفت على التحجّر، وساء موقفه من بنات حواء وأصبح مستاء ومحترزا من مغبّة ما قد ينجرّ عن الخوض مجدّدا في علاقة مع أخريات. حتى رأى تلك الصبيّة التي قدمت إلى الكلّيّة حين كان على أبواب التخرج. كان كلما رآها يبتسم ويهنأ لرؤيتها، وتغمره سعادة صعب عليه وصفها. دغدغت قلبه وحرّكت أحاسيس جديدة في داخله.

لم يظفر منها سوى بموعد وحيد يتيم، افتقد فيه إلى التلقائية وهدوء النفس. كان متشنّجا ومتوتّرا خوفا من ألّا يولد غد لعلاقة تمنّى أن تنشأ بينهما. لكن الغد أتى حين غابت هي. اختفت فبحث عنها، وسأل إن كان لمن يعرفها خبر منها. كان يقف يوما بعد يوم ساعات متتالية أمام مبنى الكلّيّة أو في أروقتها أو في مختلف أقسام المستشفى التي كان يشتغل بها آنذاك، ينتظر قدومها أو مرورها أمامه أو أن يلمح طيفها... ولكنها لم تأت. الأغلب أنها رفضته ولا ترغب فيه ولا تودّ رؤيته. تساءل إن لم يكن عليها أن تفسّر له سبب ذلك؟ ربّما كان هو السبب...؟ ربّما جعلها تنفره ولا ترغب في الرجوع إليه جرّاء تصرّفه اللاتلقائي وعدم جرأته على مصارحتها بأنه كان يريدها أكثر من أي شيء... رغم أنه لا يعرفها جيدا... ولكنه خاف أن تظن به سوءا فتتركه. وضاعت من بين يديه، فحزن وتكدّر لسببين: أوّلهما تخمينه أنها لا تريده ولن تكون من نصيبه بأي شكل من الأشكال، وثانيهما اقتناعه بفكرة لا مناص منها وهي أن عليه إعادة اعتبار اختياراته وعدم انسياقه وراء حلم الحبّ الأفلاطوني.

ثم استفيد لنا أن يسري تعرّف بعد ذلك بفترة على فتاة أغرمت به وعبّرت له عن حبّها فلم يمانع أن ينساب وراءها في علاقة سريعة انتهت بالزواج بالتراضي، وازدانت بمولودة ملأت عليه كيانه ووجدانه وأصبح لا يرى الدنيا وما فيها إلا من خلالها. لعب في حياة ابنته الصّغيرة الأدوار الرئيسية والثانوية وكل أدوار الصفوف الثالثة حتى الأخيرة. كان لها بمثابة الأب والأم والمربي والمرشد والدّليل كي تكتمل شخصيّتها فتنجح فيما ينتظرها من معارك الحياة بحُلوها ومُرّها.

إلا أن زواج يسري عرف منذ مدة قصيرة مشاكل كبرى فرضت عليه الابتعاد عن زوجته وكادت تخطف ابنته من مقاعد الجامعة.

في تلك الفترة تقاطع درب الطبيب وتلك الفتاة التي لم يحظ معها فيما مضى

سوى بموعد وحيد يتيم. دعته للتلاقي فلبّى دعوتها بقلب مراهق تغمره الفرحة ويحيّره الفضول. لم يصدّق أنها فعلت ذلك ولكنّه لم يتردد في الذهاب إليها. حتى كانت أمامه وكانت سعادته برؤيتها لا تقدّر ولا توصف. كانت مثلما رآها منذ ما يقارب العشرين سنة. أو ربّما وجب القول أن وَقْع صورة حُسنها عليه كان كما كان منذ ذلك التاريخ. قالت له أنها تغيّرت وأن الزّمن غيّر من شكلها وأنقص نظارتها ولكنه لم ينتبه إلى كلامها. (في الحقيقة استفيد لنا أن يسري كان يسمع كل ما يخرج من بين شفتي تلك الفتاة، لأنه يتوق شوقا إلى سماع أي شيء لها، وإن هزل، حبّا في عذوبة صوتها ورقّته... وكأن أذنيه عُدِّلتا لسماع ذلك الصوت دونا عن غيره). لم يُعر اهتماما إلى ما أرادت قوله لأنه هام في جمال وجهها وسحر ابتسامتها وبحور عينيها، وخال له أنها ربّما تكون فعلا قد تغيّر بها شيء إلا أن وقع صورتها في أعماق إدراكه لم يتغيّر البتّة عبر السنين. لم ير فتاته بعينيه ولم يرها بعقله ولا حتى بقلبه.

استفيد لنا أن يسري نظر إليها بروحه. هو العارف بخبايا الجسم و مكوّناته، أدرك موقع الرّوح عندما طُبعت صورة وجهها داخل قراره. أدرك كما لو أن نقشا محفورا وسط روحه جُعل أو خُلق منذ نشأته وكان مقدّرا له ألا يسع صورة غير صورة وجهها، وأن انطباع تلك الصّورة دونا عن غيرها، ومهما بدّل الزّمن من ملامحها يولّد فيه نفس السّعادة والرّضا في كلّ مرة تقع عيناه عليها.

استفيد لنا أنه لم يعرف طعم تلك الفرحة مع غيرها من صور البشرية جمعاء... أنه هام وأبحر في محيط تلك الفرحة حتى جعلته لا يأبه لسؤالها عن سبب ابتعادها عنه في الماضي... كي يتمتّع بتلك اللّحظات التي لم يعرف لها مثيلات من قبل. وآثر على نفسه النّبش في ما ولّى وانتهى ليهنأ بالحاضر وما سيتلوه. صارحها أن زواجه يتخبّط وسط مشاكل كبيرة وأنه منفصل عن قرينته، وقالت له أنها لم ترتبط بعدُ فزادت فرحته أكثر فأكثر. وتغيّرت حياته منذ ذلك الموعد وذلك اليوم...

أصبح لا يفكّر في شيء آخر غيرها. بل استفيد لنا وللأمانة أنه انقطع عن النوم والأكل والشّرب كي لا يفكّر في شيء غيرها... وينجذب طواعية وبكل جوارحه إلى روحها... ويسترجع لقاءه معها... ويخطط للقاء آخر، وحديث آخر، وفرحة أخرى. وأصبح شغله الشاغل أن تتّصل به أو تبعث له بإرسالية لتسأل عن حاله، أو أن ينظر في هاتفه إن كانت قد حمّلت شيئا على مواقع التواصل ليعلّق عليه إن استهواه وإلا فلينظر في صورة حسابها ويملّي طرف عينه منها... تلك الصّورة الصّغيرة التي لا يتجاوز قطرها سنتيمترا... فيمتلئ صدره بسرور أصبح لا يُحسن مقاومة إدمانه. وقع في حبّ ذلك السنتيمتر الصّغير وصاحبته، ولم يفعل شيئا لمقاومة ذلك الشعور الجامح والعظيم. شعور... وجب الاعتراف بأن العشق أصغر دعائمه، بل إنه ترك العشق ليُقلع منه وفي لمح البصر إلى الغرام والهيام. وقلّ صبره في انتظار أن تقترح عليه سماع أغنية أو مطالعة كتاب أو مناقشة آخر... أو تدعوه حول كأس من الشاي أو الذهاب في نزهة... وانقلبت حياته وتشقلبت، وصار يستمع إلى ما تختاره من أغان رغم غرابتها عمّا ألف (استفيد لنا أن د. يسري استمع ذات مرّة أو أكثر إلى موسيقى فارسية لا لشيء إلا لتتناسب أذناه مع ما يتخلّل أذنيها الجميلتين من أنغام)، ويقرأ لمن تحبّذ من كتاب ومؤلّفين رغم اختلافهم عن الّذين طالع لهم سلفا (استفيد لنا أنه ذات مرّة قرأ كتابا ذو الخمس مائة صفحة في ثلاثة أيام رغم مشاغله العائلية والأسرية والمهنية. لم يستعص عليه ذلك لأنه كما سبق الذكر، قد انقطع عن النوم والأكل وابتعد عن الالتزامات الخارجة عن نطاق الوظيفة والعائلة فكان له من الوقت ما يكفيه ليلْتهم الصفحات ليس حبّا فيها وإنما حبّا في تقرّب روحه من روح تلك الفتاة). وزاد شوقه إليها، وأصبح لا يرى الدنيا إلا من خلالها وخلال حبّها، وأصبح ملهوفا عليها، وأحبّ تلك اللّهفة وذلك الصّبو. تغيّر كل شيء حوله وصار مختلفا عن ذي قبل... فأصبح للفجر نور

فوق نور، ولليل مناجاة تقوى بها القلوب، وللموسيقى والكلمات أسرار خفيّة وتعابير أبلغ من الصمت. وأصبحت حبيبته شغله الشاغل، يستيقظ على ذكراها ولا ينام إلا على ذكراها (لأنه وكما سبق التنبيه إليه فإن النّوم قد هجر مضجعه)، وإن كان في اليوم ٨٦٤٠٠ ثانية فإن اسمها كان يتردّد في ذهنه أضعافَ أضعافِ ذلك العدد. وصار يظنّ أن ابن الفارض قد خصّه بشعره حين قال:

قلبي يُحَدّثني بأَنّكَ مُتْلِفِي ... روحي فِداكَ عرَفْتَ أمَ لم تَعْرِفِ
يا مانِعي طيبَ المَنامِ ومانِحي ... ثوبَ السّقامِ بِهِ ووَجْدِي المُتْلِفِ
واسأَلْ نجومَ اللّيل هل زارَ الكَرَى ... جَفني وكيفَ يزورُ مَن لم يَعْرِفِ
أخفَيتُ حُبّكُمُ فأخفاني أسىً ... حتى لعَمري كِدْتُ عني أختفي
وكتمْتُهُ عنّي فلو أبدَيْتُهُ ... لوَجَدْتُهُ أخفى منَ اللُّطْف الخَفي
كَمَلَتْ مَحاسنُهُ فلو أَهدى السّنا ... للبَدْرِ عند تَمامِهِ لم يُخْسَف
وعلى تَفَنّنِ واصِفيهِ بِحُسْنِهِ ... يَفنى الزّمانُ وفيه ما لم يُوصف
فالعينُ تهوى صورةَ الحُسْنِ التي ... روحي بها تَصبو إلى مَعْنىً خَفي
ما للنّوَى ذنْبٌ ومَنْ أهوَى مَعي ... إن غابَ عن إنسانِ عيني فهْوَ في
فالوَجْدُ باقٍ والوِصَالُ مُماطلي ... والصّبر فانٍ واللّقاء مُسَوّفي

ووصل المطاف بد. يسري إلى مرحلة أصبح لا يمنع فيها نفسه عن الحلم بما تاق إليه منذ زمن وخاله بعيدا عن مناه. أ يُعقل أن تُصبح تلك الجميلة نصيبه؟ ما الّذي سيمنعه من أن تصبح له ومعه؟ هل آن الأوان ليفعل ما نهى عن نفسه منذ زمن؟ ليفعل ما يرضي ذاته ويُسعدها؟ قضى ما قضّاه من حياته لا يدّخر جهدا أو ضميرا أو وجدانا لخدمة غيره وإسعاد الآخرين ونسي أن يبجّل نفسه ولو لمرّة. هو الآن أمام فرصة ثمينة ليضع نفسه فوق كل اعتبار ويهديها أغلى الهدايا، كي ينسى الآخرين ومن حوله ويعتلي بذاته إلى قمة الأنانية. ترازحت حاله وأرهقه التفكير

ومزّق رشده أمام حاجة مضنية للمضيّ قدما نحو إسعاد شخصه بإسعاد حبيبته، ولعب الدّور الّذي كان يجب أن يلعبه منذ البداية.

وأدرك يسري حقيقة لا ريب فيها... حقيقة أن ذاته بدأت تنتفي أمام ما احتلت حبيبته من مكانة في حياته وتفكيره وحسبانه، وأنه الأجدر لها كي يكون إلى جانبها ويسهر على راحتها كي يسعدها ويحقّق ما ترغب وما تتمنّى.

وأرق الطبيب من التفكير في سبل توصله إلى مبتغاه وتضعه على درب السّعادة. وكم تاق إلى مصارحتها بما يشعر نحوها وبلهفته عليها ومناه في أن تجمعهما رحلة كُتب على موعد انطلاقها أن يتأخر، ولكنها حتميّة ولا مفرّ من قدرها عليهما.

ما الّذي سيمنعه من تعويض تلك السنوات التي حرم فيها من حبيبته والتي كان من المفترض أن تشاركه فيها هاته الملكة التي تربعت مؤخرا على عرش فؤاده وأمسكت بزمام روحه. كلّ ما عليه أن يفعله هو الانفصال عن زوجته بالطلاق نهائيا والابتعاد عن ابنته حتى يظفر بما كان يحسبه مستحيلا.

ثم استفيد لنا أن تلهّيه بحبيبته عن عائلته وأصحابه قد زاد، واهتمامه بما يحيطه قد ضؤل، حتى أنه لم ينتبه إلى مدى تأثّر ابنته بما أصبحت عليه حاله.

أمام شتات أسرتها وجدت ماجدة نفسها تائهة ضعيفة وغير متّزنة، وأسقمتها المحاولات عبثا أن تُقنع نفسها بأن الأمور ستسير إلى انفراج تامّ وأفق منير. ولكن تباعد والديها لم يبشّر بخير، فمرضت البنية وساءت حالها واكتأبت واسودّت الدّنيا أمام عينيها حتى كبّلها الحزن وجعلها تنفر دراستها وتبتعد عن جامعتها ومن فيها.

وأمام تدهور وضع ابنته أيقن يسري في تلك الآونة أنه سيجني عليها إن ترك نفسه تنساق وراء ما يبتغيه قلبه ونداء روحه. ورضخ إلى واقع عسُر عليه تجاهله وحبّ ابنة جعله يرجع عمّا هامت فيه نفسه. وارتأى أن يبتعد عن حبيبة روحه، ويقطع معها كي لا يذهب بها إلى مرحلة قد تندم من بعدها على اتباعه فيها. ربّما

خذل توأم روحه، وربّما سيجعلها تتحامل عليه وتكرهه وتتّخذ منه موقفا سلبيا، ولكن ذلك سيكون طيّبا على قلبه، إذ عظم حبّها في وجدانه حتى خاف عليها أن تلوم يوما نفسها الغالية على روحه وتحاسبها انقيادها وراءه.

استفيد لنا أن يسري اختار أن تهنأ ابنته... وتغضب حبيبته... مقابل أن يحزن ويعتلّ هو.

وأقنع ماجدة بالعودة إلى كلّيتها... وأقنع نفسه أنه لا يعرف كيف يكون أنانيا.

(للتفضّل بالإحاطة)